ايتسو ايناجاكي سيجيموتو

إبنة الساموراي

سيرة

ترجمة عائشة الفلاحي

Telegram:@mbooks90

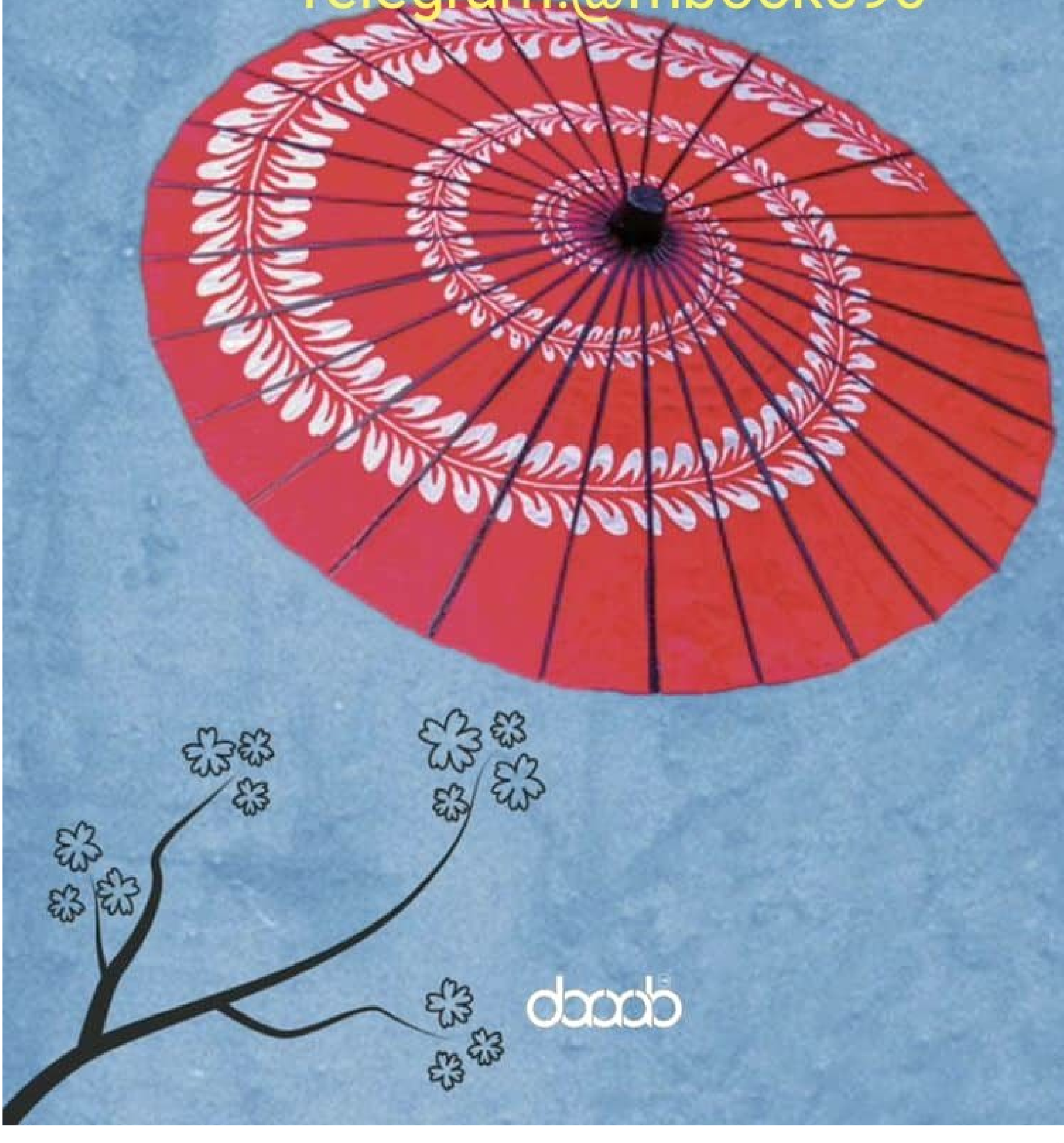

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ايتسو ايناجاكي سيجيموتو

ابنة الساموراي (سيرة)

ترجمة: عائشة الفلاحي

Etsu Inagaki Sugimoto

A Daughter of the Samurai (Autobiography)

Translated by: Aysha Al Falahi

الطبعة الأولى 2024

ISBN 978-1-78871-044-2

حقوق الطبع محفوظة ©

دار عرب للنشر والترجمة

DAR ARAB FOR PUBLISHING & TRANSLATION

info@dararab.co.uk

www.dararab.co.uk

Copyrights © dararab 2024

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى، بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

التدقيق اللغوي: **عبدالله خميس**

تصميم الغلاف: **ناصر البدري**

إهداء..

أهدي هذه الذكريات الغالية مصحوبة بحبي واحترامي وصادق امتناني، لوالدتي اللتين وإن اختلفت حياة كل منهما وبيئتيهما اختلافاً جذرياً إلا أن قلبيهما اجتمعا في قلبي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شكر.

لنانسي فيرجينيا أوستن التي شجعتني برفقتها الطيبة وروحها الحية ومعرفتها العملية وأقنعتني بقدرة إيتسو بو الصغيرة، وقلبها الذي يفيض بحب اليابان الغابرة، على أن تجمع الأجزاء المتناثرة من روح الساموراي لنسجها في عقدٍ عَبِقٍ لقراء اليوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقدمة

تخبئ الصحافة وعالمها الفريد تجارباً شائقة عديدة لأولئك الذين يعملون في بلاطها، وفي لحظة من لحظات الإلهام وحسن الطالع طلبت قبل عدة سنوات من السيدة سيجيموتو أن تكتب لعمودي الصحفي في صحيفة فيلادلفيا، بعضا من ذكريات صباها في اليابان. وهكذا نشرت في البداية أحداثا مثل؛ قصة الكلب «شيرو»، الذي كاد يخسر ترقيه في تجسده القادم حين دثرته بدثارها الخاص، وحزنها الطفولي بسبب شعرها المجعد، ودهشتها حين اكتشفت أن النساء الأمريكيات لم يكن في الواقع أكثر تواضعًا من اليابانيات.. وأحداثا شائقة أخرى في تلك الصحيفة. ومن ثم أسفرت شيئا فشيئا عن هذا الكتاب الماتع الجميل. وقد تشرفت بطلب من السيدة سيجيموتو كي أكتب هذه المقدمة لكتابها. راجياً أن أوفيه حقة. بلا شك أن الفكرة الرئيسية لكتابها هي «أن الحياة في أعظم لحظاتها ماهي إلا نوع من الطقوس إجلالا للآلهة المجهولة». فالسيدة سوجيموتو تحكي لنا عن «جفون الساموراي التي لا تخضل أبدا».

Telegram:@mbooks90

ولا يلام «البرابرة الحمر»، الذين لم يتعلموا الفن الرواقي القديم، إذا شعروا أحيانًا بوخز أليم سببته الحقائق الصادقة بين فقرات كتابها الرقيقة. ينتابني اعتقاد حادس بأن هذا الكتاب ومؤلفته الشجاعة سيظلان لسنوات وسنوات محل إعجاب القراء في كل مكان بما في ذلك أصدقائها في اليابان وهذا ما سيسعدها. أما فيما يتعلق بالسؤال: هل يناسب هذا الكتاب الأطفال؟ فإنني لا أظن أن أيا من المجموعات القصصية الخرافية تفوقه. فيا له من كتاب جميل، يعلمنا الكثير.

بل وللآباء: أليست هذه أدق أنواع الرسائل التربوية؟ هل هناك قصة قصيرة أكثر سحراً من قصة السيد تودا من حيث الفن الخالص والفكاهة والبساطة السردية؟ قال والت ويتمان، الكاتب الأمريكي العظيم الذي كان أبعد ما يكون عن قوانين الساموراي القديمة: «حالما يسرد التاريخ بالصورة الصحيحة، ستنتفي الحاجة للروايات الخيالية»، وهذا تاريخ سُرِد بإتقان. ربما يرى البعض منا أن السيدة سوجيموتو أظهرت بالغ الكرم تجاه أمريكا التي تبنتها. لكنها جاءت إلينا كما جاء

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كونراد إلى الإنجليز، وعلينا أن نشعر بالامتنان حيث استطاعت إيتسو-بو الفتاة الصغيرة، المسترجلة المحبوبة القادمة من الشتاء الثلجي في إيتشيجو، أن تعثر على الجمال في أساليبنا الحياتية الغريبة والعنيفة.

ومن بين حكاياتها المؤثرة وذات المغزى، وكل منها تعد بحق جوهرة من جواهر الفكر والشعور الأدبي، قصة فتاة يابانية كانت زهرةِ البرقوق هي شعار عائلته خطيبها. وهكذا تحتم عليها أن تولي احترامًا خاصًا للزهرة لدرجة أنه لم يُسمح لها حتى بتناول هلام البرقوق، فذلك سيكون بمثابة عدم احترام لشعار زوجها المستقبلي. وعلى نفس النحو، يراودني إحساس مبهم بألا أطيل الكتابة عن السيدة سوجيموتو: لأنني أحمل لها مشاعر الاحترام والتبجيل، وإن أطلت هنا فسيكون الأمر نوعًا من قلة الاحترام لكتابها الجميل. فلا يسعني إلا أن أضيف أن هذا الكتاب يحتوي على قصة مختلفة، عن طفولة فتاة يابانية وشابة شجاعة وجدت بذرة الحرية تترعرع في نفسها، وبدت لي واحدة من تلك الانتصارات النادرة حيث يتحاور عالمان متباينان بصراحة مع بعضهما البعض ليرفد كل منهما الآخر.

وإذ أعتبر زيارة السيدة سوجيموتو لي في مكتب صحيفة نيويورك من أسعد ذكرياتي، وهي القادمة من مسافة بعيدة من وسط المدينة في طقس حار بزيها الياباني، وبرفقتها ابنتها ورفيقتها المحبوبة، كما ينبغي لسيدة عظيمة مثلها، فلأنني أحسست، بدماثة أخلاقها. بذلت جهدًا لأكون لبقًا؛ ما استلزم لفتة تقدير من جانبها. لم أنسها أبدًا: بهيئتها الصغيرة البشوشة، مشرقة في ثوبها الزاهي مثل طائر أو زهرة، أنارت ذلك المكان المزدحم والصاخب لبضع دقائق. يصعب عليّ تخيل ما تجشمته خلال مجيئها، من تعب أو قلق أو مشقة خفية. وهي أمور لن يجازف بخوضها سوى شخصية شجاعة وذات عقل نير. لن يشك القارئ في كونها ابنة ساموراي حقيقة.

أتخيل أن بعض أسلافها الفرسان سيتفاجؤون عندما يجدون أنها قد كشفت عن مشاعرها العميقة على الورق ليقرأها العالم أجمع. ستغطى الأركان المقدسة بلا شك، وسيخيم صمت مرعب. لكن ذلك القانون الإقطاعي القديم القاسي هو الذي منحها القوة لتشق طريقها متجاوزة العقبات البيروقراطية حين اقتضتها الضرورة. لقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسمت لنا هنا رؤية فريدة لجمال الحياة البشرية وتعقيدها الرائع. إنها معلمة متميزة، ولن أخطو على ظلها عن طيب خاطر(1).

كريستوفر مورلي

---

(1). يشير إلى ما ذكرته الكاتبة عن احترام الشعب الياباني للمعلم لدرجة أن الطالب عليه ألا يمشي حتى في ظل معلمه أثناء سيره، بل عليه أن يرجع للخلف ثلاث خطوات. **(كل الهوامش الواردة بالكتاب من وضع المترجمة).**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شتاء إيتشيجو

اشتهرت اليابان لدى أغلب الأجانب بأنها أرض الشمس المشرقة وأزهار الكرز، ذلك لأن السواح لا يزورون في الغالب إلا الأجزاء الشرقية والشمالية منها، تلك التي تعمها الأجواء المعتدلة طول العام. إلا أن الساحل الشمالي الغربي منها يطول شتاؤه، ليكسو الأرض بالثلوج من سبتمبر وحتى مارس وقد يمتد إلى إبريل.

يبدأ الشتاء في مقاطعة إيتشيجو حيث بيتنا، بسيل متواصل وكثيف من الثلوج التي تغطي كل شيء، فلا يبقى للناظر إلى بيتنا سوى الأعمدة الضخمة لسطوحه المكسوة بالقش. عندئذ يقبل العمال، تغطي أكتافهم حصر القش وتعتلي رؤوسهم قبعات كبيرة كالمظلات، يشقون بمجارف خشبية عريضة قناة من جانب الشارع إلى الجانب الآخر ليحملوا عبرها الثلج بين فترة وأخرى طيلة الشتاء، ويبقى الثلج مكانه في منتصف الشارع، يتراكم مشكلاً تلالاً ضخمة تغدو أعلى من سطوح المنازل. وكنا أطفالاً نتسلق تلك التلال، نركض ونلعب ما شئنا من الألعاب في أعاليها. نتظاهر أحياناً بأننا فرسان، ننقذ القرية من ثلوج تسد نوافذها، ونحميها تارة أخرى من هجوم العصابات. وكان أكثر الأوقات متعة لنا، قبيل سقوط الثلج عندما تستعد القرية كلها لاستقبال الشتاء، وتستمر استعداداتها عادة لعدة أسابيع، ففي طريق ذهابنا وعودتنا من المدرسة يوميا، نتوقف لمشاهدة العمال منهمكين بتغطية التماثيل والأركان المقدسة على طول الشوارع بكسوتها الشتوية، لتلتف الفوانيس الحجرية والأشجار والأجمات كلها بالقش. وحتى الجدران الخارجية للمعابد كانت تصان بألواح من الحصر مثبتة بشرائط من الخيزران، أو شباك ضخمة مصنوعة من حبال القش. فيظهر الشارع بمنظر جديد كل نهار، وبحلول الوقت الذي تكتمل فيه تغطية تماثيل الأسود المنحوتة على درج المعبد، تتحول مدينتنا إلى مدينة خيام قش بشعة تضم كل الأحجام والأشكال، في انتظار الثلج الذي سيطمرنا لثلاثة أشهر أو أربعة.

كانت سطوح القش في معظم المنازل الكبيرة ذات حواف عريضة، بينما بنيت سطوح المحلات التجارية في الشوارع من الألواح الخشبية المثقّلة بالحجارة لمنع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الانهيارات الثلجية عند بدأ ذوبان الثلج في الربيع. تحاط الأرصفة خلال فصل الشتاء بجدران من الألواح المستقيمة وألواح من الورق الملون ويمتد سقفٌ دائم أعلاها، ما يجعلها تبدو كدهاليز طويلة ممتدة، محصنة تماماً من الرياح والثلج لدرجة أنه يمكننا المشي في جميع أنحاء المدينة حتى في أجواء أعتى العواصف. لم تكن هذه الممرات معتمة جداً؛ فهناك بصيص من نور ينعكس من خلال الثلج، وحتى عند عبورنا من خلال القنوات الثلجية لركني الشارع كان الضوء المنعكس يكفينا للقراءة. ولطالما قرأت دروسي في طريق عودتي من المدرسة محتذية بالحكماء السالفين الذين درسوا على ضوء الجليد.

تنزوي إيتشيجو بمنأى عن بقية اليابان، واسمها يعني «خلف الجبال»، إذ تفصلها سلسلة كيسو الجبلية الممتدة، لدرجة أن الحكومة لم تر فيها خلال الأيام الإقطاعية الأولى أكثر من منطقة جليدية تناسب أن تكون منفى للمعارضين الأقوياء وذوي النفوذ ممن لا تستطيع معاملتهم كمجرمين، مثل المفكرين التقدميين والرهبان المجددين الذين وُسِمُوا بالمزعجين البغيضين وأرسلوا إلى مكان مقفر لتسحق طموحاتهم للأبد. إذ لم تتقبل اليابان حينها الإصلاحات، لا السياسية منها ولا الدينية. ولينتهي الحال بأولئك المنفيين إما في مقبرة المدينة المتواضعة خارج ساحة الإعدام أو ليتلاشوا وسط الفلاحين البسطاء. يمتلئ تراثنا الأدبي بحكايات كثيرة محزنة تحكي عن شباب أثرياء من عوائل معروفة يتنكرون في ثياب حجاج ويتجولون في شوارع إيتشيجو باحثين عن آبائهم المفقودين. أما المجددون الدينيون فينتهي بهم المطاف إلى حال أفضل، إذ أنهم يمضون بقية حياتهم ينشرون معتقداتهم خفية وبلا كلل بين الناس. بعض مؤسسي الطوائف البوذية الجديدة هم من المنفيين مدى الحياة، إذ كانوا رجالًا يتمتعون بقدرات كبيرة، ما مكنهم من نشر معتقداتهم تدريجيًا حتى انتشرت على نطاق واسع، لدرجة أن إيتشيجو باتت تُعرف في جميع أنحاء اليابان باعتبارها معقل المذهب الجديد للبوذية. لذا سمعت منذ طفولتي المبكرة قصصاً عن أولئك الكهنة، وقد أَلِفتُ رؤية لوحات منقوشة على الصخور أو تماثيل منحوتة تنتصب في الكهوف وعلى منحدرات الجبال تمثل عمل الأيدي الدؤوبة لأولئك الرهبان القدماء.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقع بيتنا في بلدة القلعة القديمة ناجاوكا، وتقطنه أسرتي المكونة مني وأبي وأمي، وجدتي الجليلة، وأخي، وأختي. بالإضافة إلى جيا رئيس خدم والدي وكين وتوشي وبعض الخدم المسنين غير الدائمين الذين يأتون في المناسبات. وأخوات أكبر سناً مني جميعهن تزوجن في أماكن بعيدة عدا أكبرهن التي تعيش على مسافة نصف يوم من ناجاوكا ركوباً على «الجينريكيشا»، وقد اعتادت المجيء بين فترة وأخرى لزيارتنا وكنت أصحبها أحياناً عند عودتها لأقضي بضعة أيام في منزلها الريفي الكبير المسقوف بالقش والذي كان في الأيام الخوالي قلعة لثلاثة جبال. لطالما صاهرت عوائل الساموراي(2)طبقة المزارعين التي تأتي في المرتبة الثانية بعد الطبقة العسكرية، وتحظى باحترام كبير لأن «من يملك حقول الأرز فإن حياة الأمة بين يديه».

عشنا في طرف المدينة في بيت ضخم متشعب لم تتوقف الزيادات والاضافات فيه مذ وعيت. ونتيجة لذلك، تزعزع السطح الثقيل المصنوع من القش عند الوصلات الجملونية، وامتلأت الجدران الجصية بالركائز والرقع، واتصلت الغرف العديدة ذات الأحجام المختلفة بممرات ضيقة ملتوية بطريقة غريبة. أحاطت بالمنزل أرض واسعة مسيجة بجدار مرتفع من حطام الصخور، يعلوه سور خشبي منخفض. كانت زوايا سطح البوابة مائلة، تنتشر فيها بقع الطحالب، وتدعمها أعمدة ضخمة تتأرجح منبثقة منها بوابات خشبية بمفاصل حديدية مزخرفة تصل إلى وسط طول الألواح الثقيلة. ويمتد على كل جانب جدران جبس متقاربة بها نوافذ طويلة وضيقة ذات قضبان خشبية. تُترك البوابات مفتوحة طيلة النهار على الدوام، ولكن إذا ما طُرِقَت البوابات ليلا وهُتِفَ «تانو مو أوه!» (أستأذن بالدخول) فإن جيا سيركض أولا لإلقاء نظرة من إحدى النوافذ، قبل فتح البوابة، حتى وإن كان صوتاً مألوفا لأحد الجيران، إذ مازال متمسكا بالعادات القديمة. يمتد من البوابة حتى المنزل ممشى من الحجارة غير المستوية، نمت في الشقوق العريضة لتلك الحجارة أول زهور أجنبية رأيتها في حياتي، زهور مستديرة بساق قصيرة ولشدة صغرها أطلق عليها جيا «أزرار العملاق»، كان قد أعطاه البذور أحدهم. ولأنه لا يعتبر أي زهرة أجنبية جديرة بمكان لائق في حديقتنا، فقد زرعها بخبث حيث تدوس عليها

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقدامنا بازدراء. ولكنها نمت بكثافة كالطحالب إذ كانت شديدة التحمل.

وهكذا، ونتيجة لمآسي الترميم أصبح منزلنا كملجأ ارتجل خلال فترة قصيرة. كانت مقاطعة إيتشيجو واحدة من المقاطعات التي والت الحكومة المزدوجة(3). إذ اعتبر الميكادو(4) أقدس من أن تكون له صلة بالحرب في معتقد شعبنا، أو حتى أن يتصل بالأمور الدنيوية المزعجة، ولذا قاتلوا لدعم سلطة الشوجون(5) التي أخلص أسلافهم لها على مدى أجيال. كان لقب والدي كارو، أي «المستشار الأول» لسيد ناجاوكا. وهو المنصب الذي شغله منذ أن كان في السابعة من عمره، بعد أن تركت وفاة جدي المفاجئة المنصب شاغراً، أصبح والدي هو المسؤول التنفيذي الوحيد في السلطة، وبالتالي كان خلال حروب الاسترداد مسؤولا عن إدارة مكتب الدايميو(6) (السيد).

فيما بعد وفي أحلك لحظة لسيد ناجاوكا على الإطلاق، وجدت إيتشيجو نفسها في الجانب المهزوم. وحين سمعت أمي خبر الهزيمة وأسر أبي، عمدت أولاً لإرسال قاطني المنزل إلى مكان آمن ثم أشعلت النار في المنزل بيديها حتى لا يقع في أيدي العدو، ووقفت تراقبه من جانب الجبل وهو يحترق بأكمله.

إثر مضي فترة الحرب العاصفة وإطلاق سراح أبي بعد استقرار الحكومة المركزية، وبعد أن اختلف حاله حينها، بنى هذا المنزل المؤقت في موقع القصر السابق. إذ أعفي من منصبه الحكومي الذي أمر أن يحتفظ به إلى أن استقر الأمر للحكومة المركزية، فجمع بقايا ممتلكات عائلته، وبعد تقاسمها مع خدمه الذين غدو حينها مشتتين في أنحاء متفرقة، قام ببناء هذا المنزل المؤقت في موقع منزله الضخم السابق. ثم زرع بستانا من التوت على بضعة أفدنة من الأرض القريبة منه، واعتد بنفسه أن أصبح من مستوى الفلاحين. لم يكن رجال الساموراي يتقنون أي عمل أو مهنة. فلطالما اعتُبِر التعامل مع المال وصمة عارٍ عليهم؛ لذلك تُركت إدارة جميع شؤون أعمال أبي لجيا الذي أخلص له، لكن بلا أدنى خبرة، بينما كرس أبي حياته للقراءة والذكريات ولنشر أفكار غير مرحب بها حول الإصلاح التقدمي مستهدفاً جيرانه ضيقي الأفق. ومع ذلك، فقد تشبث والدي ببذخ واحد، وهو الرحلة الرسمية

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرة كل عامين إلى العاصمة، والتي كانت في الأيام الخوالي، رحلة إلزامية لكل من هم في منصبه، قبل أن تتحول الآن إلى رحلة سنوية دون صفة رسمية أطلق عليها هازئا «إطلالة على زمن الازدهار». كان اسماً ملائماً؛ فقد قدمت تلك الرحلة السنوية لعائلته بأجمعها نظرة عن كثب لتقدم اليابان. وإضافة إلى لغته الوصفية الرائعة، فإنه جلب لنا الهدايا أيضا، أشياء عجيبة وغير معهودة، حلي للخدم، وألعاب للأطفال، وأدوات منزلية عملية للأم، وأشياء مستوردة ونادرة للجدة التي حظيت بمكانة جليلة.

صحب جيا والدي في رحلاته تلك دائما، وكمدير لأعماله التقى بالتجار واستمع للكثير من الحكايات عن أساليب تعامل الأجانب مع اليابانيين. أقر الجميع بذكاء نظام الأعمال الأجنبية، ورغم كونه كارثيًا في كثير من الأحيان على اليابانيين، إلا أنه أثار إعجابهم ورغبوا بتقليده.

لا يوجد أصدق وأخلص من جيا، ولكنه في سعيه الأمين لمصالح سيده العزيز، ورط ذات مرة اسم عائلتنا بفضيحة مما استدعى إنفاق شهور وكثير من المال لتصويب الأمر. في الواقع، ما زلت أشك في أن القضية فهمت جلياً من قبل أي من الأطراف. وإني موقنة من بقاء هذا الخطأ لغزا أليما لجيا لما بقي من حياته. جرى الأمر على النحو التالي:

تعرف جيا على رجل ياباني، بصفته وكيلًا لأجنبي، كان هذا الوكيل يشتري أظرف بيوض دودة القز من كل القرى المجاورة. (تجهز تلك الأظرف بأن يطبع عليها، بحبر خاص، اسم أو شعار المالك. وتُوضع تحت الفراشات لتضع عليها بالآلاف بيضها الصغير الشبيه بالبذور. بعد ذلك تصنف وترتب ثم تباع للتجار) أخبر هذا الوكيل، الذي كان رجلاً فاحش الثراء، جيا أنه إذا تم استبدال بذور الخردل بالبيوض، فإن البطاقات ستباع بربح من شأنه أن يجعل سيده ثريًا. وأوضح الوكيل أن هذا أسلوب تجاري أجنبي تم تبنيه الآن من قبل تجار يوكوهاما. وأنه يُعرف باسم «الطريقة الجديدة لجعل اليابان قوية، لذلك لم يعد بإمكان البربري ذي الأنف المرتفع التغلب على أبناء اليابان في التجارة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونظرًا لأن بستان أبي للتوت كان يزود العديد من مزارع دود القز في القرى المجاورة، اختاره الوكيل لاستغلاله، إذ وجد جيا المسكين، لقمة سائغة، وهو الذي كان مبتهجاً بدهائه في التجارة. أعد الرجل أظرفاً بقيمة المئات من الين - جميعها تحمل شعار والدي. ثم سرق كل الأموال تقريبا؛ على أي حال، أول ما عرفنا عن هذه القضية كان عندما جاء لمقابلة والدي، رجل أجنبي طويل جدًا، ذو وجه أحمر، يرتدي ملابس غريبة. وإني لأتذكر ذلك اليوم الهام كالأمس! تسللت وأختي يومها بأطراف أصابع مبللة، ومن خلال ثقوب صغيرة في الأبواب الورقية، ألقينا نظرة على الرجل الغريب العجيب. علمنا أنها جسارة لا تليق بنا، لكنها كانت فرصة لا تتكرر. ليس لدي أي سبب للاعتقاد بأن للرجل الأجنبي أي يد بما حدث؛ حتى الوكيل ربما لم يقصد الإساءة، وأراد فقط أن يتذاكى على الأجنبي؛ فالكثير من المفاهيم اختلطت في ذلك الزمن الغريب. دفع والدي الثمن بالطبع، هو الذي لم يكن على علم بتلك الصفقة على الإطلاق، واستعاد سمعته الطيبة، لكنني أشك في فهمه لمغزى ما حدث. كانت تلك واحدة من المحاولات الكثيرة الفاشلة للخدم البسطاء ذوي العقول البسيطة في تلك الأيام، الذين امتلأت قلوبهم المخلصة بالحب أكثر من الحكمة.

دفعني شغفي للاستماع للقصص ومشاهدة العمل القائم في قاعات الخدم إلى التسلل إليها خفية، وذلك في ليالي الشتاء الطويلة. وفي إحدى تلك المساءات وأنا في السابعة من عمري تقريبا، كنت أجري على طول الرواق المؤدي إلى ذلك الجزء من المنزل حين سمعت أصواتًا مختلطة بصوت ندف الثلج الناعمة تتساقط من السقف. لم تكن العادة أن يُنظف السقف بعد حلول الظلام، ولكن جيا أصر على ذلك في تلك الليلة وسمِعْتُهُ يجادل رئيس العمال «مع استمرار سقوط الثلج بهذا المعدل سينهدم السقف قبل الصباح». تمتم أحد العمال بشيء عن وقت طقوس المعبد، وحينها سمعت صوت قرع أجراس المعبد. إلا أن جيا ذهب لحاله وعاد الرجل لعمله. لقد دهشت من تجاسر العامل على مناقشة أوامر جيا. كان جيا شخصًا رائعًا ودائمًا على حق وكانت كلمته قانونًا، هكذا بدا في رأيي الطفولي. ومع احترامي لمستوى حكمته فقد أحببته من كل قلبي ذلك لأنه مهما كان مشغولاً إلا أنه لم يتوان مرة عن مساعدتي في لف القش لصنع دمية، أو أن يحكي لي حكاية وأنا جالسةً على حجر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحديقة أشاهده وهو يعمل.

كانت قاعة الخدم كبيرة جدًا. تتبعثر في جانب منها حصائر القش حيث تنجز المهام المختلفة كطحن الأرز والغزل وغيره. أما جانبها الآخر فكان يغطيه الطين الجاف، حيث كانت تنجز الأعمال الشاقة وتلك التي تنتج أوساخا. وفي منتصف الغرفة كانت المدفأة وهي صندوق كبير مبطن بالطين مدفون داخل الأرض وبجانبه سلة الحطب. وتتدلى من عارضة مرتفعة سلسلة تتأرجح منها الأدوات المختلفة المستخدمة في الطهي. وفي وسط السطح توجد كوة ليخرج منها الدخان، وفوقها سقف صغير إضافي لكيلا يدخل المطر. وحين وصلت القاعة، وجدت جوها مشحوناً بضجيج العمل الممزوج بالثرثرة والضحك. ففي أحدِ الأركان جلست خادمة تطحن أرزًا لزلابية الغد، وأخرى تصنع أقمشة فرك مبطنة من كيمونو قديم. واثنتان أخريان تتقاذفان سلة صغيرة بينهما ليفصلا الفاصوليا الداكنة عن البيضاء، وبعيدًا عن الأخريات، جلست إيشي تدوِّرُ عجلة الغزل بعصا صغيرة. كان الخدم يبتهجون بقدوم «إتسو-بو سما» كما كانوا ينادونني. سارع أحدهم لإحضار وسادة لي وألقى آخر حفنة من الكستناء الجافة على النار المتوهجة، فاسترعى انتباهي تغير ألوان قشور الكستناء على الجمر. انتزعني صوت ناعم أثناء وقوفي لمراقبتها «تعالي هنا يا إتسو بو سما!». كانت إيشي. لقد انتقلت إلى الحصير، تاركة وسائدها لي. كانت تعرفُ شغفي بإدارة عجلة الغزل، لذا قامت بدفع الكرة القطنية في يدي، ممسكة بها من الأعلى. لازلت إلى الآن أشعر بنعومة الخيط المشدود منزلقا من بين أصابعي وأنا أدير العجلة الكبيرة. أظن أنني أخطأت الغزل فبدا غير متساو، ولحسن حظ إيشي فقد انجذب انتباهي عن نسيجها إلى دخول جيا في تلك اللحظة. سحب بساطًا إلى الجانب الطيني من الغرفة ثم جلس ومد قدميه وأمسك أحد طرفي الحبل الذي برمه من نباتات الأرز بأصابع قدميه.

هتفت إيشي: «جيا سان» لدينا ضيفة عزيزة.

رفع جيا بصره بسرعة، وانحنى بشكل مضحك والحبل مازال برجله، ثم رفع مبتسمًا زوجًا من أحذية القش متدلية من حبل. صرخت: «أووه» وقفزت بسرعة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

جارية نحوه «هل حذاء الجليد هذا لي؟ هل أكملت صنعه؟» أجابني: «نعم يا إتسو بو سما»، ووضع في كفي فردَتَي الحذاء، واستطرد: «وقد أكملت صنعه في الوقت المناسب تماماً، ستهطل الثلوج بغزارة هذا العام. وعندما تذهبين إلى المدرسة غدًا، يمكنك أن تسلكي طريقًا مختصرًا، عبر الحقول والجداول، فلن تكون هناك طرق أخرى سالكة». كالعادة كانت تنبؤات جيا صحيحة. ما كنا لنتمكن دون أحذية الجليد نحن الفتيات من الذهاب للمدرسة أساسا. والأهم من ذلك، أن إصرار جيا على العمال في الليلة الماضية أنقذ سقفنا، فقبل حلول الصباح، امتلأت الطرقات بالثلوج بسمك خمسة أقدام وأكثر، وتراكمت فوق الجبل الأبيض الشاهق الذي تشكل وسط الشارع.

---

(2). ساموراي باليابانية : 侍 أو بوشي (武士) هو اللقب الذي يطلق على المحاربين القدماء في اليابان. تعني كلمة «ساموراي» في اللغة اليابانية «الذي يضع نفسه في الخدمة». رغم أن اللفظ الأصلي استعمل في «فترة إيدو» لتمييز الرجال الذين كانوا يسهرون على حفظ الأمن، فقد تم تعميم هذه الكلمة لاحقا على كل الرجال المحاربين في اليابان.

(3). الحكومة المزدوجة تشير إلى فترة طويلة من تاريخ اليابان تمتد لقرابة سبعة قرون، حكمت اليابان خلالها مؤسستان هما الإمبراطور والحاكم العسكري «الشوجون».

(4). إمبراطور اليابان (باليابانية: 天皇 تيئو) وتعني حرفيا «سيادة السماء» ويشار إليه رسميا باسم ميكادو (帝) هو إمبراطور دولة اليابان، وقائد الدولة، وعميد العائلة الإمبراطورية اليابانية، كما أنه أعلى سلطة لديانة الشينتو.

(5). شوجون: اللقب الذي كان يطلق على الحاكم العسكري لليابان منذ 1192 م وحتى نهاية فترة إيدو 1868.

(6).- دايميو: هي التسمية التي كانت تطلق على كبار الزعماء الإقطاعيين في اليابان منذ القرن الـ 12 م وحتى إصلاحات فترة مييجي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعر مجعد

عاد الخدم من أداء طقوس المعبد في أحد الأيام، وهم يحكون بانفعال عن نشوب حريق في كيوتو دمر «هونغوانجي العظيم» وهو معبد الأمير شين. ونظرًا لأنه معبد الطائفة الأكبر، كان الاهتمام بإعادة بنائه كبيرًا فشَرَعَ الناس بجمع التبرعات على نطاق واسع، فتدفقت الهبات من كل جزء من الإمبراطورية. ونتيجة الأثر الكبير الذي تركه المنفيون البوذيون في العصور القديمة على إيتشيجو، سرعان ما فاق عطاؤها جميع المقاطعات الأخرى، فاتقدت ناجاوكا حماساً. كانت أفضل الأيام لجمع التبرعات هي الأول والخامس عشر من كل شهر، كونهما عطلة العمال، ولأن الهبات كانت في الغالب مما ينتجه الناس بأنفسهم، بدى منظرًا استثنائياً مشاهدتهم محتشدين في الشوارع، كل واحد منهم يحمل سلة أو حزمة، رجال محملون بعناقيد من القنب ولفائف من الحبال، أو يسحبون حزمًا من أعواد الخيزران تتدلى على الأرض و نساء القرى التي تحترف النسيج يحملن بَكَرات الحرير و القطن الثقيلة؛ والمزارعون يجرون عربات طويلة بكدوس مرتفعة ببالات أنواع «الحبوب الخمسة» - الأرز والدخن والقمح والشوفان والفاصوليا- و زوجاتهم يساعدنهم (وأطفالهن على ظهورهن) بدفع العربات من الخلف. استمرت المجموعات تترى في القدوم على مدار الساعة من الجبال ومن القرى المجاورة بالإضافة لسكان بلدتنا. أخذت كل تلك الهبات إلى مبنى كبير خصص لذلك، وكل يوم كانت الحصيلة تزيد. كنا أنا وإيشي نقف عند مدخل بوابتنا الكبيرة يومًا. حين لاحظت أن كل النساء تقريبًا لففن رؤوسهن بمناشف ذات لون أزرق وأبيض كالتي يرتديها الخدم عند نفض الغبار أو العمل في المطبخ.

فسألت: «لماذا ترتدي كل هؤلاء النسوة تينوجي؟»

أجابت إيشي: «هؤلاء النسوة قصصن شعرهن يا إيتسو بو سما».

فتساءلت بدهشة: «أكلهن أرامل؟!». إذ جرت العادة على أن تقص الأرملة شعرها من عند العنق فتدفن نصفه مع زوجها، وتحتفظ بالنصف الآخر لحين وفاتها.

ومر بخاطري أنني لأول مرة أرى هذا الكم الهائل من الأرامل في حياتي، لكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سرعان ما عرفت أن أولئك النساء قد جززن شعرهن للتبرع به، حيث سيجدل منه حبل ضخم لاستخدامه في تزيين الدعامة الخشبية المركزية للمعبد الجديد. وقد قصت خادماتنا شعرهن أيضًا، ولكن بحماس يقل عن طبقة الفلاحين واحتفظن بما يكفي لتغطية رؤوسهن عن الصلع. إلا أن إحدى الخادمات، بدافع من الحماسة الدينية، اجتزت أكثره لدرجة أنها اضطرت إلى تأجيل زواجها لمدة ثلاث سنوات؛ إذ لن تتمكن فتاة بشعر قصير من الزواج، فمن الرجل الذي ستواتيه الشجاعة للمخاطرة بالفأل السيئ لأخذ عروس بشعر أرملة قصير في تلك الأيام؟.

لم تكن عائلتنا تنتمي إلى طائفة شين البوذية، لكن كل النساء، من كل الطوائف، أردن الإسهام في القضية المقدسة، وهكذا تبرعت كل واحدة منا بقليل من خصلات شعرها. نقل الشعر إلى مبنى جمع التبرعات، حيث تم حفظه وتضفيره في حبال طويلة وسميكة؛ نُذرت بعدها كل الهبات لمراسم دينية محددة قبل إرسالها إلى كيوتو مباشرة. بدا لعقلي الطفولي أن كل فرد في العالم جاء إلى ناجاوكا في ذلك اليوم. لا شك أن المناطق القروية القريبة وجميع القصور المجاورة قد أفرغت نفسها في الشوارع الضيقة التي أخذتني إيشي من خلالها في سبيلنا إلى المعبد. ثم أخيرًا تمركزنا في مكان آمن ووقفت ممسكة بيدها بإحكام متطلعةً بتساؤل إلى المعبد العظيم المصقول والمطلي بالذهبي والأسود وهو مرفوع عالياً على عربة ثيرانٍ أمام مدخل المعبد مباشرةً. فتحت الأبواب المقوسة على مصراعيها، فظهر بوذا الهادئ الوجه واقفًا بيد مطوية. كانت قاعدة الضريح، تتسع تدريجيًا ويمتد فوقها إطار دقيق الصنع يمثل «الغيوم السماوية ذات الألوان الخمسة»(7). والكثير الكثير من أزهار اللوتس الذهبية والفضية بألوان وردية وأرجوانية وبرتقالية تلتوي عبر الغيوم المنحوتة وتتراءى بجمالها الخلاب، وكأنها تطفو في الهواء. كان الثوران اللذان أعارهما المزارعون المعتزون بهذه المناسبة، قد غُطي معظمهما بقصاصات من الحرير الزاهي الألوان تتدلى في شرائط طويلة ترفرف من القرون والألجمة. وفجأة ساد صمت للحظة. ثم عادت الأصوات مختلطة بصوت ضرب الصنوج وأنغام المزامير الحادة لموسيقى المعبد. قالت إيشي: «انظري، إيتسو بو سما! بوذا المقدس يبدأ جولة التقدير». إنها المرة الأولى منذ سنوات عديدة التي يخرج فيها القدوس من

مذبح المعبد. اليوم يوم عظيم!» عندها دُفعت الثيران فتحركت وجرّت نيرًا خشبيًا كبيرًا فبدأ الركن المقدس مع بوذا المذهب بالتحرك. سرت في الأجواء همهمة تبجيل وإجلال «نارمت أميدا بوتسو!» أي (تقدس بوذا العظيم!). حنيت رأسي، وطويت يديَ، وهمست أتلو الكلمات المقدّسة.

ثُبّتَ حبلان طويلان ملتويان من القماش، باللون الأرجواني والأبيض، في مقدمة العربة العريضة ومدّا قصياً جداً عن الثورين إلى حيث الكهنة في المقدمة. حملت هذه الحبال بالأيدي المتلهفة للعديد من الرجال والنساء (بعضهم يحمل أطفالًا على ظهورهم) والفتيان والفتيات، وحتى الأطفال الصغار من جميع الأعمار.

رأيت رفيقتي في اللعب هناك، فصرخت: «إيشي! إيشي!»، وجذبتها بحماس شديد لدرجة أنني كدت أن أمزق كميها. قلت لها متحمسة: «هناك ساداكو سان تحمل الحبل! أوه، هل لي أن أمشي بجانبها وأمسك بالحبل أيضًا؟ أوه، هل لي؟»

فردّت: «صه، برفق يا سيدتي الصغيرة. نعم، سوف أمشي معك وستساند يداك الصغيرتان بوذا المقدس». وهكذا، مشينا في الموكب - إيشي وأنا، عبر تلك الشوارع الضيقة خلف الكهنة الأجلاء وهم يرددون الترانيم شابكة يدي بذلك الحبل بينما تتمايل العربة الكبيرة وصريرها يملأ جوانحي بالرهبة والخشوع. ولعلها لن تمر بي أبدًا في حياتي، ساعةً من الزمن أكثر سموًا وعظمة من تلك.

أتذكر شعائر النذور بشكل ضبابي جداً. كان المبنى الجديد مزدحما بأهرامات ضخمة من التبرعات من كل نوع. حمل الركن المقدس ووضع أمام ستارة أرجوانية عليها شعار سواستيكا كبير. وموكب الكهنة في أردية رائعة مع مسابح من الكريستال حول أيديهم المطوية وهم يهتفون. ورائحة البخور، وصوت طبول المعبد الناعمة، والهمهمة الخافتة في كل مكان لـ «نامو أميدا بوتسو!». بقي شيء واحد فقط في الغرفة الكبيرة واضحًا في ذاكرتي. على منصة أمام المذبح، مع وجود بوذا المقدس في الأعلى مباشرةً، كانت هناك لفائف ضخمة من حبل حالك السواد مصنوع من شعر آلاف النساء. عدت بذاكرتي إلى اليوم الذي اعتقدت فيه أنني رأيت الكثير من الأرامل في الشارع، ورؤوس خادماتنا بشعرهن القصير. وتذكرت حينها وبعض من مرارة ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تزال في حلقي، اليوم الذي أرسلت فيه هِباتنا؛ فإلى جانب الخصلات الطويلة اللامعة والمسترسلة لشعر أخواتي، كانت هناك ضفيرة أقصر بتموجات بشعة.

بعد مرور كل هذه السنوات مازلت أشعر بشيء من الشفقة على الفتاة الصغيرة التي كنتها عندما أتذكر التجارب المريرة التي كان عليّ تحملها بسبب شعري المتموج. إذ لم يكن الشعر المجعد محل إعجاب في اليابان، لذا وعلى الرغم من أنني كنت أصغر أخواتي، إلا أنه يكون دوري الأول مع مصففه الشعر بمجرد دخولها المنزل وذلك ما كان مخالفًا للعادة، لأن الأكبر ينبغي أن تكون أولًا في يوم تصفيف الشعر والذي يحل ثلاث مرات كل عشرة أيام.

كانت تباشر بإغراق شعري بشاي ساخن (يغلي تقريبًا) ممزوجًا بنوع من زيت التقوية وذلك بعد الشامبو. ثم تقوم بشده للخلف بأكبر قدر ممكن وتربطه، وتبقيني هكذا حتى تفرغ من تسريح شعر أخواتي. إلى ذلك الوقت، يتيبس كل رأسي ويشتد حاجباي لأعلى، لكن شعري يصيرُ طيعا عندها، ويمكن بسهولة ترتيبه في دائرتين لامعتين مربوطتين بشريط زاه، وهي الطريقة الأنسب لشعري. أتذكر كيف كنت أحرص دائمًا على الاستلقاء بهدوء على وسادتي الخشبية الصغيرة في الليل، ولكن بحلول صباح اليوم التالي، تؤلمني رقبتي بلا ريب وتنبعج البكرات الموجودة أعلى رأسي. كم كنت أغبط السيدات ذوات الضفائر الطويلة والمستوية في الصورة المعلقة على جدار غرفتي!

تمردت ذات مرة ورددت بوقاحة على مربيتي التي كانت تحاول مواساتي في إحدى مرات «تشابك شعري». ورغم أن إيشي العجوز سامحتني على الفور، إلا أن أمي سمعتني ودعتني إلى غرفتها. كنت عابسة، على ما أذكر، عندما انحنيت وجلست أمام وسائدها، فنظرت إلى بصرامة وهي تتحدث.

قالت لي: «إتسو كو، ألا تعرفين أن الشعر المجعد مثل شعر الحيوان؟ ولا يجب لابنة الساموراي أن تتشبه بالبهائم». شعرت بالخزي ولم أشتك مرةً أخرى من الشاي الساخن والزيت المعطر بتاتًا.

قاسيت الذل والهوان في يوم الاحتفال بـ «بلوغي السابعة»، لدرجة أن مجرد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تذكره يؤلمني. يمثل هذا الاحتفال حدثا مهما للغاية في حياة الفتاة اليابانية - بقدر أهمية الحفل الأول لسيدة أمريكية شابة. تمت دعوة جميع قريباتنا من النساء إلى وليمة رائعة، حيث احتللت مكانة الشرف مرتدية ثوبا جميلا جديدا، وصُفّف شعري بإتقان، إلا أنه كان يومًا ممطرًا وأظن أن بعض الخصلات الصغيرة الثابتة هربت متحررة من سجنها القاسي، ذلك أنني سمعت إحدى عماتي وهي تقول «من المشين أن ترتدي إيتسو فستانًا جميلًا فهو لا يجذب الانتباه إلا لشعرها القبيح الملتوي».

كيف سيشعر طفل بذلك في أعماقه! تمنيت أن أغدو نسيًا منسيًا داخل ذلك الثوب الذي كنت متباهية به كثيراً، لكنني نظرت إلى الأمام مباشرة دون أن أتحرك. وفي لحظة بعدها، عندما دخلت إيشي حاملة بعض الأرز ونظرت إلي، رأيت الألم في عينيها وعرفت أنها سمعت ما سمعتْ.

عندما أتت لتساعدني في خلع ملابسي، في تلك الليلة لم تخلع المنشفة الصغيرة ذات اللونين الأزرق والأبيض التي يرتديها جميع الخدم اليابانيين على شعرهم أثناء العمل. فذهلت، لأنه ليس من الأدب المثول أمام السادة بغطاء الرأس، وإيشي دائمًا مهذبة. سرعان ما اكتشفت الحقيقة. كانت قد ذهبت إلى المعبد بمجرد انتهاء العشاء، وقصّت شعرها المسترسل الرائع، ووضعته أمام الضريح، وتضرعت للآلهة أن تنقل شعرها إلي. آه يا إيشي العطوفة! كم أنا ممتنة لها من صميم فؤادي حتى اللحظة على تضحيتها الصادقة.

من يجرؤ على القول إن الرّب لم يرحم الروح البسيطة الجاهلة والساعية لإنقاذ طفلة أحبتها من التحقير؟ استجيبت دعواتها على أية حال حين حولت يد القدر خطواتي في السنوات اللاحقة نحو أرض لا يسبب لي شعري المجعد فيها الحزن أو الخجل.

Telegram:@mbooks90

---

(7). الزخارف التي تمثل الغيوم الملونة بالألوان الخمسة هي أحد أشهر الرموز المنحدرة من الثقافة الصينية والتي تشير إلى اليُمن والبركة وما يعرف بمملكة السلام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيام «كان»

حين كنت طفلة لم تكن لدينا رياض أطفال، ولكني اكتسبت تأسيساً قويا قبل مدة طويلة من أوان قبولي في المدرسة «ما بعد عيد ميلادي السادس»، ساعدني على دراسة التاريخ والأدب لاحقًا. كانت جدتي قارئة رائعة، قضينا كأطفال أوقاتًا طويلة خلال أمسيات الشتاء الطويلة المحاطة بالثلج نستمع إلى القصص حول مدفأتها. ولذلك غدوت منذ صغري على دراية بكل أساطيرنا، وسير أعظم الشخصيات التاريخية ومجمل أحداث أحسن القصص اليابانية. عرفت كذلك الكثير من الأعمال الدرامية الكلاسيكية القديمة من شفتي الجدة. وفي حين أن أختي تلقت التعليم المعتاد للفتيات، خُطط لي أنا على أساس مختلف، إذ كان من المفترض أن أصبح كاهنة. فقد ولدت وحبل السرة ملفوفًا حول رقبتي مثل مسبحة الكاهن، وتلك إشارة صريحة من بوذا حسب الخرافات السائدة في تلك الأيام. آمنت جدتي ووالدتي بذلك بكل صدق، وبما أن إدارة أمور المنزل والأطفال في المنزل الياباني تُترك للنساء، فقد انتحى والدي جانبًا مذعنًا بصمت لرغبة جدتي الجادة في أن أسلك طريق الكهانة. ومع ذلك، اختار لتعليمي كاهنًا يعرفه - رجلًا مثقفًا جدًا، قضى الكاهن وقتًا قصيرًا في تعليمي أشكال عبادة الهيكل. لكنه علمني بضمير حي عقيدة كونفوشيوس، التي تعتبر أساس كل الثقافة الأدبية واعتبرها والدي أرفع تعليم أخلاقي في ذلك الوقت.

كان معلمي يأتي في أيام الثلاثيات والأسبع على الدوام، أي الثالث والسابع والثالث عشر والسابع عشر والثالث والعشرين والسابع والعشرين من كل شهر. إذ تقسم الأيام لدينا إلى مجموعات عشرية وفقا للتقويم القمري بدلًا من سبعات في التقويم الشمسي. استمتعت بالدروس أيما متعة. فمهابة مظهر معلمي، ومراسم حضوره، والطاعة الصارمة المطلوبة مني، كل ذلك استهوى طبيعتي الدرامية. وكان الجو المحيط بتلك الدروس أكثر ما أثار أعجابي الطفولي. فحين أدخل لغرفة الدرس، أراها بنفس المنظر إذ ترتب دائما بعناية خاصة في أيام الدرس. أغمض عيني الآن فيتضح لي كل شيء كما لو كان قبل ساعة. كانت الغرفة واسعة ومشرقة، وفصلت عن شرفة الحديقة بصف من الأبواب الورقية الانزلاقية المتقاطعة بقضبان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خشبية رفيعة. تحول لون حصائر القش ذات الحدود السوداء للون الكريمي مع مرور الوقت، ولكنها بقيت نظيفة. واحتوت على مكاتب وكتب، وعلّقت في التكونوما المقدسة صورة لكونفوشيوس. وضع قبالتها منضدة من خشب الساج يتصاعد منها ضباب البخور. يجلس أستاذي في جانب من الغرفة، ينسدل رداؤه الرمادي في خطوط مستقيمة وجليلة حول ركبتيه المثنيتين، وشريط من الديباج الذهبي على كتفه، ومسبحة من الكريستال حول معصمه الأيسر. كان وجهه شاحبًا دومًا، وعيناه العميقتان الجادتان تبدوان تحت الغطاء الكهنوتي وكأنهما آبار من المخمل الناعم. لقد كان ألطف وأقدس رجل رأيته في حياتي. بعد سنوات، أثبت أنه يمكن للقلب المقدس والعقل التقدمي أن يرتقيا معًا، فقد طُرد من المعبد التقليدي بسبب دعوته إلى عقيدة إصلاحية توحد المعتقدات البوذية والمسيحية. كان ذلك الكاهن المتسامح، المعلم الذي اختاره لي والدي واسع الأفق رغم كونه محافظًا، أترى كان اختياره عن قصد أم مصادفة؟.

اعتمد تدريسي على كتب مخصصة للأولاد فقط، حيث لم يكن معتادًا أن تدرس الفتيات الكلاسيكيات الصينية. كانت دروسي الأولى من «كتب كونفوشيوس الأربعة» وهي: «التعلم العظيم»، الذي يعلم أن الاستخدام الحكيم للمعرفة يؤدي إلى الفضيلة. «المركز الثابت» الذي يتناول موضوع عدم قابلية القانون الكوني للتغيير. «رونغو وموشي» اللذان يشتملان على السيرة الذاتية لكونفوشيوس، وحكاياته، وأقواله التي جمعها تلاميذه.

لم أكن سوى طفلة في السادسة من عمري، فلم أستوعب طبعًا حتى مفهومًا واحدًا من تلك القراءة الدسمة. امتلأ عقلي بكلمات كثيرة تحمل معاني وأفكاراً عظيمة، لكنها لم تعن لي شيئًا آنذاك. راودني الفضول بين حين وآخر إزاء مفهومٍ ما لم أكتنه معناه، فكنت أسأل أستاذي عن المعنى. وكان جوابه لا يتغير أبدًا:

«التأمل يستخلص الأفكار من الكلمات» و «تكرار القراءة مئة مرة يكشف المعاني». ومرةً قال: «أنت أصغر من أن تفهمي كتب كونفوشيوس العميقة».

وهو محق بلا شك، ومع ذلك أحببت دروسي. ودرست بسهولة صفحة تلو الأخرى،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

حتى أتقنت جميع المقاطع المهمة من الكتب الأربعة واستطعت تسميعها كطفل يترنم طرباً بأهزوجة مقفاة لا يفقهها. فقد حملت الكلمات المستعصية نغمات إيقاعية معينة كالموسيقى. ومع ذلك، لم تضع تلك الساعات الطويلة سدى، ففي السنوات التالية، اتضحت لي شيئًا فشيئًا الأفكار الرائعة للفيلسوف العظيم. وأحيانًا عندما يحضرني مقطع مميز معروف، يغمرني المعنى مثل شعاع شمس خاطف.

درسني الكاهن المعلم هذه الكتب بنفس التبجيل الذي درس به المواضيع الدينية - منفصلاً عن راحته الجسدية. فطوال الدرس الذي يدوم ساعتين كان لا يحرك أي طرف من أطرافه عدا يديه وشفتيه، ورغم جريان العادة بتوقير المعلم وعدم المساواة في الجلسة بينه وتلميذه، إلا أنني جلست أمامه على حصيرة في وضع مستقيم وثابت على قدم المساواة وقد اضطر للجلوس على وسادة الحرير السميكة التي جلبها له الخادم (فالوسائد كانت كراسينا).

وفي إحدى المرات خلال الدرس تحركتُ. كنت غير مرتاحة فحركت ركبتي المثنية قليلًا. فارتسمت بعضا من إمارات الدهشة على وجه معلمي فأغلق كتابه بهدوء شديد قائلًا بلطف، ولكن بنبرة صارمة:

«من الواضح أن موقفك الذهني اليوم غير مناسب للدراسة. عليك أن تذهبي إلى غرفتك وتمارسي التأمل».

كاد الشعور بالخزي أن يغتال قلبي الصغير. ولم تكن بيدي حيلة. انحنيت بتواضع لصورة كونفوشيوس ثم لمعلمي، وخرجت من الغرفة بخطوات للوراء احتراماً، مشيت بوهن إلى والدي لإبلاغه عن انتهاء الدرس كالعادة، فوجئ والدي، لأن الوقت لم يحن بعد. وعلق متعجبًا: «يا للسرعة التي أنهيت بها درسك!» كان ذلك بمثابة الضربة القاضية. ذكرى تلك اللحظة مؤلمة مثل الكدمة حتى يومنا هذا.

نظرًا لأن غياب الراحة الجسدية أثناء الدراسة كان سمةً للكهنة والمعلمين، بطبيعة الحال، نما لدى جميع الناس الأقل شأنًا اعتقاد بأن معاناة الجسد تثمر إلهامًا للعقل. لهذا السبب اختير توقيت دروسي عن قصد في أصعب الأوقات، خلال الثلاثين يومًا من منتصف الشتاء، والتي حسب التقويم أبرد أيام السنة. ويعتبر اليوم التاسع الأكثر

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

شدة، لذلك كان متوقعًا أن نكون أكثر جدية في دراستنا في ذلك اليوم.

أتذكر «يوما تاسعًا» وكانت أختي في الرابعة عشرة من عمرها تستعد للزواج. وبالتالي فإن المهمة التي أنيطت لها هي الخياطة. أما أنا فكانت مهمتي فن الخط. اعتبر فن الخط في تلك الأيام من أهم الدراسات المعرفية. لم يكن ذلك لكونه فنا من الفنون -رغم أن ممارسة فن الخط الياباني يحمل نفس السحر المؤثر للرسم التصويري- ولكن بسب الاعتقاد بأن أعلى تدريب للتحكم الذهني يأتي من الممارسة الصبورة لضربات الفرشاة المعقدة التي يمارسها الكاتب. إن الحالة الذهنية غير المبالية أو القلقة تخون نفسها دائمًا في التداخل المعقد للرموز التعبيرية، فكل لمسة تتطلب ثباتًا ودقة مطلقة. وهكذا، بتعلمنا كيف نوجه أيدينا بدقة، تعلمنا صغارًا كيف نمسك بزمام عقولنا.

جاءت إيشي لإيقاظي مع أول بصيص لشروق الشمس في ذلك «اليوم التاسع». كان الجو قارس البرودة. ساعدتني في ارتداء ملابسي، ثم جمعت المواد اللازمة لعملي، ورتبت الأوراق الكبيرة في كومة على مكتبي ومسحت بعناية كل أداة في صندوق الحبر بقطعة من الحرير. كان التعلم مقدساً للغاية في ذلك الوقت في اليابان، حتى الأدوات المستخدمة للتعلم أضفيت عليها قداسة إلى حد ما. توجب عليّ القيام بكل شيء بنفسي في ذلك اليوم، لكن لطف إيشي كان يغمرني، فعاونتني بكل السبل الممكنة. ثم ذهبنا إلى الشرفة المطلة على الحديقة. كان الثلج متراكمًا حولنا يغطي المكان. أتذكر كيف بدا بستان الخيزران بقممه ذات الريش المثقلة بالثلج كالمظلات العريضة. ولمرة أو اثنتين سمعنا فرقعة حادة واندفاع لندف ثلجية ناعمة نحو السماء الرمادية ينبئنا أن جذعًا قد انكسر تحت عبئه الثقيل. حملتني إيشي على ظهرها، ودفعت قدميها بالحذاء الثلجي خائضة الثلوج بتمهل إلى أن وصلنا لفرع منخفض من الشجرة أخذت منه حفنة ثلج نقية لم تمس، لأذيبها للمزيج الذي أستخدمه لفن الخط. كان عليّ أن أخوض الثلج بنفسي لأحصل على الندف، لكن إيشي قامت بذلك.

بما أن انتفاء الراحة الجسدية يعني الإلهام الذهني، فقد جلست لأكتب في غرفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلا نار، بالطبع كان النمط المعماري لبيتنا يعود لأصل استوائي لذا فإن افتقاد موقدنا الصغير لقليل من الفحم المتوهج أدى إلى انخفاض درجة الحرارة في الداخل إلى نفس درجة حرارة الخارج. والكتابة التصويرية اليابانية تتطلب دقة وانتباهًا وتمهلًا. تجمدت أصابعي في ذلك الصباح دون أن أعرف ذلك حتى نظرت إلى الوراء ورأيت مربيتي الطيبة تبكي بهدوء وهي تنظر ليدي الأرجوانية. كان تدريب الأطفال، حتى من هم في عمري، صارمًا في تلك الأيام، ولم نتحرك كلانا حتى أنهيت مهمتي. ثم لفتني إيشي بكيمونو كبير مبطن تم تدفئته وأسرعت بي إلى غرفة جدتي. وجدت هناك إناءً من عصيدة الأرز الدافئة الحلوة التي صنعتها يدي جدتي. دسّت ركبتيَ الباردتين تحت اللحاف الناعم والمبطن الذي غطى صندوق النار المجوف، وتناولت العصيدة، بينما كانت إيشي تفرك يدي التي جمدها البرد.

حتمًا، لم يكن لأحد أن يتساءل عن ضرورة هذا النظام الصارم، لكنني أظن أن كوني طفلة حساسة، قد تسبب أحيانًا بعدم ارتياح والدتي. إذ دخلتُ مرة عليها الغرفة وهي تتحدث مع أبي فسمعتها تقول:

«أيها الزوج المحترم، أكون ذات جرأة أحياناً لدرجة أنني أتساءل عما إذا كانت دروس إيتسو-بو قاسية قليلاً بالنسبة لطفلة ضعيفة».

سحبني والدي إلى جانبه في الوسادة ووضع يده برفق على كتفي وأجاب:

«أيتها الزوجة، يجب ألا ننسى، تعليم بيوت الساموراي. إن اللبؤة تدفع صغيرها من فوق الجرف وترقبه يتسلق ببطء عائدًا من الوادي دون إبداء أي علامة تدل على الرأفة، على الرغم من أن قلبها يعتصر ألما على ذلك المخلوق الصغير. وبتلك الطريقة فقط تكسبه القوة ليواجه الحياة».

كان أحد الأسباب التي جعلت عائلتي تعتاد على مناداتي بـ ايتسو- بو هو أنني كنت أتلقى تعليماً وتدريبًا معدا لصبي، حيث تستخدم اللاحقة - بو- لاسم الصبي، يقابلها -كو- للفتاة. إلا أن تعليمي لم يقتصر على ذلك المعد للصبيان، بل دُرِّبتُ أيضًا على جميع المهارات المنزلية التي دربت عليها أخواتي - الخياطة والنسيج والتطريز والطبخ وتنسيق الزهور وآداب مناسبات الشاي المعقدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومع ذلك، لم تكن حياتي كلها دروسًا. استمتعت بساعات اللعب السعيدة. ففي النظام التقليدي لليابان القديمة، كان لنا نحن الأطفال ألعاب معينة لكل موسم - الأيام الدافئة والرطبة في أوائل الربيع، وأمسيات الشفق في الصيف، ووقت الحصاد المنعش والرائع، أو أيام الثلج الصافية والباردة شتاءً. وأعتقد أنني استمتعت بكل لعبة لعبناها على الإطلاق - بدءًا من التسلية الشتوية والمسائية البسيطة المتمثلة في إلقاء إبرة ملولبة على كومة من كعك الأرز، ورؤية أكبر عدد يتجمع على خيطِ مَن منا، إلى مسابقات الذاكرة الشيقة مع ألعابنا المختلفة.

كانت لدينا ألعاب حركية أيضًا، حيث كنا نجتمع كمجموعة، وكلنا فتيات بالطبع، في حديقة كبيرة أو في شارع هادئ حيث كانت المنازل مطوقة بأسوار من الخضرة والخيزران. ثم نتسابق ونلتف في «امرأة الثعلب من الجبل» أو «البحث عن الكنز المخفي». كنا نصيح ونصرخ ونحن نتهادى على ركائز متينة في لعبة الصبيان المحظورة «ركوب حصان البامبو» أو «لعبة القفز بساق واحدة».

لكن لم يكن هناك أمرٌ محببٌ لي أكثر من الاستماع للقصص، لا اللعب في الهواء الطلق في فصول الصيف القصيرة ولا أي لعبة داخلية في فصول الشتاء الطويلة تضاهي القصص. عرف الخدم حكايات عن الكهنة لا حصر لها وأناشيد عجيبة تناقلتها الأجيال شفهيا. وإيشي، التي كانت أقوى ذاكرةً وأعذب لسانًا، لديها مخزون لا ينضب من الخرافات القديمة اللطيفة. لا أتذكر أني نمت يوما دون سماع حكايات من شفتيها اللتين لا تفتران. أما حكايات الجدة الجليلة، الرصينة والرائعة، فتركت ذكريات جميلة وراسخة، لا أنسى الساعات السعيدة التي أمضيتها جالسة على الحصيرة -لأنني لا أجلس على وسادة أبدًا حين تتحدث إليَّ جدتي- قبالتها بأدب ويديَّ مطويتان. ولكن قصص إيشي أمر مختلف. استمعت إليها في راحة ودفء محتضنة الوسائد الناعمة لسريري، أقهقه وأقاطعها وأتوسل لها من أجل «واحدة أخرى فقط» حتى تحين اللحظة غير المرحب بها، عندما تصل إيشي ضاحكة، ولكن حازمة إلى فانوسي، فتدفع فتيلته في الزيت، وتضبط الآخر وتسدل عليه الكرة الورقية. ثم، أخيرًا، محاطة بضوء الغرفة المظلل الباهت، عليَّ أن أقول ليلة سعيدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأستقر في (8)الكينوجي، الذي كان وضع النوم المناسب لكل فتاة من الساموراي.

تم تعليم بنات الساموراي ألا يفقدن السيطرة لا على العقل ولا الجسد حتى في النوم. قد يمدد الأولاد أنفسهم على شكل حرف (داي) منبسطين بلا مبالاة؛ لكن يجب أن تتقوس الفتيات على شكل حرف (كينوجي) المتواضع والكريم، والذي يمثل «روح السيطرة».

---

(8). تستلقي على ظهرها، تضع يدها على صدرها كالصلاة، تثني ركبتيها وتلف ساقيها لليمين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السالف والحديث

تذوقت طعم اللحم لأول مرة حين كنت في الثامنة من عمري. إذ ظل اليابانيون نباتيين لمدة اثني عشر قرنًا، منذ دخول الديانة البوذية التي تحرم قتل الحيوانات. إلا أن السنوات الأخيرة شهدت تغيراً كبيراً في الاعتقادات والعادات، والآن ورغم تراجع استهلاك اللحوم عالميًا، فإنها تتوفر في جميع مطاعم وفنادق اليابان. رغم أنها اعتبرت في زمن طفولتي مثارًا للرعب والاشمئزاز.

أتذكر على نحو جليّ ذلك اليوم الذي عدت فيه من المدرسة لأجد الكآبة تغشى الأسرة بأكملها. فشعرت بإحساس بالانقباض بمجرد أن خطوت من مدخل خلع الأحذية، وسمعت والدتي تعطي توجيهاتها للخادمة بنبرة خافتة ووقورة. بدا أن بعض الخدم في نهاية القاعة متحمسون، ولو أنهم واصلوا حديثهم بأصوات هامسة. لم أطرح أية أسئلة بالطبع، كوني لم ألق التحية على العائلة بعد. لكن شعورًا مقلقًا راودني بحدوث أمر مريب، فكان صعبًا عليّ أن أسير بهدوء وتمهل عبر القاعة الطويلة إلى غرفة جدتي.

تمتمت: «جدتي الجليلة، لقد عدت» وأنا أنحني إلى الأرض لتأدية التحية المعتادة. ردت على تحيتي بابتسامة لطيفة، لكنها كانت مهمومة على غير المعتاد. كانت تجلس هي وخادمتها أمام الخزانة ذات اللونين الأسود والذهبي للركن المقدس للعائلة. وبجانبها وُضِعت صينية كبيرة مطلية مصقولة عليها لفائف من الورق الأبيض، والخادمة تلصق الورق على أبواب الركن المقدس المذهبة.

كان لدينا، ككل منزل ياباني تقريبًا، ركنان مقدسان أحدهما لتقاليد الشنتو(9) والآخر للبوذية(10) يُغطى ركن الشنتو الخشبي البسيط في حال المرض أو الوفاة، بورق أبيض لحمايته من التلوث، وهو المقام الذي يكرم آلهة الشمس والإمبراطور والأمة، بينما يُترك الركن البوذي المذهّب مفتوحًا على مصراعيه في مثل هذه الأحيان في العادة؛ لأن الآلهة البوذية تبرئ الحزن وترشد الموتى في رحلتهم إلى السماء. لم أعهد الركن المقدس الذهبي مغلقاً قط قبل ذلك اليوم. بل كانت تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الساعة تحديداً التي ينبغي أن يضاء فيها استعدادًا لتناول العشاء. لطالما اعتبرت ذلك الوقت هو أجمل جزء من اليوم؛ إذ نجلس جميعنا أمام طاولاتنا المنفصلة بعد أن توضع أول حصة من طعامنا على الطاولة الصغيرة المطلية اللامعة إزاء الركن نأكل ونتحدث ونضحك، شاعرين أن أرواح الأجداد المحبة تجلس معنا. لكن الركن المقدس أغلق. فما الذي يعنيه ذلك؟

أستطيع الآن أن استرجع صورتها وقد غالبت ضحكتُها صدمتَها، حين سألتُ وقد اعترت صوتي رجفة بسيطة: «جدتي الجليلة، هل - هل سيموت أحد؟».

قالت: «أيتسو-كو الصغيرة، إنك تتكلمين بجرأة كصبي. على الفتاة ألا تتحدث أبدًا بفظاظة».

ألححت متوترة «عفواً يا جدتي المحترمة». «ولكن أليس الركن المقدس مغلقاً بأوراق الحماية الطاهرة؟»

أجابت بحسرة: «نعم»، ولم تقل شيئًا آخر.

لم أتكلم بعدها، ولكن جلست أراقب ميلَ أكتافها المنحنية وهي تفتح الورقة للخادمة. وأنا متكدرة الخاطر بشدة.

ثم بعد برهة، اعتدلت واستدارت نحوي.

قالت ببطء شديد: «والدك الكريم أمر أهل بيته بأكل اللحم. أخبره الطبيب الحكيم الذي يحذو حذو البرابرة الغربيين أن لحم الحيوانات سيقوي جسده الضعيف، كما أنه سيمنح الأطفال قوة وذكاء مثل شعوب البحر الغربي. سيُحضَرُ لحم الثور إلى المنزل في غضون ساعة، وواجبنا حماية الركن المقدس من التدنيس».

تناولنا حساء اللحم كعشاء رسمي في ذلك المساء. لكن لم تحط بنا الأرواح المحبة، لأن كلا المزارين كانا مغلقين. ولم تنضم إلينا الجدة التي تجلس دومًا على كرسي الشرف، فبدا المكان الخاوي غريبًا وموحشًا. وسألتها في تلك الليلة لماذا لم تأت؟

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجابت بحزن: «أنا لا أريد أن أصبح قوية مثل الغربيين - ولا ذكية، ما يهمني أكثر ألا أحيد عن سبيل أسلافنا».

أعجبنا طعم اللحم أنا وأختي وأسررنا لبعضنا البعض بذلك. ولكن لم نخبر أي شخص آخر؛ لأننا أحببنا الجدة وكنا نعلم أن عدم ولائنا سيحزن قلبها.

ساهم إدخال الطعام الأجنبي إلى حد كبير في هدم جدار التقاليد الذي حال بيننا وبين العالم الغربي، ولكن تطلب إحداث التغيير دفع ثمن باهظ لا محاله. إذ بعد الإصلاح، لم يجد العديد من الساموراي أنفسهم فقراء بين ليلة وضحاها ومنفصلين تمامًا عن النظام الذي كان يرعاهم فحسب، بل غدوا ملتزمين التزامًا صارمًا مثلما اعتادوا بمنظومة أخلاقية راسخة علمتهم لقرون الازدراء المطلق للمال. ضجت الدنيا خلال السنوات الأولى، بأخبار الأعمال التجارية الفاشلة لرجال كانوا شبابًا طامحين ومتحمسين لخوض غمار تجارب جديدة في الحياة، ومنهم صديق والدي وجاره السيد تودا، الذي كان يجيء ليمارس الرماية معه على أرضنا، أو لركوب الخيل معًا في الجبال. لقد أحببت السيد تودا كثيرًا ولم أستطع فهم سبب شعور الجدة بأن أفكاره غريبة ومختلفة.

توقفا يوماً ما وهما يتسابقان في الرماية، ليناقشا خطة عمل ما. كنت بقربهما، أحاول الركوب على ظهر كلب أبي الأبيض الكبير شيرو. وبعد أن وقعت لعدة مرات على غير عادتي، حملني السيد تودا وأوقفني قريبًا جدًا من الدكة العشبية المقابلة التي وضع فيها هدفًا كبيرًا مستديراً مخططاً بحلقات عريضة سوداء وبيضاء. وضع القوس الكبير أمامي، وأمسك بذراعي وأنا أطلق السهم، فأصاب الهدف.

هتف السيد تودا: «أحسنتِ صنعًا!، ستكونين مقاتلة عظيمةً، أيتها السيدة الصغيرة! أنت حقا ابنة أبيك». ضحك والدي وهو يروي القصة في تلك الليلة. شعرت بالفخر الشديد، لكن أمي بدت ساهمة، والجدة هزت رأسها بحزن. ثم التفتت إليّ وقالت: «والدك الكريم يدربك كالصبيان، وأخشى أن القدر سيتعب باحثًا عن زوجك الذي لا وجود له. فلا توجد عائلة محترمة ترضى بعروس فظّة».

وهكذا، كانت هناك معركة خفية مستمرة بين السالف والحديث حتى داخل عائلتنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السعيدة.

كان السيد تودا رجلاً مستقل الفكر، فبعد عدة محاولات عبثية للتكيف مع الأوضاع الجديدة دون التخلي عن مكانته، قرر تنحية مكانته جانبًا والاشتراك في بعض المشاريع التي تحقق مكاسب مادية. كان الحديث المتداول في ذلك الوقت عن المكاسب الكبيرة للاستثمار في الطعام الأجنبي. ونظرًا لأن السيد تودا كان يملك عقاراً واسعاً لم يكن أحد ليقبله في تلك الأيام حتى كهدية، فقد حوله إلى مزرعة أعلاف ليصدره إلى ساحل بعيد لإطعام المواشي. غامر مرةً أخرى بعدها في عالم الأعمال بمساعدة بعض الرجال ذوي الخبرة؛ وهذه المرة في مجال الألبان واللحوم.

لم ترض عائلة السيد تودا الارستقراطية أبدًا عن أي من أعماله. ففي الأيام الخوالي، لم يكن يتولى أمر الجثث التي فارقتها الحياة سوى «إيتا»، أي الطبقة المنبوذة، هكذا رمقه كل من حوله تقريبًا بتوجس واشمئزاز لفترة من الزمن، لكن الإيمان باللحوم كطعام مقوّ زاد تدريجيًا، وازداد عدد العائلات التي تستهلكه على موائدها باطراد وبذلك ازدهر العمل.

نجح الجزء الأسهل من عمله وهو بيع الحليب، ولكنه حمل أيضًا جوانب سلبية. إذ اعتقد معظم الناس العاديين أن حليب البقر يؤثر على طبيعة من يشربه، فأكثروا من القيل والقال حوله. وسمعنا نحن الصغار من الخدم أن مولود السيدة تودا الجديد به قرن صغير على جبينه وأن أصابعه متشابكة مثل حوافر الأبقار. لم تكن تلك الحكايات سوى أقاويل طبعاً. بيد أن للخوف تأثيرا قويا على حياتنا في لحظات السعادة كما في لحظات الحزن، فاستفحل القلق في منزل تودا حتى على الأمور التافهة.

أهمل غالبية المثقفين في ذلك الوقت نساء عوائلهم، رغم كونهم متحررين وواسعي الأفق، إلا أنهم تركوا النساء للجهل وضيق الأفق؛ ومن ثم فإن الخلاف المستمر بين الأفكار السالفة والحديثة انتهى أخيرًا بمأساة. إذ اختارت الجدة العجوز المعتزة بنفسها من عائلة تودا، طريقة التضحية بنفسها بعدما شهدت ما كان في عينيها عارًا يلطخ اسم العائلة، وهي الطريقة الوحيدة لتدارك الخطأ التي يتقنها

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الياباني اليائس. فإن توجب على المرء أن يموت من أجل مبدئه؛ فليس صعباً عليه أن يجد سبيله لذلك. لذا وُضِعَتْ الجدة، ذات يوم لترتاح بجانب الأجداد الذين ماتت لتحافظ على شرفهم.

كان السيد تودا رجلًا لا يتزعزع، وإذ لم يتخل عن تنفيذ أفكاره التقدمية التي اقتنع بها، إلا أنه استسلم لاحتجاج والدته الصامت. فباع شركته لتاجر أسماك ثري ليغدو أكثر ثراءً، إذ ازداد استهلاك اللحوم والحليب باطراد.

تُركت الأراضي الفسيحة حيث كانت ماشية السيد تودا ترعى على مهل، خواءً لفترة طويلة. واعتدنا ونحن في طريقنا من المدرسة إلى البيت، أن نلقي نظرةً خائفةً عبر شقوق السياج الأسود ونتحدث بهمس ونحن نحدق في الأرض الموحشة المغطاة بالعشب الكثيف والحشائش المرتفعة. ربطنا على نحو دائم، وبطريقة ما، هذا المكان المهجور بروح السيدة تودا الهائمة، والتي أنجزت برحيلها للمجهول ما عجزت عنه عندما كانت هنا.

أخبرنا والدي في أحد الأيام، وعند عودته إلى المنزل أن السيد تودا أصبح الآن حارسًا لدى مالك مزارع في المقاطعة المجاورة. يعود حسن حظ السيد تودا هذه المرة إلى أنه لعدة سنوات بعد الإصلاح، واجهت الحكومة الجديدة الكثير من المتاعب في إدارة مقاطعاتها العديدة التي كانت ذات حكم ذاتي سابقًا، فعمت الفوضى وغاب القانون فيها. لم يمثل الإصلاح بالنسبة لمالكي العديد من المزارع الصغيرة، ما مثله من كارثة بالنسبة للساموراي، لأن إيتشيجو تشتهر بمحاصيل الأرز الوفيرة، وغالبًا ما كانت مخازنهم مليئة بالثروات. لكن شاع قيام لصوص خطيرين بمداهمة هذه المخازن وأحيانًا قتل أصحابها، فكان لا بد لهم من حراسة، وبما أن قيود الأيام الإقطاعية، التي كانت تنظم أسلوب حياة الطبقات المختلفة بصرامة لم تعد موجودة، فقد استطاعوا الاستمتاع بثرواتهم دون تدخل من الحكومة وباتت لديهم صرعة توظيف الساموراي -رؤساءهم السابقين - كحراس، وذلك بسبب شرف مركزهم السابق، الذي يحترمه كل من هم أقل مرتبة منهم، وأيضا بسبب تدريبهم العسكري الماهر، كان الساموراي مؤهلين تماما لهذا العمل.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

اعتبر السيد تودا في عمله الجديد ضيفاً ورجل شرطة في آن واحد. فحصل على راتب مناسب، قدم له مطوياً وعلى نحو رسمي في ورقة بيضاء مكتوب عليها «تحية تقدير». ولم تكن هذه الوظيفة لتدوم بالطبع، فقد استعادت الحكومة سلطتها شيئًا فشيئًا حتى في منطقتنا النائية وضمنت بنفسها أمن المزارعين.

بعد ذلك سمعنا أن السيد تودا أصبح مدرسًا في مدرسة تجريبية لنظام المدارس العامة المؤسسة حديثًا. كان معظم الأساتذة المساعدين من الشباب الفخورين بأن يُطلق عليهم لقب «تقدميون»، والداعين بشدة لازدراء ثقافة اليابان القديمة. كان الساموراي العجوز، ويا للأسف، في مقام دون مقامه، ولكن نظرًا لكونه ذا ميول فلسفية ولا يخلو من روح الدعابة، فقد انسجم بسهولة حتى أصدرت وزارة التعليم قانونًا يقضي بعدم قبول أي شخص كمدرس ما لم يكن حاصلا على الدبلوم. رفض السيد تودا ذلك فعودته للدراسة على يد أولئك الذين اعتبرهم مجرد شباب مغرور من ذوي العقول الضحلة، إهانة كبيرة لرجل في سنه وعلمه وثقافته، فصرف اهتمامه إلى أكثر إنجازاته بهاءً وهو فن الخط، فقام بصياغة رموز تعبيرية جميلة للعلامات التجارية التي كثيرًا ما تُشاهد على الستائر المعلقة من شرفات المتاجر اليابانية. قام أيضًا بنسخ القصائد الصينية للحواجز القابلة للطي ولفافات الصور، بل وخط نقوشًا على لافتات معابد الشنتو.

باعدت الأيام بين عائلتنا وعائلة الـ تودا، ومرت بضع سنوات قبل أن أعرف أنهم انتقلوا إلى طوكيو. كان السيد تودا مستبشراً وواثقًا من أن العاصمة الجديدة، بأفكارها المتقدمة، ستعامله بإنصاف. لكنه في نهاية المطاف لم يكن سوى رجلاً نبيلاً من أيام الإقطاع فلم يجد أي تقدير، إذ كانت العاصمة تضج بالحماس الشديد لكل حديث واحتقار أكبر لكل سالف.

حين كنت أدرس في طوكيو وبعد سنوات عديدة، لفتت انتباهي وأنا أعبر شارعاً مزدحماً في يوم ما لافتة مكتوبة بشكل جميل: «مدرب في اللعبة الشعبية الجو»، ورأيت من بين قضبان الباب الشبكي السيد تودا جالسًا بشكل مستقيم جدا بمهابة الساموراي، يعلّم، نوعًا من الشطرنج، لعدد من التجار الأغنياء الجدد. كانوا رجالًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متقاعدون، كعادة كبار السن لدينا، تركوا أعمالهم للأبناء أو الورثة وخصصوا وقتهم لممارسة لعبة «الجو»، أو جلسات الشاي، أو أي هواية شعبية أخرى. بدا السيد تودا مسنًا ومعدماً لكنه لا يزال يتمتع بعزيمته وبعضا من روح الدعابة. لو كنت رجلًا لتوجب عليَ أن أتوجه لتحيته، ولكني فتاة صغيرة لا يليق بها التطفل عليه ومقاطعة لعبته، لذلك مضيت لحال سبيلي.

رأيته مرة أخرى بعد بضع سنوات في صباح باكر لأحد الأيام، عندما كنت أنتظر عربة حصان على زاوية بالقرب من مبنى إداري. مرّ رجل عجوز مرتخي الكتف الأيسر وهي علامة تميز من كان يحمل سيفين في الماضي. دخل المبنى، وبعد برهة ظهر مرة أخرى مرتديا لباساً رسمياً بقبعة ومعطف، وأخذ مكانه عند الباب، وفتحه وأغلقه أمام الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون. إنه السيد تودا ذاته. اندفع عدد من الموظفين الشباب المتغطرسين في لباس أوروبي أنيق على عجل من دون حتى إيماءة شكر. كانت تلك الطريقة الأجنبية الجديدة التي يتبعها من يسمون بالشباب التقدمي.

إنه لأمر جيد للعالم أن يتقدم، لكنني لم يسعني سوى التفكير في واقع أن آباء هؤلاء الشباب أنفسهم، قبل أقل من جيل، كانوا سيضطرون إلى الانحناء وجباههم على الأرض حين يمر بهم السيد تودا مسرعاً على حصانه. كان الباب يتأرجح جيئة وذهاباً، بينما يقف ورأسه مرفوعًا، ترتسم على شفتيه، نفس ابتسامته المرحة. السيد تودا، الشجاع، الذي لا يقهر! إنه يمثل الآلاف من رجال الماضي، الذين لم يعد لديهم ما يقدمونه للعالم الجديد غير الثقافة القديمة الأصيلة، والتي لم تعد مرغوبة، قبلوا بعزة ووقار مصير العجز - لكنهم كانوا أبطالا كلهم.

---

(9). ديانة يابانية محلية ضاربة في القدم.

(10). منصة مزخرفة في كثير من الأحيان أو ببساطة خزانة خشبية مُصنّعة بأبواب تحيط بالأيقونة الدينية وتحميها، وعادةً ما تكون عبارة عن تمثال أو لوحة لبوذا، جزء أساسي في حياة الأسرة اليابانية التقليدية لأنه مركز الإيمان الروحي داخل الأسرة.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أوراق تتساقط

أخذتني كين للسير على طول حافة خندق(11) القلعة القديم، كان ذلك هو اليوم السابق على آخر احتفال «غرق القلعة» في ناجاوكا. رُدِمَ جزء منه قبل سنوات وأصبح الآن مأهولاً بمزارع أرز صغيرة أنيقة؛ لكن معظمه لا يزال مجرد مستنقع امتلأ تدريجيًا بنفايات المدينة. في جانب قصي منه سقط جزء من الجدار مكونًا بركة، تجمعت على سطحها كومة كبيرة من أوراق اللوتس المخملية. قالت كين إن مياه الخندق في الماضي كانت عميقة جدًا وصافية كالمرآة؛ انتشرت بها أوراق اللوتس هنا وهناك، حيث بدت في موسم الإزهار كأنها نسيج مطرز بشكل عشوائي بزهور بيضاء وزهرية بارزة.

قلت وأنا أنظر عبر السدود إلى الجدران المتهدمة وأكوام الحجارة المتكدسة على قمة التل، طامعة أن أسمع الوصف مرة أخرى.

«القلعة يا كين، كيف كانت تبدو؟»

أجابت: «مثل كل القلاع، إتسو-بو سما، باستثناء أن هذه قلعتنا».

لم يغلب المرح على مزاج كين دوما، لكنها وقفت تتفرس طويلاً في الأطلال بصمت.

وجهت وجهي نحو التل وأغمضت عيني، محاولة أن أرى في ذهني الصورة التي طالما رسمتها لي شفاه جيا وإيشي الوفيين. كتلة مربعة كبيرة من الحجر والجص بنوافذ ضيقة ذات قضبان بيضاء وطبقات من الأسقف المنحنية تتعرج تعرجات فوق بعضها البعض بشكل فني وبطريقة تجعل أي شيء يُلقى من أي زاوية يجد مسارا دون عائق إلى الأرض؛ وفوق الأفاريز العريضة والسطوح متعددة الرؤوس، على طرف كل منها، سمكة برونزية ذات ذيل مرتفع تلتمع وتخفت تحت ضوء الشمس. وفي الأسفل، عند قاعدة السدود تعالت أشجار الصنوبر، هجعت في الظلام مياه الخندق المائي -الذي يطلق عليه الناس البسطاء «القاع»- والذي تعكس مياهه الصافية أحجار الجدار ذي الجوانب الستة (ظهر السلحفاة).

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

«تعالي، إتسو-بو سما، يجب أن نذهب».

اختلجت عيني حين نظرت أمامي فلم أجد أي شيء من الصورة غير السدود التي كانت تشكل في يوم من الأيام حماية من السهام والرماح، أما الآن فليست سوى حدائق نباتية جبلية هادئة.

قالت كين مشيرة بيدها إلى البعيد أثناء مشينا عائدتين إلى المنزل: «كل هذه الأراضي هناك في الخلف، كانت ذات يوم مغطاة بحدائق جميلة لمساكن الخدم الشرفاء التي أحاطت بالجدار الخارجي للقلعة. الآن قُضِيَ على كل ذاك الجمال بمئات المزارع الصغيرة البسيطة وبعضها، مثل التي لدينا، لا تحرثها أيدي (المجد القديم)».

ظلت كين هادئة طوال الطريق إلى المنزل، سرت إلى جانبها بهدوء، وتضاءلت شيئًا ما توقعاتي الكبيرة لاحتفال الغد.

(غرق القلعة) هو مصطلح يستخدم في الأدب الياباني لوصف الدمار العظيم الحاصل لقلعة الجانب المهزوم. كانت الحكومة الجديدة حكيمة وسخية في سعيها لمساعدة رعاياها على التكيف مع الموقف المحير الذي واجههم في نهاية الحرب، لكن شعب ناجاوكا شق عليه النسيان. إذ اعتقد الكثيرون أن سحب الإمبراطور الذي ينحدر من الرب من قصر القداسة والسلام، لإغراقه في عالم مادي من الواجبات الدنيئة فحسب، هو تدنيس للمقدسات، وأن فشل قوة الشوجون في السير بثبات على طريقها الصحيح كان مبعث حزن لليابان.

ولدتُ بعد الإصلاح وما صاحبه من الخراب والمرارة بسنوات، لكن ذكرياته رافقتني طوال طفولتي، إذ كان الحديث اليومي عن المدينة وعن فظاعة تلك الأيام التي خلت فيها الكثير من المنازل من رجالها. سمعت في مهدي أغاني الحرب كأنها تهويدات، وكان نصف قصص طفولتي حكايات عن أبطال في ساحة المعركة. ومن بوابة منزلنا، تراءت الجدران المهدمة وخندق القلعة نصف الممتلئ، وامتلأت مخازننا حتى السطح بالأسلحة وممتلكات خدم والدي، وقليلا ما خرجت إلى الشارع ولم أقابل شخصًا مسنًا، حين أمر به يقف جانبًا بتواضع، ينحني وينحني ويهمهم باحترام نادبًا «أمجاد الماضي». آه يا أنا.. يا لتلك الأيام، خطى الموت مرات عدة بين شدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك الأيام ورخائها المأمول في زمن طفولتي، بيد أن روح الولاء والطاعة القديمة (12)للسيد الأعلى لم تنطفئ بعد.

كان 7 مايو 1869 هو اليوم الذي نزعت فيه الحكومة الجديدة السلطة عن قلعة ناجاوكا، وبعد انصرام مرارة السنوات القليلة الأولى، باتت عوائل الساموراي في المدينة تحتفل بذكرى ذلك اليوم سنوياً. كان الاحتفال بالنسبة للوافدين الجدد والتجار، مجرد حدث ممتع، ولكن بالنسبة لأولئك الذين كانوا جزءا من الأحداث فإنه مثّل تكريماً لروح الفروسية الغائبة. في صباح اليوم التالي للسير مع كين بجوار خندق القلعة، استيقظت بشعور بالبهجة يغمرني مترقبة أحداث اليوم. وبالفعل كان يومًا حافلًا بالأحداث! تناولنا على الإفطار جميعا؛ الأرز الأسود -أرز مقشور، ولكن غير مبيض، مثل الأرز الذي تناوله الجنود أثناء خوض المعارك- وفي فترة ما بعد الظهر، نُظمت معركة تمثيلية في سهل يوكوزان في الجزء الخلفي من الضريح المخصص لدايمو ناجاوكا.

يا للحشد العجيب في ذلك اليوم! إذ تخلص الأرستقراطيون بسبب مآلات فقرهم من كثير من تروسهم وأسلحتهم الثمينة، ولكن أغلبهم احتفظ بالقليل، وقدم كل واحد منهم مرتديًا ما تبقى لديه. يمكنني حتى اللحظة استحضار مشهد الركب من البداية. والدي القائد الشامخ على حصانه، وفي عيني الطفوليتين، بدا مهيبا جدًا في ثوبه القماشي بأكمامه الضيقة حول المعصم وتنورته الشبيهة بالبنطلون، والتي تدلت من فوق درع الصدر المصقول بخيوطها المتقاطعة الحريرية وشعارها الذهبي البديع. صحيح أنه ما عاد لديه حصانه الذي خاض به معاركه ولا سرجه المزين، لكن براعة أمي زينت السرج العادي بالأشرطة والهُدُبِ الحريرية، فبدا حصان الفلاح الذي يستأجر مزرعتنا كحصان الحرب إلى حد ما؛ وبدلاً من السيوف التي حُظِرَ حملها، علق خيزرانتين حادتين في حزامه. تجمهر حشد كبير من الناس عند الجسر الحجري في آخر المدينة لمشاهدة انطلاقة الجيش الصغير. ارتدى المتفرجون الزي القديم، وخلال انتظارهم، جلس جميع الرجال بأرجل متقاطعة جلسة المحاربين، فظهروا بمظهر البواسل الشجعان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم دقت الطبول، ورفع والدي «السيهي» -وهو عبارة عن عصا تتهدل منها أوراق حملها أجداده يوما لتوجيه أتباعهم- ومضى للبعيد، تبعه قطار طويل من الرجال بدروع الحرب. عبروا الحقول وصعدوا الجبل، وبعد أن ألقى كل محارب التحية في المعبد، اجتمعوا في السهل للمعركة، اتبعوها بمعرض للرماية والمبارزة ورمي الرمح والمسابقات الرياضية بمختلف أنواعها.

ذهب خدمنا من الرجال إلى سهل يكوزان لمشاهدة الألعاب الرياضية، لكن النساء كن مشغولات طوال اليوم في الاستعداد لعودة الرجال إلى المنزل. نُشرت حصائر القش على العشب وأشعلت النار في عدة أماكن في الحديقة، نصب أعلاها حامل ثلاثي القوائم من الأغصان القوية، تتأرجح فيه مراجل حديدية كبيرة تحمل طرائد متبلة بالميزو(13)، والتي تشكل مع الأرز البني طعام الجنود في المعسكر. بعد المغرب، عاد الجيش الصغير راكبًا. ركضنا نحن الصغار، مرتدين أجمل ملابسنا، إلى البوابة الكبيرة وانتظرنا بين فانوسين عاليين ينشران أضواء الترحيب. عندما رآنا أبي فتح مروحته الحربية الحديدية وهزها ملوحا بها كتلويح المرء بمنديل للتحية، فانحنينا عدة مرات لرد تحيته.

قالت أمي ببعض الحزن: «يظهر والدك الموقر اليوم بمظهر أيام العز الماضية، وأنا ممتنة أنك استطعت رؤيته بهذه الصورة اليوم».

كدس الرجال أزياءهم الثقيلة في ركن من أركان الحديقة، وجلسوا حول المراجل، يأكلون ويضحكون بألفة في المخيم. لم يخلع أبي الزي، باستثناء أنه خلع قلنسوة الحرب، حيث كانت معلقة بحبل من الحرير، مغطية وجهه ورأسه من الأمام والخلف بقمتي إيناجاكي؛ قال ضاحكًا: «هكذا كشفت عن نفسي بشجاعة للأصدقاء والأعداء». ثم جلس على حجر من الحديقة مرتفع، وروى لنا قصص الحرب، متجمعين بالقرب من بعضنا البعض أمامه على حصيرة من القش.

كان ذلك آخر احتفالاتنا بذكرى غرق قلعة ناجاوكا. ففي السابع من أيار (مايو) التالي، غمرت المياه السهول بسبب هطول أمطار غزيرة، وفي العام الذي تلاه، كان أبي في حالة صحية سيئة. لم يكترث الرجال بالاحتفال دون سيدهم القديم كزعيم،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لذلك أجل الاحتفال إلى يوم لم يأتِ أبدًا.

لم يتعاف أبي قط من آثار أعوام الاصلاح الصعبة. كل عام منها تركه يبدو أقل شبهاً بالشاب القوي والطموح الذي أمسك بزمام ناجاوكا المضطربة خلال تلك الأيام العاصفة، لكن روحه الشجاعة والمرحة ظلت على حالها. حتى خلال السنوات الأولى العصيبة من كفاح اليابان للحصول على موطئ قدم في العالم الجديد، عندما كان الناس يتركون بنزق القديم ويلهثون بجنون وراء الحديث، سلك أبي طريقه المختلف، بهدوء من غير تعجل. كان يشارك أكثر الرجال تقدمية في عصره إيماناً راسخاً بالمستقبل المشرق والناجح لليابان، ولكنه -على عكس الأغلبية- أبقى على احترامه الكبير للماضي. ومع ذلك ظل محبوبًا للغاية، وكانت له القدرة على أن يتجاهل التعليقات البغيضة أو النقاشات الطويلة بفضل روح الدعابة القوية، والتي كانت وسيلته ليتحرر من مكانته العالية كوميض أشعة الشمس المباغت؛ وهكذا بدون لقب أو سلطة، احتل مكانه كقائد كما كان يوما.

في أحد أيام الخريف، اقترح طبيب والدي وصديقه الرجل التقدمي عليه أن يذهب إلى طوكيو ليستشير بعض الأطباء في مستشفى جديد مشهور باستخدامه الناجح للأساليب الغربية. قرر أبي الذهاب، وبالطبع أخذ جيا معه.

وبرحيل أبي وجيا، أحسست بالوحدة والكآبة. ما زلت أشعر بانفطار قلبي في تلك الأيام الموحشة. كانت أختي تستعد للزواج الذي قُرِّرَ أن يقام في الخريف، فأخذت الاستعدادات جل وقتها. لا أعرف ما كان يجب أن أفعله لكن لحسن حظي معي شيرو، الذي أصابته الوحدة مثلي. كان شيرو ملكًا لي، لكنني بالطبع لم أسميه قط لي، لأنه كان أمرًا غير مقبول ولا مألوفًا أن تمتلك فتاة كلبًا. لكن شمح لي باللعب معه، وكل يوم بمجرد انتهاء دروسي كنا نتمشى معًا.

في يوم من الأيام ذهبنا إلى أرض الرماية وأثناء سيرنا في الممشى الممتد لمسافة طويلة حيث كان أبي يحب السير فيه صاعدًا وهابطًا لممارسة الرياضة، انطلق شيرو فجأة بعيدًا عني باتجاه منزل صغير داخل البوابة، حيث يعيش جيا بمفرده. توفت زوجة جيا قبل أن أعي، كانت مدبرة منزل قديرة. كنت أذهب إلى شرفته الأنيقة

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحيانا في الظهيرة خلال الصيف، فأجد صندوقًا مربعًا يحتوي على أكثر الأشياء اللذيذة التي قد ترغب فتاة صغيرة في تناولها بين الوجبات؛ بطاطا حلوة مخبوزة في الرماد ومرشوش عليها الملح أو بعض الكستناء البني الكبير الذي شوي حتى تهشمت قشرته فخرجت منه الكريما الدسمة ذات الطعم اللذيذ التي كانت تنتظرني.

أسرعت خلف شيرو ووجدته قريبا من الشرفة يشم المكان ويهز ذيله بلهفة، حيث كان صندوق جيا الخشبي المزين يوضع في الزاوية.

«أوه ، لا ، لا ، شيروا» قلت ذلك ثم أردفت بحزن: «اختفى الصندوق وذهب جيا ورحل الجميع».

جلست على حافة الشرفة وحضنت شيرو ودس أنفه البارد في كمي الطويل. كنا نحن الاثنان في تلك اللحظة أتعس مخلوقين بائسين يمكن أن يوجدا، وبينما دفنت يدي في فروه الأبيض الهائج، كان عليّ أن أقاوم بقوة لأتذكر أن ابنة الساموراي لا تبكي.

فجأة تذكرت المثل، «الراحة المفرطة، جبن». فقفزت وكلمت شيرو. ولعبت معه. حتى أنني سابقته في الحديقة. عندما عدت أخيرًا إلى المنزل، أحسست بارتياب أسرتي في سلوكي الجامح غير اللائق، ولكن كوني عزيزة على والدي فقد أفلت من العقاب إكراما له. غمرت الرحمة قلوب الجميع آنذاك لثقل تلك الأيام علينا جميعا.

مرض شيرو ذات يوم، ولم يأكل شيئًا مما وضعته له في وعائه. كان لدي إحساس طفولي أنه إذا أكل فسوف يتحسن، لكن ذلك اليوم صادف ذكرى وفاة أحد الأسلاف، وبالتالي كان يوم صيام. ولم يكن العشاء سوى خضروات، لذا لم يكن يناسب شيرو. وكحالي دائمًا عندما أكون في مأزق، ذهبت إلى إيشي. كانت تعلم أنه لا ينبغي أن نمس الأسماك في يوم الصيام، لكنها أشفقت عليّ لجزعي واعطتني بعض عظام السمك من مكان ما. فأخذتها إلى جزء بعيد من الحديقة وسحقتها بين حجرين مسطحين. ثم خلطتها مع حساء الفاصوليا وأخذته إلى السقيفة حيث كان شيرو ممددًا على بساطه المصنوع من القش. بدا شيرو المسكين ممتنًا، لكنه لم يستيقظ؛ وظننت أنه ربما يشعر بالبرد، ركضت إلى غرفتي وأحضرت فراشي لتغطيته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما عرفت جدتي بذلك، أرسلت لي للذهاب إلى غرفتها. في اللحظة التي رفعت فيها وجهي بعد الإنحناء، علمت أن هذه المرة ليست من المرات التي سأستمتع فيها بكعكة الفاصولياء الحلوة.

قالت: «إيتسو-كو الصغيرة» (كانت تدعوني دائمًا «إيتسو-كو» عندما تحدثني بحزم)، «يتحتم عليّ أن أكلمك عن أمر مهم للغاية. قيل لي أنك لففت شيرو بفراشك الحريري».

ذهلت من نبرة صوتها، وانحنيت بإذعان

واستطردت: «ألا تعلمين أنك مذنبة بارتكاب أقصى درجات القسوة تجاه شيرو حينما تفعلين أشياء غير مناسبة له؟»

لا بد أنني بدوت مصدومة وحيرانة، لأنها حدثتني بلطف شديد بعد ذلك، موضحة أنه نظرًا لأن الكلاب البيضاء تنتمي إلى رتبة أدنى من رتبة البشر، فإن تصرفي قد يؤجل ولادة شيرو في هيئة بشرية في حياته الأخرى.

فوفقًا لاعتقاد التناسخ، يجب الحفاظ بدقة على الخط الفاصل بين درجات المخلوقات. إذ لو وضعنا حيوانًا أعلى من مكانه الصحيح، فقد نمنع ترقِّيهِ في ولادته التالية. فكل بوذي متدين يخضع للقدر كلياً، لأنه يعلم أن المشقة في حياته الحالية هي إما للتكفير عن الخطايا التي ارتكبها في حياته السابقة، أو أنه تأهيل ضروري لإعداده لمكانة أعلى في حياته القادمة. وقد قاد هذا الاعتقاد طبقة الكادحين في اليابان إلى الإذعان والدعة عبر عصور من المشقة، بالإضافة إلى اللامبالاة بشأن معاناة الكائنات الأخرى في ترتيب المخلوقات والذي كاد يصيرنا إلى أمة لا تعرف الرحمة.

شكرت جدتي وسارعت لطلب العفو من شيرو محاولة قدر الإمكان تدارك خطئي. فوجدته مرتاحا بدثار من قش الأرز الناعم المناسب لمرتبته. وفي الخارج كان اثنان من الخدم يحرقون فراشي الحريري يعلو وجوههم الحزن.

يا لشيرو المسكين! تلقى خير رعاية منا، ولكن جسده رقد في صباح اليوم التالي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحت حصيرة القش وانتقلت روحه إلى حياة تالية رجوت ألا تكون أقل مرتبة بسبب خطئي. دفن في أكثر ركن مشمس من الحديقة تحت شجرة كستناء كبيرة حيث كنا معا في صباحات الخريف نبحث عن حبات الكستناء المتساقطة ونلتقطها بسعادة. لم يكن ممكنا وضع علامة على قبر شيرو، ولكن والدي عاد بعد حين ووضع حجرًا رماديًا صغيرًا، تخليداً لذكرى الرفيق المخلص لطفلته الصغيرة.

واحسرتاه! فقبل أن تنثر شجرة الكستناء ثمارها البنية على قبر شيرو، دُفن والدي العزيز في مقبرة الأسرة في تشوكوجي، ووُضع لوح آخر في الركن المقدس المذهَّب الذي كنا ننحني له بحب وتوقير كل صباح ومساء.

---

(11). تحاط القلاع اليابانية بخنادق مائية لتعزيز الدفاع.

(12). كانت طبقة الساموراي من أكبر المعارضين للنظام الجديد، إذ تعرضت أكثر من غيرها من طبقات المجتمع الياباني لفقد امتيازاتها.

(13). الميزو هو عنصر رئيسي في الطبخ الياباني ويشكل قاعدة الطبق الأساسي. عادة ما يكون معجونا مماثلا في قوامه لزبدة الفول السوداني، وهو خليط من فول الصويا والحبوب (مثل الأرز أو الشعير) والملح وكوجي (الفطر). يمكن أن يكون الميزو خفيفا أو كثيفا ويتم تخميره من بضعة أسابيع إلى عدة سنوات.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

عام مشمس جديد

بات بيتنا منعزلاً خلال فصل الشتاء اللاحق لوفاة أبي. ولم يغمرني الحزن طيلة الأيام التسعة والأربعين الأولى لرحيله والتي «تحوم الروح فيها بقرب البيت»، لأن شموع الركن المقدس المشتعلة باستمرار وبخوره أشعرتني بقربه. وأيضا انهماك الجميع في القيام بأشياء باسم والدنا الغالي؛ فبالنسبة للبوذيين ما الموت سوى رحلة، لذا انهمكت أمي وجيا خلال تلك الأسابيع السبعة، في أداء الواجبات الضرورية، وسداد الالتزامات بجميع أنواعها، وترتيب شؤون الأسرة حتى تتحرر الروح في اليوم التاسع والأربعين من أغلال هذا العالم وترحل راضية إلى أرض الراحة.

بيد أنه وما أن انتهت تلك الأيام الحافلة، حتى أظلم الركن المقدس -عدا فترة الطقوس اليومية- وحلت الوحشة والكآبة. وقد اعتقدت بسذاجتي الطفولية أن أبي يسير على طريق بهي جميل مع العديد من الحجاج الآخرين، يرتدون الجلابيب البيض المغطاة بالكتابات الكهنوتية وعمامات الحج والصنادل المصنوعة من القش التي دفنوا فيها - ومع كل خطوة يخطوها يبتعد عني أكثر.

وبتعاقب الأيام، عادت الحياة إلى مجاريها، ما عدا أن الاختلاف طال كل شيء. فلم يعد جيا يهمهم بالأغاني الشعبية القديمة أثناء عمله وغابت البهجة عن صوت إيشي ففقدت معه شغفي بالحكايات الخرافية. وبينما باتت جدتي تقضي وقتًا أطول من أي وقت مضى في تلميع أثاث الركن المقدس، أدت أمي واجباتها المختلفة بهدوء كعادتها، ولكن بابتسامة شابها الحزن. أما أنا وأختي فخطنا وقرأنا معًا، إلا أننا ما عدنا نسجي وقتنا بتناول الحلوى والضحك. وجرى بنا الحديث دومًا إلى مواضيع حزينة عند اجتماعنا في المساء حول المدفأة في غرفة الجدة. حتى في قاعة الخدم، وإن بقيت الأحاديث والضحكات تختلط بأصوات الغزل وطحن الأرز إلا أن روح الفرح اختفت.

أكثر ما أدخل البهجة إلى قلبي في تلك الأيام هو مرافقة أمي أو إيشي إلى المعبد، وكانت الخادمة توشي تسير دائمًا خلفنا، تحمل الزهور إلى القبر. نذهب أولًا إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهيكل لننحني احترامًا للكاهن، معلمي الجليل. فيقدم لنا الشاي والكعك، ثم نذهب معًا إلى القبور، ويصحبنا صبي من الكهنة، حاملاً دلوًا خشبيًا أبيض مليئًا بالماء ومغرفة من الخيزران الرفيع تطفو على سطحه. ثم ننحني تحية احترام للموتى، ونسكب الماء من المغرفة الصغيرة على قواعد الحجارة الرمادية الطويلة. كان شعب ناجاوكا مخلصًا إخلاصًا كبيرًا للماضي لدرجة أن أمي قالت لي بعد سنوات عدة من وفاة والدي، إنها توقفت عن زيارة قبره بتاتًا عندما لم تجده مخضلًا بعبرات أصدقائه ورفاقه القدامى.

ذهبت مع توشي إلى المعبد في الخامس عشر من فبراير احتفالا بذكرى وفاة بوذا، ما يعرف باسم «الدخول في السلام»، حاملة هدية للكاهن؛ علبة مزينة من قطع الحلوى الصغيرة، صنعت على هيئة أشكال جميع الحيوانات في العالم، تمثل النادبين لبوذا على فراش الموت، حيث كانت جميع الكائنات الحية موجودة باستثناء القط. بعد أن أعرب الكاهن العجوز الصالح عن شكره، أخذ زوجًا من عصي تناول الطعام وأخذ عددا من قطع الحلوى في طبق ووضعها لبضع دقائق أمام الضريح، قبل أن يتركها على مأدبة غدائه. في ذلك اليوم أخبرني بمشاعر جياشة أنه مضطر لتوديعي، لأنه سيرحل عن تشوكوجي إلى الأبد. تعذر عليَ فهم سبب مغادرته حينها للمعبد الذي عاش به فترة طويلة وله مكانة كبيرة بقلبه؛ ولكنني أدركت بعدها أنه وعلى الرغم من ورعه وإخلاصه لجميع تقاليد المعبد، إلا أنه غلَّب عقله، وانضم إلى «جيش القلة» الذين اختاروا الفقر والنبذ في سبيل ما أيقنوا به من حق.

جلست وجدتي معًا في إحدى الأمسيات، بعد تساقط الثلوج بغزارة، ناعمتين بالدفء بجوار المدفأة في غرفتها. كنت أصنع كرة من خيوط القنب لناموسية يتحتم نسجها كجزء من مهر زفاف أختي، وجدتي تريني كيف أفك ببراعة أصابعي خيوط القنب المتشابكة.

صرخت فجأة متذكرة أمرًا أردت قوله: «جدتي المحترمة، لقد نسيت أن أخبرك أننا سنقيم معركة ثلجية في المدرسة غدًا. تم اختيار هانا لتكون زعيمة من جهة وأنا من الجهة الأخرى».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم غلبني الحماس لدرجة أني أفلت الخيط فتعقد، وشددته بعجلة فوجدت نفسي في ورطة.

قالت جدتي مادة يد العون لي وهي تفك الخيط المتشابك: «انتظري!، يجب أن تغني أغنية لف خيوط القنب»، وغنت بصوتها المسن المرتعش:

تنبه ليدك حين تلف خيطك

إن تعقّد فبالصبر تعقّل

وتمهل بحركاتك لا تتعجّل

فالعُقَد لعُقدٍ أكبر تتحول.

ثم سلمتني لفة القنب المفكوكة وأضافت: «في المرة القادمة لا تنسي!»

قلت معتذرةً: «شرد فكري في معركة الثلج»

بدت على وجه جدتي سيماء الاعتراض وقالت: «إيتسو-بو»، «أعدت أختك الكبرى قبل أن تتزوج، خيوطًا من القنب تكفي لكل ناموسيات بيتها المستقبلي. وقد بلغتِ الحادية عشرة من عمرك ويجدر بك أن تكوني ماهرة أكثر».

أجبتها وقد تملكني الخجل لصحة كلامها: «نعم، جدتي المحترمة، هذا الشتاء سوف أغزل خيوط قنب كثيرة. وسأعد العديد من الكرات ستكفي إيشي لتنسج ناموسيتين لمهر أختي قبل حلول رأس السنة الجديدة».

قالت جدتي باسمة لاندفاعي: «لا داعيَ للعجلة»، وأضافت بجدية: «خليقٌ بنا ألا نجعل حزننا يحول دون نصيب أختك فقد أجل حفل زواجها حتى (موسم الحظ) حين تنحني حقول الأرز بثقلها». على العريس المجهول انتظار عروسه حتى الخريف. أما أختي فلم تأبه، إذ توجب علينا الاهتمام بأمور عدة وسرعان ما نسيَ كلانا كل شيء عن حفل الزفاف المؤجل في غمرة استعدادنا لاقتراب العام الجديد. لاحظتُ تناقص عدد رجال المتاجر الزائرين لمنزلنا، وفاتتني زيارات السيد ناجاي الطويل وزوجته الصغيرة الثرثارة النشيطة، الوسيطان في زواج أختي.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

تقام الأعياد اليابانية المهمة في الأيام السبعة الأولى من الشهر الأول لكل عام. وأثنائها يوجّهُ رجال يلبسون تنانير ذات ثنيات ومعاطف علوية نداء ترحيب إلى عائلات أصدقائهم، حيث تستقبلهم مضيفات يرتدين ملابس احتفالية بالأطباق المميزة للسنة الجديدة. ويخوض الصبية الصغار معارك ساخنة في السماء بطائرات ورقية مزخرفة بديعة، مثبتة بدبابيس على خيوط للتحكم بحركتها. وفتيات يضعن نُطُقًا جديدة يرمين ويتلقفن الكرات المكسوة بالريش أو يلعبن ببطاقات القصائد مع إخوتهن وأصدقائهم، فهذه التجمعات الاجتماعية الوحيدة خلال العام بأكمله التي يلتقي فيها الفتيان بالفتيات. وحتى الرضع لهم نصيب في هذه المناسبات؛ فلكل طفل منهم عيد ميلاد خاص في يوم رأس السنة الجديدة، وهكذا يدخل الطفل منهم فجأة عامه الثاني وهو بالكاد بدأ عامه الأول.

قلّت احتفالات عائلتنا في العام المنصرم؛ لذا لم يُسمح لأجواء العام الجديد أن تصطبغ بالحزن، وللمرة الأولى منذ وفاة أبي تصاعدت أصوات الفرح في المطبخ مع الرائحة الحارة للأرز المبخر. وامتزجت أصوات جيا وإيشي وهما يدندنان بالأغنية القديمة «الفأر في بيت الرفاهية»، المصاحبة دوما لإعداد أقدم طعام في اليابان، عجينة الأرز التي تسمى موتشي.

نحن رسل إله الحظ

رُسُلُ البِشْر

نحن بعمر مئة عام، لكننا لم نسمع قبلاً

صرخة القط المخيفة

لأننا رُسُلُ إله الحظ

رُسُلُ السعد

قبل حلول العام الجديد بحوالي يومين، جاءت إيشي إلى المطبخ باحثةً عني. كنت أجلس على الحصيرة مع تاكي، التي أتت للمساعدة في الاستعداد لرأس السنة الجديدة، وكنا ننتقي حبوبًا مستديرة من كومة في سلة مسطحة تمثل «حجارة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الصحة» التي سنرمي بها شياطين الشر في ليلة رأس السنة لنطردها بعيدًا. اندفع جيا بلباسه الاحتفالي، لبعثرة الحبوب في أرجاء المنزل، وتبعته تاكي وإيشي وتوشي، وأنا وأختي نركض خلفهم، وكلنا نلتقط بحماس الحبوب ونعيد رميها وركلها للخارج بهمة ونشاط وأثناء تدحرجها محلقةً في الهواء عبر الشرفات إلى الحديقة أو إلى مسارات الممشى، شرعنا بالغناء بنبرات صاخبة مرحة، مرارًا وتكرارًا:

أيها الحظ السعيد ادخل! للداخل

أيها الشر، اخرج! للخارج

تعود بي ذاكرتي لذلك اليوم الشتوي المشمس الرائع! يومها طلبت أمي من إيشي أن تأخذني معها -في طريقها للقيام ببعض المهام- كما قالت: لمشاهدة المناظر الرائعة. اجتزنا الشوارع عبر ممرات شُقَّت بعمق ثلاثة أقدام فقط في أكوام من الجليد شكلت على جانبيها حوائط مرتفعة. لم يتساقط سوى القليل من الثلوج مبكرة في ذلك الشتاء، لذا تأخر شق الأنفاق إلى ما بعد حلول العام الجديد. تراءت المتاجر أكثر إشراقًا تحت رحابة السماء -كفصل الصيف- في بعض الأماكن التي تفلتت عنها ألواح الرصيف. وعلى جانبي كل مدخل وقفت شجرة صنوبر معلق حولها حبل شنتو بفتائله الخشنة تتدلى منه الشراريب وقصاصات الأوراق المتعرجة.

معظم المحلات التجارية في ذلك الشارع صغيرة، ذات واجهات مفتوحة، تُمكّن الرائي من رؤية طبقات الأرفف المملوءة ببضائع جذابة زاهية تلبي حاجات الموسم. ولأن الطقس كان استثنائيًا ذلك اليوم، تجمهرت حشود من أهل القرى المجاورة أمام المحلات، ولحسن الحظ كانت ناجاوكا جاهزة بسلعها للسنة الجديدة آملة أن تروق للذائقة البسيطة لسكانها.

بنظري، فإن العديد من هذه الأماكن، رغم اعتياديتها، إلا أن في تجدد ما يحيط بها من مشاهد، سحر وإثارة كسحر المسرحية. ففي أحد الأماكن توقفت إيشي لإحضار شيء ما، ووقفت أشاهد مجموعة من الأولاد ما بين سن العاشرة والثانية عشرة، يحمل البعض منهم صغارًا على ظهورهم، ويقرقعون بقباقيبهم العالية الخاصة بالأيام الممطرة. عرجوا لشراء كرة من حلوى الأرز المنفوش والسكر البني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكسروها، وأخذ كل منهم قطعة ولم ينسوا وضع بعض الفتات في أفواه الأطفال المحمولين. كانوا أطفالًا من الطبقة الفقيرة بالطبع، وإلا ما تناولوا طعاما في الشارع، ولكن أحسست بطعم تلك الحلوى بفمي، وتبعتهم بعيني إلى المتجر التالي، حيث زجوا بأنفسهم وسط الحشود متدافعين للوصول لعرض طائرات ورقية كبيرة مرسوم عليها تنانين ووجوه ممثلين والتي بدت مرعبة بصدق وهي تحدق من السماء. تجمعت فتيات صغيرات حول المحلات التي عُرِضتْ على أرففها صفوف من القباقيب الخشبية ذات الألوان الزاهية، وأخرى تأرجحت من سقوفها أقماع طويلة من القش مليئة بمشابك شعر للسنة الجديدة، شكلت على صورة أوراق الصنوبر وأزهار البرقوق. وبلا ريب عرضت العديد من المتاجر المضارب الطويلة والمزخرفة للعبة (الهانيتسوكي)(14) ومعها خمس أو عشر ريشات بجميع الألوان. كان الناس يتجمعون أكثر أمام هذه المتاجر، إذ مهما بلغ الفقر بأحدهم أو أشغله عمله فإن ذلك لا يمنعه من لعب (الهانيتسوكي) في أيام رأس السنة الجديدة.

ستبقى ذكرى تلك النزهة الرائعة ما حييت، لأنها كانت المرة الوحيدة خلال طفولتي التي شهدتْ فيها شوارعنا مشمسة ومشرقة في فترة رأس السنة الجديدة.

انقلب هدوء بيتنا على غير العادة، فانشغلت أمي انشغالا كبيرا في الأيام الثلاثة الأولى من رأس السنة باستقبال أقاربنا من الرجال وأصدقاء العائلة. الذين ضُيِّفُوا بحساء الخضار، مع سمك السلمون المحشو بالميسو، وخثارة الفاصوليا المقلية، وأعشابا بحرية من نوع معين، والجيلاتين المجمد. وأضيفت عجينة الموتشي بالطبع لكل شيء، لأن الموتشي دلالة على «تهانينا السعيدة» ولا غنى عنها في كل بيت خلال فترة رأس السنة الجديدة. وقُدِم نبيذ من الأرز يسمى ساكي التوسو مع الطعام -وكلمة توسو تحمل معنى «ينبوع الشباب» ودلالة لبداية حياة جديدة بحلول العام الجديد- والذي قلما يقدم إلا في مناسبات معينة كاستقبال المواليد الجدد واحتفالات رأس السنة الجديدة.

الأيام التالية كانت أكثر ودية. حيث استدعي جميع الخدم القاطنين معنا والذين يأتون للمساعدة في المناسبات، لإظهار الاحترام لهم، ومن العادة أن تستضيف أمي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

جميع خدم المنزل في يوم من أيام الموسم. ليجتمعوا في غرفة المعيشة الكبيرة، مرتدين أفضل ملابسهم. ثم تُحضَر طاولات مزخرفة صغيرة محملة بأشهى أطباق عيد السنة الجديدة. ونقوم أنا وأختي بتقديم الأرز. وحتى أمي تقوم بالمساعدة. وقد حضر كل من تاكي وإيشي وتوشي وكين، مع جيا وخادمين آخرين، وكلهم كانوا يتصرفون برسمية. أما كين، صاحبة الروح المرحة، فقد أضحكت الجميع بتقليدها لسلوك أمي المتأني إلى حد ما. فتبتسم أمي بطبيعتها السمحة الدائمة، إنما تحتم عليّ أنا وأختي أن نكبح جماح طيشنا، لأننا ابتغينا تقليد كين وتوشي في أداء تحية الانحناء بإخلاص وتهذيب. كان كل شيء رسميًا ولكنه كان أيضًا مريحًا ومبهجًا.

تدعو والدتي أحيانًا نجارًا عجوزا في هذه المناسبات، والذي اعتبرته عائلتي خادما بسيطا. وقديما في اليابان، شمل عمل النجار البارع عمل المهندس المعماري ومصمم الديكور الداخلي بالإضافة إلى عامل الخشب، وبما أن هذا الرجل كان معروفًا في ناجاوكا باسم «ماستر جورو بيم» -وهو لقب إشادة بنجار ماهر ومتقن واستثنائي- وبالإضافة إلى ذلك، ينحدر من أجيال عدة حملت اسمه، وكان يحظى باحترام كبير. ولقد أغرمت غراماً كبيرا بجورو. فقد استولى على قلبي حين صنع لي بيت دمى صغيرا جميلا به سلم يشبه الدرج. كان مصدر فخر لي طوال فترة الدمى الورقية في طفولتي. في أول يوم لرأس السنة الجديدة التي حضر فيها جورو بعد وفاة والدي، بدا هادئًا وحزينًا حتى قدمت له أمي ساكي التوسو؛ حينها ابتهج وبدأ بالثرثرة. وبغتة وسط الحفل توقف، ورفع كأسه باحترام شديد إلى مستوى جبهته، وانحنى بأدب لوالدتي، التي كانت تجلس على وسادتها داخل المدخل المفتوح للغرفة المجاورة.

استهل كلامه بقوله: «أيتها السيدة المحترمة، عندما زخرفتُ بوابتكِ بزخرفة الصنوبر في المرة الماضية، واستضفتني بكرمك مثل هذا اليوم، كان سيدي المحترم هنا».

ردت والدتي بابتسامة حزينة: «نعم، كان كذلك. تغيرت الأمور يا جورو»، وتابع جورو: «كان السيد المحترم يتمتع بالنباهة، حيث لا اعتلال الصحة ولا سوء الحظ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمكن لهما المس بقدراته ولا بذرابة لسانه. يومها في غمار كرم ضيافتك، سيدتي المحترمة، دخل السيد المحترم الغرفة وأكد لنا جميعًا أننا موضع ترحيب كبير. وكنت قد ألفت قصيدة متواضعة من النوع الذي يقتضي الرد حتى يكتمل. وإن جرأتي دفعتني لترديدها أمام السيد لأطلب أن يكرمني بكلمات ختامية. كانت قصيدتي لائقة لتحية العام الجديد، فهي تمنيات بالتوفيق، والعافية، وأن يعم الخير هذا القصر المنيف».

يا آلهة الحظ السعيد السبعة

طوقوا هذا البيت بأيد محكمة بأمان

فلا يمكن لشيء أن يمر عبرها

فرد السيد الجليل بأسرع من لمح البصر، وانحنى جورو بعمق، مع تجعد من المرح على شفتيه، ووميض من المرح في عينيه:

واحسرتاه! واحسرتاه! فمن هذا المنزل

لن يهرب إله الفقر أبدًا

وسيبقى بالداخل دومًا

استمتع جورو بالأبيات الهزلية، لدرجة أن أمي ابتسمت ابتسامتها اللطيفة مشاركة رفاق زوجها ضحكات السعادة، فقد كانوا يشيدون بأي كلمة تقال لمدح الرجل الذي أحبوه جميعًا واحترموه.

لكن كين ذات العيون المشرقة همست لإيشي فابتسمت إيشي وأومأت برأسها. وعت تاكي وتوشي بعض الكلمات وابتسمتا أيضًا. لم أعرف بما همست كين إلا بعد حين، وقد كان:

آلهة الفقر أحياناً طيبون

لقد شبكوا أيديهم بأيدي آلهة الحظ السعيد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسجن الفرح داخل بواباتنا.

هكذا كنا نعيش روح الديمقراطية في اليابان القديمة.

---

(14). لعبة يابانية قديمة تشبه لعبة الريشة الحديثة. من الألعاب التقليدية للاحتفال بالعام الجديد، ولدى اليابانيين في الماضي اعتقاد بأن لعب (الهانيتسوكي) يطرد الأرواح الشريرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زفاف لم يتم

لم تدم بهجة رأس السنة، فكانت أقصر من موسم الأعياد. وإذ اعتدنا أن نضع كعكات الموتشي في التوكونوما(15) حتى اليوم الخامس عشر للعيد، فإن إزالة أشجار الصنوبر من أمام البوابتين صباح اليوم الثامن عادة. تداول الناس روايات متوارثة (لم يصدقها أحد) أنه وفي الليلة السابعة تغوص الأشجار في الثلج، ولا يظهر منها إلا قممها. تحقق الأمر فعلاً في ذاك العام، ففي صباح اليوم الثامن للعيد، صحونا فإذا بالثلج يطمر الممرات التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام، بينما اندكت حديقتنا بأكملها تحت الثلوج التي بلغ عمقها ما يزيد عن المتر، أما أشجار الصنوبر الصغيرة عند البوابة فلم نر منها شيئاً حتى الربيع.

انهمك كل عمال ناجاوكا ذلك اليوم في العمل، إذ أن الثلج المنهمر بغتةً لم يتوقف عن الهطول بغزارةٍ شديدةٍ، وفي غضون أسابيع قليلة، لم يعد من طريقٍ إلى المدرسة غير الأرصفة المسقوفة والأنفاق الثلجية؛ وأضحى عامنا الجديد الجميل المشمس مجرد ذكرى.

وفي أصيل يوم من الأيام، بينما كنت عائدةً إلى البيت من المدرسة، إذ بساعي بريدٍ، مرتديًا معطفًا من القش وحذاءَ ثلجٍ كبير، ينزلق من خلال فتحةِ نفق في السهل الثلجي أعلاه. ليخاطبني بمرح:

«سيدتي الصغيرة، لدي بريد لكم من أمريكا».

«من أمريكا!»، صرخت متفاجئةً؛ شَاقَنِي الأمر إذ لم تصلنا من قبل أي رسالة من الخارج. حاولت إبقاء ساعي البريد في مرمى بصري بعدما مضي مسرعا على طول الطريق الضيق بين جدار الثلج وصف المحلات التجارية المفتوحة. كان من حين لآخر ينادي «رسالة!» - «رسالة!» ثم يتوقف ليضع بريداً في يدٍ تمتد إليه. كان الممر ضيقًا، فقطع المارة مجال الرؤية عني لمرات، لكنني لمحته عندما استدار نحو شارعنا. وعلمت أنه سيمضي بالبريد إلى المدخل الجانبي؛ لذلك أسرعت بأقصى ما أستطيع حتى وصلت إلى غرفة جدتي وانحنيت: «لقد عدت»، مستبقةً دخول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخادمة بالبريد. كانت الرسالة الرائعة لأمي، وحين طلبت مني الجدة أن أحملها إليها خاب أملي، إذ فاتتني فرصة رؤيتها مفتوحة. كنت أعلم أنه بمجرد أن تستلمها أمي، ستأخذها على الفور إلى الجدة، وحينها لن يسمح لي بالدخول. ستنظر الجدة إليها بعنايةٍ شديدةٍ من خلال نظارتها ذات الإطار السميك وتعيدها إلى أمي، قائلةً بأسلوبٍ هادئٍ ومتكلف: «افتحيها من فضلك!». بالتأكيد ستقلقها تلك الرسالة الأجنبية، لكن ذلك سيزيدها رزانةً وتكلفاً. تخيلت الموقف كاملاً في ذهني بينما كنت أسير في القاعة، وأحمل المغلف الكبير ذا الشكل الغريب إلى غرفة والدتي.

في ذلك المساء بعد الطقوس العائلية إزاء الركن المقدس، أبقت الجدة رأسها منحنيًا لفترة أطول من المعتاد. وعندما رفعته جلست مستقيمة وأعلنت رسميًا، بأكبر قدر من الوقار، كشأنها في أداء شعائر المعبد: «سيعود السيد الشاب الذي قضى سنواتٍ عديدة بأمريكا إلى داره». فاجأنا الخبر، فمنذ أن وعيت تقريبًا وأخي غائب ولا يُذكر اسمه مطلقًا. لكن وصفه بـ «السيد الشاب» دلالةٌ كافيةٌ أن المأساة الغامضة قد انقضت، وأن مكانته كابن قد أعيدت. جلس الخدم في الجزء الخلفي من الغرفة، وانحنوا على الأرض في تهنئةٍ صامتة، وقد ظهر عليهم مغالبتهم لجيشان انفعالهم. لم أتوقف لأتساءل لماذا. كان يكفيني معرفة أن أخي عائد إلى المنزل. وبالكاد اتسع قلبي لكل ذلك الفرح.

كنت صغيرة بلا شك عندما رحل أخي، وعلى الرغم من قدرتي على تذكر اليوم الذي غادر فيه بوضوح، إلا أن ذكريات ما حدث قبل رحيله وما تلاه كانت مشوشة. أتذكر صباحًا مشمسًا زُيِّنَ فيه بيتنا بأجمل زينة وارتدى فيه كافة الخدم ملابس احتفالية بشعار إيناجاكي. كان ذلك اليوم يوم زواج أخي.

في إحدى غرفنا الأثيرة علقت على التوكونوما لوحة من اللفائف لرفقاء الشتاء الثلاثة، الصنوبر والخيزران والبرقوق(16)، رسمها فنان قديم. على المنصة تحتها كانت طاولة رسم عليها مشهد «تاكاساجو»(17) جميل بدا فيه الزوجان العجوزان بشعرهما الأبيض يجمعان قش الصنوبر من على الشاطئ بالمكنسة والمنكش.

وضعت في كل أنحاء البيت رموز أخرى تيمناً بحياةٍ زوجيةٍ سعيدةٍ، وزينت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهدايا بأشكالٍ صغيرةٍ من طيور اللقلق الثلجية، وسلاحف ذات ألوان ذهبية وبنية، أو مرشات جميلة من خشب الصنوبر، والخيزران، والبرقوق. وامتلأت الغرفتان الجديدتان اللتان شيدتا مؤخرًا بخزائن الحمامات الجميلة المصنوعة من اللك والصناديق المصنوعة من الخشب الأبيض بمشابك حديدية. جيء بها كلها في اليوم السابق في موكب من الصواني الضخمة تتأرجح من أعمدة على أكتاف الحمالين. كانت كل واحدة مغطاة بقطعة قماش تحمل شعاراً مختلفاً عن شعارنا.

أثناء تنقلنا أنا وإيشي من غرفة إلى أخرى، أخبرتني أن عروس أخي ستصل عما قريب. وسمحت لي بلمحةٍ خاطفةٍ لغرفة الزفاف. كانت بيضاء بالكامل وبسيطة وفارغة ما عدا عدة قرابين للآلهة تركت على التوكونوما ومائدة صغيرة وضع عليها ثلاث كؤوس قرمزية، جهزت للوعد المقدس.

كانت إيشي تجري كل لحظة لتلقي نظرة نحو بوابة المدخل الكبيرة، وصحبتها أينما ذهبت بكل تأكيد، ممسكة بطرف ثوبها. وقد شرعت جميع أبواب المنزل ودفعت أبواب الغرف الانزلاقية للخلف، ما مكننا من رؤية البوابة الكبيرة المفتوحة في نهاية الممشى الحجري بوضوح. رفرفت ستارة زرقاء داكنة تحمل شعار إنجاكي تحت المدخل وعلى كل جانب انتصبت عواميد رفيعة طويلة تحمل فوانيس التهنئة. وقف بالقرب من أحد الأعمدة الحجرية رسول «السبع مرات ونصف» في ثوبه ذي الأكمام الخشنة. لقد آب من مشواره السابع ليتأكد مما إذا كان موكب الزفاف مقبلاً، وعلى الرغم من أن الوقت كان في وضح النهار، إلا أنه أضاء فانوسه الكبير للمرة الأخيرة ليستقبل الموكب في منتصف الطريق مظهراً مدى حرصنا على الترحيب بالعروس القادمة.

بعد ذلك رأيت الخدم وهم يندفعون نحو المدخل تعلو وجوههم الابتسامة، ولكن بهدوء ورزانة لدرجة أنني سمعت بوضوح صوت صرير هودج العروس وجلبة أقدام رجال الجينريكشا الخافتة وهم يصعدون التل. قالت إيشي: «يوشك الموكب أن يصل توًا».

ثم حدث خطب ما بغتةً. فأمسكت إيشي بكتفي وسحبتني للوراء، وخرج أخي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعجالة من غرفة أبي. لقد مر من أمامنا بخطوات واسعة مترنحة، ولم يلتفت إليّ بتاتًا، انتعل حذاءه على درج الحديقة، وخطا مسرعاً نحو المخرج الجانبي. ولم تبصره عيناي قط منذ ذلك اليوم.

لم ترجع العذراء التي كان من المفترض أن يتزوجها أخي إلى دار أهلها. إذ لم تعد قانونيًا جزءًا من عائلة والدها. هذه المعضلة غير العادية حلتها والدتي بدعوتها للبقاء في منزلنا كابنة؛ فبقيت حتى رتبت لها والدتي ختامًا زواجًا مناسباً.

بسذاجة الطفولة تساءلت عن غرابة الحدث، ومرت أعوام قبل أن أربطه بالرحيل المفاجئ في إبان ذلك الوقت لفتاة صغيرة بهية الطلعة تدعى تاما، اعتادت تنسيق الزهور وأداء واجبات خفيفة. ضحكتها المرحة ولسانها الذرب جعلها المحبوبة لدى جميع أفراد الأسرة. لم تكن تاما خادمة. إنما جَرَتِ العادة آنَذاكَ بإرسال بنات التجار الأثرياء ليعشن فترة قصيرة في منزل رفيع المستوى، حتى يتعلمن الآداب الصارمة للحياة في بيوت الساموراي. لم ينطو هذا العرف على أي تصغيرٍ أو تقليلٍ من شأن تلك الفتيات، بل عوملت الفتاة التي تعيش مع أسرة من أجل التنشئة الاجتماعية باحترام دائم.

في صباح اليوم التالي لرحيل أخي، كنت ذاهبةً، كالعادة، لتقديم تحياتي الصباحية لوالدي عندما التقيت تاما مقبلةً من بابه، وبدت شاحبة ومذهولة. انحنت لي بتحية الصباح ثم مرت بهدوء. افتقدتها بعد ظهر ذلك اليوم فأخبرتني إيشي أنها عادت إلى دارها.

أيا ما كان بين أخي وتاما لم أعرفه قط، وما كان بأي حال من الأحوال لينتهي دون خسارة في ذلك اليوم، فالزواج لا يتم قانونيًا دون موافقة الوالدين، ووالدي الذي أصيب بجرح في قلبه وكبريائه أعلن أنه قد تبرأ من ابنه. ولم يسعني إلا أن أشعر بأثر من شجاعةٍ في تصرف أخي، أكان مخطئاً أم مصيباً. بالطبع خالط سلوكه الضعف، إذ أطال أمدَ الصراعَ المعتلج في قلبِهِ حتى اللحظةِ الأخيرةِ تقريبًا، لكنه بلا ريب قد حاز بعضًا من شخصية والده القوية؛ مكنته من كسر تقاليدِ تنشئتهِ الصارمةِ وتحدي أوامر والده، وإن في وقت متأخر.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يذكر أخي أمامي مرةً أخرى إلا بعد عدةِ سنواتٍ. بعد ظهرِ أحد الأيام، بينما كان أبي يريني بعض الحيل بلف الخيط. كنت راكعة بالقرب من وسادته، أشاهد يديه تتحركان بسرعة وأحاول الإمساك بأصابعه. كانت أمي تجلس بالقرب من خياطتها، وثلاثتنا نضحك. ثم أتت خادمة إلى الباب لتقول إن الرائد ساتو، رجل نبيل من طوكيو يعرفه والدي عز المعرفة قد جاء لزيارته. أنهضتني أمي وهمت بمغادرة الغرفة، لكن والدي أومأ لها بالبقاء، فبقينا كلانا.

لن أنسى ذلك المشهد أبدًا. تحدث الرائد ساتو بجديةٍ كبيرةٍ، فأخبر والدي كيف أن أخي ذهب إلى طوكيو والتحق بالكلية العسكرية بمحض جهوده الذاتية، وأنه أكمل الدورة التدريبية وحصل على مرتبة الشرف، وكيف غدا الآن ملازمًا. أنهى الرائد ساتو حديثه. أنصت إليه والدي بهدوء وسكينةٍ، رافعاً رأسه، ووجهه صارم خال من أي تعبير. بعدها ساد الصمت الغرفة لدقيقة كاملة لدرجة أنني سمعت صوت أنفاسي. ثم سأله والدي، دون أن يتحرك، وبهدوء: «أيها الرائد ساتو هل أوصلت الرسالة؟»

فرد: «نعم»

«إنني أقدر اهتمامك أيها الرائد ساتو. وإليك جوابي، لدي بنات، وليس لدي ابن».

جلست أمي بهدوء تام طوال الوقت، ورأسها منحنٍ ويداها مشدودتان بإحكام في حجرها. عندما تكلم أبي، اعترتها بعض الرجفة لكنها لم تتحرك.

ثم استدار والدي تجاهها. وقال بلطف شديد: «زوجتي، اطلبي من إيشي إحضار لوح الجو، والنبيذ لضيفنا الكريم..»

أياً يكن في قلب كلا الرجلين، فقد لعبا اللعبة بهدوء حتى النهاية، وقعدنا أنا وأمي هناك في صمتٍ عميقٍ كالتماثيل.

وفي تلك الليلة عندما كانت إيشي تساعدني في ارتداء منامتي، رأيت الدموع في عينيها فسألتها: «ما الذي يزعجك، يا إيشي؟، لم توشكين على البكاء».

هوت على ركبتيها، ودفنت وجهها في أكمامها، وللمرة الوحيدة في حياتي سمعت إيشي تندب مثل الخادمات. «أوه، سيدتي الصغيرة، سيدتي الصغيرة»، ثم صاحت:

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أنا لست حزينة. بل سعيدة. أنا ممتنة للآلهة لأنني ولدت من طبقة متواضعة فلا حرج عليّ إن بكيت، حين يعتصر قلبي الألم، وإن ضحكت حين يلامس الفرح أوتار قلبي. أوه، يا سيدتي العزيزة! يا لسيدي المسكين، المسكين! » وظلت تنوح.

مضت سنوات طويلة متعاقبة، والآن، بعد ذلك الزمن الغابر، عاد أخي إلى منزله.

تراءى الانتظار طويلًا، طويلًا. فقد تلاشى الثلج، ومضى الربيع، وجاء الصيف، وجاء أخيرًا اليوم الذي فتحت فيه أبواب الركن المقدس في الصباح الباكر وظلت الشموع تلتهب ساعةً بعد ساعةٍ بلا توقف، لأن الجدة أرادت حضور أرواح الأسلاف للترحيب بالهائم العائد، وحيث أن وسيلة النقل من طوكيو كانت الجينريكشا والكاجو في تلك الأيام، لم يكن ممكناً التنبؤ بوقت وصوله بتاتًا. لكن أخيرًا، سماعنا لهتاف «عودة حميدة!» أحضر الجميع عند المدخل فيما عدا الجدة. نكسنا جميعنا وجوهنا إلى الأرض. إلا أنني مع ذلك رأيت رجلاً يرتدي زيًا أجنبيًا يقفز من الجينريكشا، ويلقي نظرةً سريعةً حوله، ثم أقبل بتمهلٍ على الطريق الحجري القديم نحونا. توقف في إحدى الأماكن وابتسم وهو يقطع باقةً من الأزهار الصغيرةِ التي تنمو بين الحجارة. لكنه رمى بها بعيداً في الحال وأتى مقبلاً.

تبودلت تحايا سريعة عند الباب. انحنى أخي وأمي كل منهما للآخر، وتحدث إليها بلطف، وهي تنظر إليه بابتسامة ودموعها تكاد تطفر من عينيها. ثم قال لي ضاحكًا: «إتسو-بو ذاتها ذات الشعر المجعد والوجه المستدير».

خلع عنه جيا حذاءه الإفرنجي، ودخلنا. حتماً، ذهب إلى الركن المقدس أولاً. انحنى وأدى كل شيءٍ على أتم وجه، ولكن بسرعةٍ كبيرة، فخالجني شيء من القلق. ثم ذهب إلى غرفة الجدة.

فوراً بعد التحية، سلمته الجدة صندوق رسائل والدي المصقول. رفعه إلى جبهته كما يقتضي الاحترام. بعد ذلك، أخرج رسالةً، وفتحها بتمهلٍ، واصطبغ وجهه بتعبيرٍ غريبٍ وهو ينظر إلى ما كتب داخلها. لقد أصابني الذهول إذ لم أستطع تبين ما إذا كانت تلك النظرة تحمل معني المرارة، أم التسرية، أم اليأس. وتراءى لي أنها مزيج من الثلاثة. كانت الرسالة قصيرة جداً. كُتبت بيدٍ مرتجفةٍ: «بنيّ أنت الآن سيدُ

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إيناجاكي، وأنا أثق بك». فقط تلك الجملة.

في ذلك المساء، أقيمت مأدبة عشاء كبيرة في أفضل غرفةٍ لدينا. جلس أخي بجانب التوكونوما. حضر جميع الأقارب المقربين، وقدم طبق الطعام الذي يحبه أخي. دارت أحاديث كثيرة، ولكنه بدا هادئًا نوعًا ما، رغم أنه حكى لنا عن بعض الأمور في أمريكا. راقبته وهو يتحدث. ثيابه الغريبة ذات الأكمام الضيقة وجواربه السوداء أعطت ايحاءً بانتمائه للعاملين في المطبخ، وقد جلس القرفصاء على وسادته. كان صوته عالياً نوعًا ما، وطبعهُ حين ينقل ناظريه بسرعة من شخص إلى آخر يكاد يكون صادما. شعرت بقليل من القلق وعدم اليقين - أوشك أن يتحول إلى خيبة أمل؛ إذ خالجتني مشاعر متناقضة، فقد بدا مختلفًا عما تمنيته أن يكون عليه. عدا شيئًا واحدًا أحببته فيه من اللحظة الأولى. كان له بريق عيني والدي حين يبتسم. وكلما لمحت تلك اللمعة في عينيه، تيقنت أنه وإن اختلف مظهره -أو حقيقته- عن أبي إلا أنه يمتلك بلا ريب جانباً غالياً من أبي في قلبه. وعلى الرغم من المخاوف الغامضة، كنت أعرف، في أعماقي، أنه ومهما حدث في قادم الأيام أو السنوات، سأحبه دائمًا وسأكون دائمًا صادقةً معه. وقد فعلت.

---

(15). توكونوما، هي ما يشبه الإطار في جانب من غرفة الاستقبال على الطراز الياباني، تعرض فيها عناصر فنية.

(16). الصنوبر والخيزران والبرقوق.

نظرًا لقدرتها على الازدهار حتى في قسوة الشتاء، الصنوبر والخيزران والبرقوق تجسد معًا الصمود والمثابرة والمرونة

(17). تاكاساغو (高砂): هي مسرحية درامية راقصة تقليدية. تعتبر قصة حاملة لمعاني البشر والأمل، تحكي قصة زوجين محبين يدوم زواجهما طويلا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مغامرتان

أدخل أخي العائد عنصرًا جديدًا ومثيرًا إلى منزلنا. وهي الرسائل التي تلقّاها من حينٍ لآخر من أصدقائه في أمريكا. لا أقصد محتواها المضجر إذ لم تحو سوى أخبار الناس والأعمال؛ لذا تلاشى كل اهتمامي بها بعد فترة. غير أن ما كان له وقع السحر علينا هي تلك المظاريف الكبيرة بشكلها الغريب وصفحات الورق السميكة الصغيرة المخطوطة بقلم حبر باهت. إذ لم ير أي منا من قبل «قلمًا»، أو أيٍ نوعٍ من أنواعِ أوراق الكتابة تلك. كنا نستخدم لفائف ورق والفراشي وأظرفاً صغيرةً رقيقة تمكننا من كتابة رسائل بأي طول نبتغيه، وقد يصل طول الرسالة عدةَ أقدامٍ على ورقةٍ واحدةٍ. وحين نكتب نبدأ من الجانب الأيمن، ونمضي في خطوط عمودية بالفرشاة، وكلما كتبنا بسطنا اللفة من الجانب الأيسر. فتبرز الحروف السوداء الأنيقة على خلفية بيضاء بالكامل، ملونة ومزينة ببراعة بحسب تفاوت سمك الورقة بمجموعات من الأزهار الرقيقة والضبابية. وفي السنوات اللاحقة غدا لدينا ورق مزهَر بالألوان، أما عندما كنت طفلة فكان السائد أن اللون الأبيض وحسب هواللون الفاخر.

اعتاد أخي وضع رسائله المرسلة إلى أمريكا في أظرفٍ كبيرةٍ غريبةِ الشكلِ؛ لذلك افترضتُ أن هذا النوع كان ضروريًا. وذات يوم طلب مني أن أسلم ساعي البريد رسالة مغلفة في أحد مظاريفنا الصغيرة، المنقوشةِ بفرعٍ رشيقٍ من أوراقِ القيقبِ. فاندهشتُ دهشة كبيرة عندما رأيت على زاوية منه طابعاً باهظَ الثمنِ ومعنوناً إلى أمريكا.

سألتُ بترددٍ: «أخي المحترم، هل ستسمح الحكومة بإرسال هذه الرسالة؟»

«لمَ لا؟»

«ظننت أنه لا يمكن إرسال الرسائل إلى أمريكا سوى في المظاريف الكبيرة».

قال بحدةٍ: «هراء!». ثم أضاف بنبرة لطيفة: «نفدت من عندي، وأوصيت بها من طوكيو، ولم تصل».

فامتلأ قلبي الفتي بالفرح بذهاب أوراق القيقب الرقيقة إلى أمريكا. وتلك كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أول أواصر اللطف التي عهدتها بين البلدين.

لم يدر في خلدي أمر محدد تجاه أمريكا، لكنني كنت قد سمعت مراراً تلميحاتٍ عن تجارب بغيضة مر بها معظم من تعامل مع الأجانب، ما ولّد لدي إحساسا غامضا بالكراهية تجاه الأرض المجهولة. وعزز هذا الانطباع القصص الغريبة التي رواها الخدم عن: «البرابرة حمر الوجوه وشقر الشعر وبلا كعوب فيلجؤون إلى دعم أحذيتهم بكعوب اصطناعية».

قيل إن هؤلاء الناس الغريبين كانوا يأكلون الحيوانات بأكملها، وأن أرباب البيوت الفخمة غالبًا ما كانوا يكرمون ضيوفهم بتقطيع نسرٍ مطبوخٍ في حضورهم. كما ترددت شائعات عن أن البطانيات الحمراء الرخيصة التي استوردت بكثرة آنذاك، كانت مصبوغة بدماء الأطفال المخطوفين. والشائعة الأخرى، التي انتشرت كالنار في الهشيم، في المدن والقرى على حد سواء، هي أن رائحة الحيوانات الغريبة للأجانب كانت بسبب أكلهم للحم. ربما كان منبع ذلك الظن يعود إلى الرائحة غير المألوفة للصوف التي مُيّزت في الملابس الرطبة للبحارة الأجانب. نظرًا لأنه لم يكن لدينا خراف ولا قماش صوفي في اليابان، فإن الرائحة غير المألوفة ارتبطت بالطبع بالشخص الذي تفوح منه الرائحة، اعتاد سكان الريف حتى الآن أن يبحثوا عن الأقمشة الصوفية في المحلات باسم «سلع تفوح منها رائحة الحيوانات!». ولا يزال هذا الاسم عالقًا.

لم ينكر أخي معظم تلك الحكايات. وأظن أنه صدق أغلبها، رغم عيشه في أمريكا، إذ يبدو أنه لم يلتق هناك سوى بعدد قليل جدًا من الناس باستثناء أولئك الذين يعملون في البيع والشراء. وقد قالت الجدة ذات مرة، بحسرة، «يبدو أن أخاك الكريم لم يتعلم سوى أساليب التجار من أمريكا البعيدة». لكنها أضافت بإمعانٍ: «لعلها أرض لا يعيش بها سوى التجار!».

صحيح أن أخي ذهب إلى أمريكا، لكننا لم ندرك أنه لم ير سوى جزءا صغيرا من إحدى المدن الساحلية لتلك الأرض العظيمة.

بدا أخي مع مرور الوقت، وكأنه غائب عن حياتنا العائلية، ولا هو اندمج في حياة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهل ناجاواكا. كان مختلفًا عن الجميع. بدا أحيانًا مضطربًا وقلقًا، لكنه في أغلب الأحيان لم يعدْ أن يكون متبرماً ساخطاً. كان يأتي في أوقات كتلك، ليجلس بجانبي وأنا أخيط أو أدرس، يساورني الاعتقاد أنه كان يتحدث إليّ بحرية أكثر من أي شخصٍ آخر، وذلك من حين لآخر، ولم يكثر، كان يتحدث عن نفسه، فأدركت شيئا فشيئا الكثير عما كانت عليه حياته منذ أن غادر المنزل.

كان ذهابه إلى أمريكا بسبب الهوس بالمشاريع الأجنبية الذي عم طوكيو في الفترة التي ترك فيها الجيش. كان العديد من الشباب، ينطلقون في اتجاهات مختلفة متيقنين من قدرتهم على النجاح السريع الباهر، وشجع أحدهم أخي على استثمار كل ما لديه فيما كان يمثل شركة تصدير كبيرة لها مكاتب في أمريكا. عرض عليه شراكة وتولّى مسؤولية الأعمالِ هناك. وكحال أغلب رجال طبقته، لم يكن لديه إدراك أنه يجهل أساليب الأعمال؛ فوافق وأبحر إلى أمريكا.

عند وصوله إلى وجهته اكتشف تعرضه للاحتيال. كانت شركة التصدير مجرد متجر ألعاب صغير يقع في حي ياباني مزدحم تملكه زوجة عامل ما وهي لا تعلم شيئًا عن الشراكة الموعودة. شق أخي المصدوم طريقه إلى فندق قريب يجر أذيال الخيبة. فندق متواضع جداً، كما قال، حيث كان العديد من الرجال اليابانيين يتبادلون الحديث ويلعبون الألعاب. كانوا في الغالب من العمال أو الكتبة المغمورين من طبقة متواضعة وغير متعلمة. لكنهم كانوا أكثر احترامًا له، وعلى الرغم من أن تلك البيئة لا تلائمه، إلا أنه لم يكن لديه مكان آخر يلجأ إليه. وسرعان ما أنفق كل أمواله، وما كان يتقن اللغة الانجليزية ولا أي عمل. وهكذا انجرف بسهولة إلى منحدر حياة المحيطين به.

ستدفع العزيمة بعض الرجال إلى خوض الصعاب حتى آخرها وصولاً إلى مبتغاهم، لكن أخي لم يخرج من الحي المكتظ الذي سكن فيه إلا مرات قليلة، يتجول في الشوارع الواسعة حيث المباني الشاهقة والمتاجر الكبيرة، ليرى الأجانب الذين لم يعرف عنهم سوى القليل، وذلك القليل كان مدعاة لنفوره، فلم يأمل أي خيرٍ منهم. وقد أدهشه ما رآه. أحس بالقرف من الرجال ذوي المظهر الغريب الذين

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

يعبرون مسرعين أمام ناظريه، فهم يتحدثون بأصوات عالية ويدخنون لفائف تبغ كبيرة كريهة الرائحة، أو يمضغون أشياء مروعة يبصقونها من أفواههم في الشارع. وكانوا يمرون به فلا يعيروه أي اهتمام أو ينظروا إليه كما كان ينظر هو بنفسه إلى أي عامل من العمال في دياره. أما النساء فقد رأى فيهن مخلوقات غريبة الملبس، يحدقن ويضحكن بأفواه مفتوحة. لم يبد أي شيء من حوله عذباً رقيقاً، كل ما حوله كان أضخم وأعنف وأقسى، نفرت منه روحه المولعة بالجمال. لذلك عاد إلى بيئةِ سكنِهِ التعيسة لكنها المألوفة لديه.

ثم تدخل القدر. فأصيب أخي بجرحٍ في رأسِهِ، ما أدى إلى إرساله إلى المستشفى لمدة ثلاثة أسابيع هانئة، وهادئة، ونظيفة. وفي اليوم الذي خرج فيه من المستشفى، سار ببطء وشعور المرارة في قلبه، نحو المكان الوحيد الذي يعرفه -مسكنه القديم- وأثناء انعطافه ناحية السكن، تقابل وجهاً لوجهٍ مع شاب، كان يسير بخطى سريعة وتظهر عليه علامات القوة والنشاط. قهقه الرجل بصوت عالٍ حيث ارتزَّ كلاهما فجأة. فيما بعد، لاحظ الرجلُ على أخي المرض والشحوب، فاستدار ومشى بجانبه. رغم أن أخي كان يرتدي ملابس رثة، إلا أن سماته كرجل نبيل لم تخطئها العين، وهذا ما أدركه ذلك الشاب، واسمه ماتسو، فأصر على أن يصطحب أخي إلى غرفته. وبعد بضعة أيام أوجد له عملاً في المتجر الذي يعمل به مسؤولاً عن طاقم العمل، وتلك كانت بداية التعارف، ثم توطدت أواصر صداقة قوية وراسخة بينهما.

لو أن أخي وجد هذه المؤازرة عند وصوله إلى أمريكا لأول مرة، لربما وصل الشاب عريق النسب الذي تربى على كريم الأخلاق منذ نعومة أظفاره لمبتغاه رغم الصعاب التي واجهته، ورغم ما انغمس فيه من تخبط في ممارسة حياته العملية؛ لكن الوقت كان قد فات. تسببت هذه الضربة العرضية على رأسه في حدوث ضرر، وإن لم يكن واضحًا في البداية، تطور تدريجيًا إلى مشكلة تعيق قدرته على العمل المنتظم؛ ولم يعد أخي المسكين أبداً لما كان عليه. لكن عطف ماتسو ظل كما هو.

ثم وصلت رسالة من الرائد ساتو من طوكيو، يخبره فيها بمرض والدي ورغبته بعودة ابنه إلى البيت. لا أعرف شيئًا عما دار في خلد أخي، لكن رده تأخر لبضعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسابيع. وعاد بعدها.

انتهى عام الحداد، في ذلك الخريف، وحل أخي في المنزل محل والدي، وخطط لزفاف أختي في موسم الحصاد. لكن الموسم حل مبكرًا. ففي أوائل أكتوبر ثقلت حقول الأرز في كل أنحاء إيتشيجو بالغلال، واعدة بالوفرة، ولكن بلا ريب، لا أحد يتزوج في شهر تغيب عنه الآلهة، لذلك أجل الزفاف إلى أول يوم من شهر نوفمبر توخيا للحظ السعيد.

إنه شهر أكتوبر الذي تجتمع فيه جميع آلهة الزواج، في معبد إيدزومو ليقرنوا بين أسماء المقبلين على الزواج. تدور إحدى القصص الأثيرة لدى الجدات والمربيات والتي كن يقصصنها على الفتيات الصغيرات، حول شاب كبير في السن كان سيء الحظ إذ كان مقطوعاً من شجرةٍ بلا والدين أو أخوة. ونظرًا لعدم وجود من يهيئ له أمور الزواج، فقد وصل لسن العشرين وهو لا يزال عازبًا.

وفي يوم من أيام شهر أكتوبر قرر زيارة معبد إيدزومو لمعرفة ما إذا كان اسمه مقترنًا باسم أي عذراء. لذلك، أخذ معه هدية، رزمة من بواكير حصاد الأرز، وبدأ مسيرة يومه الطويل. وعندما اقترب من درجات المعبد سمع أصواتًا تنادي أسماءً: «فلان وفلانة» و«فلان وفلانة» ميز اسم شاب يعرفه. وآخر ثم آخر - قرنت أسماؤهم بأسماء فتيات يافعات.

«لا بأس لا بأس»، همس الشاب المذهول، «لقد تطفلت على اجتماع الآلهة».

لكن توقه غلب عليه فلم يقو على التراجع. فاستمع وهو يتسلل بين أعمدة الزينة الراسخة في الأرض، وشعور بالذنب يختلط بأمله وقلقه.

اسمان آخران! آخر! «فلان وفلانة». «فلان وفلانة»- و يا للأسف! لم يذكر اسمه.

وأخيرًا أعلن صوت القضاء: «هذا ما قضي لهذا العام، وقد أوشك آخر يوم لاجتماعنا على الانتهاء».

قال صوت آخر: «انتظر لحظة، وما ذا عن تارو. المتبقي الوحيد، ألا نجد له عذراء؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خفق قلب الشاب حين سمع اسمه.

«يا للإزعاج!» هتف أحد الاله وقد نفد صبره. «ها قد ظهر هذا الاسم مرة أخرى!»

وقال آخر: «لا داعي للعجلة».

ثم نودي باسمه من زاوية بعيدة: «سيبقى اسمه بلا قرينة لمدة عام آخر، إذ لم تبق أية عذراء».

قال المتحدث الأول: انتظرا في قرية تشيستنت وفي منزل سيد القرية ولدت فتاة. إن أسرتها من طبقة أعلى، لكن دعونا ننهي مهمتنا ونهبها لتارو».

«نعم! نعم!» صاحت جميع الآلهة. «اقرنوا الاسمين معًا ولنعجل عائدين لأداء مسؤوليات الأماكن المقدسة».

وأعلن صوت القضاء: «انتهى عملنا للعام».

زحف الشاب مبتعدًا، مشتعلاً غضباً وقنوطاً. وبينما هو يمشي بتثاقلٍ على طول طريق عودته إلى بيته، اشتد سخطه وقنوطه، بيد أنه ما أن رأى قرية تشيستنت ورأى منزل سيد القرية الفخم ذا القش السميك والحاجز الكبير المثقل بحزم الأرز المجفف حتى سكت عنه الغضب وقال بتؤدة، «على أية حال، لا بأس!» دلف ببطء من الباب المشرع. وفي الداخل وجد طفلة في مهد من الوسائد. ورأى وجهها وقبضة يدها الصغيرة.

قال في نفسه: «أأنتظر زهاء اثنتي عشرة سنة!» ثم صاح بغتة: «لن أرضى بذلك! سأتحدى الآلهة!» وهناك على توكونوما تلك الغرفة سيف معلق. فاستله، وهوى به على مهد الوسائد بضربةٍ سريعةٍ، وهُرِع مجتازاً الباب.

مرت السنوات. وكان القدر حليفاً لتاروا فاغتنى، ولكنه لم يجد عروسًا. وانقضت سنون أخرى. وختاماً، تقبل العزوبية بصبرٍ كعقابٍ على عصيانه للآلهة، وأذعن.

ثم حدث أمر غير متوقع. جاءه وسيط زواج يعرض عليه عروساً - جميلة وشغولة ومطيعة. فرح تارو. وجرت المفاوضات. وصلت العروس وانعقد الزواج وحققت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزوجة الشابة لتارو كل ما تمناه من سعادة. وفي يوم من أيام الحر، وبينما كانت جالسة تخيط في الشرفة، أرخت طيات ياقتها فرأى تارو ندبةً متقوسةً غريبةً على رقبتها.

فسألها: «ما هذا؟».

قالت العروس مبتسمة: «هذا لغز محير، فحين كنت طفلة صغيرة جداً، سمعت جدتي بكائي، ولما أتت، وجدت سيف أبي على الأرض وأنا مصابة بهذا الجرح المقوس في رقبتي وكتفي. لم يكن بجانبي أحد، ولم يعرفوا بتاتاً كيف حدث ذلك». واختتمت الزوجة عائدة لخياطتها ثانية: «وقالت جدتي أن الآلهة ميزتني لحكمة ما».

عاد تارو بفكره لسنوات مضت. رأى وجه الطفلة وقبضة يدها الصغيرة؛ وأدرك أن تغيير القضاء والقدر محال.

عندما أخبرتنا إيشي بهذه القصة، اختتمت حديثها قائلة: «وكما ترون: لا سبيل للمرء إلا القبول بإرادة الآلهة بامتنان. لا سبيل غير الإذعان للمكتوب».

حينما حلَّ يوم زفاف أختي، عَمّنا جميعًا حماس عارم؛ لكن الحماس الأكبر للزفاف الياباني إنما يكون في منزل العريس، حيث يقام الحفل. إلا أنه يُعد بعناية لمناسبة انتقال العروس ومغادرتها لمنزل والديها، فلعدة أيام امتلأت أركان منزلنا بأصوات تأمر وأخرى تلبي. ثم حل اليوم الذي انشغلت فيه كلا من تاكي وإيشي وتوشي لساعات وساعات، ثلاثتهن يطوين الفراش ويعبئن صناديق الزفاف. وفي اليوم التالي، انطلق موكب متعلقات الزفاف خارجاً من بوابتنا متأرجحاً على المحفات عبر الجبل، متجهًا إلى بيت أختي.

غادرت أختي بعدها بيومين. أتت مصففة الشعر في الصباح الباكر لذلك اليوم، فلا بد من تسريح شعر العروس بطريقة معينة للزفاف حيث يزين بحليٍّ رائعةٍ من قواقع السلاحف والمرجان. ثم غُطي وجهها ورقبتها بمسحوق أبيض كثيف وكانت ترتدي رداءً أبيض -لون الموت- لأنها بالزواج تصبح في حكم الميتة لعائلة والدها. أما أسفل ذلك فترتدي لباس مولود جديد وهو ثوب قرمزي، رمزاً لولادتها من جديد في عائلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زوجها.

ارتدت أمي ثوبها الجميل، وبدا أخي في التنورة الاحتفالية ذات الثنيات المصنوعة من الكتان وقطعة الكتف الصلبة من الكاميشيمو، كوالدي تماماً؛ فسررت أيما سرور بإدراك ذلك الشبه.

حالما وصلت محفة الزفاف إلى الباب، مضينا جميعًا إلى الركن المقدس لكي تودع أختي أرواح أجدادنا، لأنها بعد الزواج، لا تعود منتمية إلى عائلتنا، بل إلى عائلة زوجها. انحنت بمفردها أمام الركن المقدس. ثم دخلت أمي إلى جانبها على السجادة وقدمت لها علبة مرآة جميلة، من النوع الذي تقتنيه جميع السيدات اليابانيات مع اللباس الاحتفالي. كانت مرآة أختي عبارة عن عمل فسيفسائي جميل من الكريب زينته نقوش من الصنوبر والخيزران والبرقوق. لقد صنعته جدتنا بيديها. كان بداخلها مرآة صغيرة تتدلى منها جواهر من البلور المغطى بالديباج على حبل حريري، وعلى حافة العلبة، في أسفل الشريط، غُرس دبوس شعر فضي طويل يمثل خنجرًا، لتكتمل رموز الزمن القديم لشعارات الإمبراطورية الثلاثة؛ المرآة، والجوهرة، والسيف.

عندما سلمت والدتي علبة المرآة لأختي، قالت نفس الكلمات التي اعتادت أمهات العرائس قولها. أخبرتها أنها ستبدأ رحلة حياة جديدة بإقدام، مثلما يمضي الجندي إلى المعركة. ثم استطردت: «انظري للمرآة كل يوم وراقبي عن كثب، إذ أن أي آثار من الأنانية أو الكبرياء في قلبك، ستظهر كخطوط على قسمات وجهك. وكوني قوية كقوة خشب الصنوبر، ومطيعة طيعة كلين الخيزران، ومع ذلك، لا تفقدي أبدًا صبر ومثابرة النساء الوفيات مثل البرقوق العطري الذي يزهر تحت الثلوج».

لم أر والدتي أبدًا من قبل متأثرة لهذه الدرجة، بيد أن وجه أختي المسكينة بدا خالياً من كل تعبير تحت المسحوق الأبيض السميك.

انحنينا جميعا انحناءة وداع طويلة عند الباب. دخلت أختي إلى البالانكوين(18) وحجبها عنا الساتر الخشبي للنافذة الصغيرة. تزوجت مربيتها الخاصة، التي من المفترض أن تدخل أولا في الجينريكشا، ورحلت بعيدًا، لذا أخذت إيشي مكانها ودخلت الجينريكشا أولا. وكان الوسيط وزوجته التاليين، ثم أخي وأمي. بدأ الموكب

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

في التحرك، رشت توشي الملح على عتبة الباب مثلما نفعل حين نشيع الموتى، واختلط بصوت دوران العجلات وجلبة الأقدام المهرولة، صوت الجدة الأجش وهي تغني مقطع «الوداع» من أغنية الزفاف:

من سواحلنا

قارب شامخ الشراع

يبحر نحو القمر

يبحر على موج انحسار المد

وأطلال الديار تنحسر وراءه

ويبحر القارب أبعد - وأبعد.

وهكذا انقضت حياة أختي بصفتها فرداً من عائلة إيناجاكي؛ إذ مهما زارتنا بعد ذلك، ومهما عوملت بمحبة وبلا تكلف، فلن تكون أبدا سوى ضيفة. بعد ذلك بوقت طويل أخبرتني أختي عن متاعب سفرها إلى منزلها الجديد. لم تمض سوى بضع ساعات، لكن توجب عليهم أن يصعدوا جبلاً، واهتز البالانكوين على نحو مخيف. وقالت إن أكثر ما أقلقها هو الحفاظ على رأسها المثقل بمشابك الزينة الثقيلة، من الاصطدام بالوسائد وحل شعرها المزين بإتقان. أخيرا، صار الحمالون يخبون خببا على طريق منبسطة، ثم توقفوا ودفعت إيشي حاجز القصب عن النافذة: «سيدتي الشابّة، وصلنا إلى حيث يجب أن نرتاح قبل أن نصل إلى بيت العريس المحترم». ساعدت أمي وإيشي أختي على الترجل عن البالانكوين، وذهبن جميعًا إلى مزرعة كبيرة، ولكن بسيطة. أستُقبِلوا بلطف من قبل المضيفة، التي كانت قريبة بعيدة لعائلة العريس. تناولوا العشاء، حيث قُدمَ لكل شخص الأرز الأحمر مع سمكة صغيرة كاملةً برأسها - رمزًا للتهنئة. قامت إيشي بتعديل ثوب أختي، وألقت نظرة على نطاقها، وتفحصت شعرها وأعادت وضع البودرة على وجهها. ثم تحرك الموكب رويدا رويدا صعودا على منحدر تلة مرتفعة. في الأعلى، قابلهم رسول «السبع مرات ونصف» وسرعان ما وصلوا إلى البوابة الكبيرة التي تحمل لافتة شعار العريس وفوانيس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الترحيب. شعرت بوصولها لممشى حجري حين وضع الحمالون البالانكوين على الأرض. لم يكن بوسعها رؤية أي شيء، لكنها تعرف أنه في لحظة تالية سَتفُتح النافذة الصغيرة في المقدمة وسيظهر وجه العريس، ثم سيضرب بمروحته على الجزء العلوي من المحفة، وهي إشارة «ترحيبية».

ليس من العادات أن يتأخر العريس، لكنه كان شابا خجولًا، لم يتعد السبعة عشر عامًا، وكان عليهم أن يحضروه. قالت أختي إنه في تلك الدقائق القليلة من الانتظار، شعرت بالخوف لأول مرة، ثم سمعت خطى سريعة، وفي اللحظة التالية انفتحت شاشة القصب الصغيرة. كان يتحتم عليها أن تجلس بهدوء، وتغضُّ بصرها باحتشام، لكنها جَفَلت وألقت نظرةً خاطفةً إلى الأعلى، وعندها رأت وجهًا شاحبًا ذا ندوب بحاجب منخفض عريض وشفاه مزمومه بشدة. ودَفَعَ حاجز القصب عن النافذة وخَبَطَ بمروحته على الجزء العلوي من المحفة بلا انقطاع، وجاءت خبطة خاطئة من المروحة على رأسها. ثم رُفعت البالانكوين وحُملت إلى الباب، أما أختي فجلست داخلها بسكينة على نحو غريب؛ إذ في تلك اللحظة التي فُتِحَت فيها النافذة تلاشى خوفها - إلى الأبد.

وصلوا إلى الباب. وأنزلت البالانكوين على الأرض. وسوعدت أختي على الترجّل منها، وعندما دخلت منزل حياتها، أكمل صوتان لعجوزين أغنية الزفاف بكلمات الترحيب:

على البحر

قارب شامخ الشراع

يبحر نحو القمر العالي

على موجات المد المتدفق يُقبِلُ

ظلُّ الماضي يمضي بعيدًا

والقارب يُقبِلُ أقرب - أقرب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحو شاطئ يسمى «حياة سعيدة».

---

(18). في الهند والشرق، محفة مغطاة لراكب واحد، تتكون من صندوق كبير يحمل على عمودين أفقيين بواسطة أربعة أو ستة حاملين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دمية المسرح

حين كنت في الثانية عشرة من عمري، وفي أول يوم من عيد أورا بون(19)، أحضرت لي إيشي حلية شعر جديدةٍ ووضعتها أمام الربطة الفراشية على شعري. كانت على هيئة درع فضي وسط مجموعة من الزهور الفضية الصغيرة المبعثرة، فكوّنَ شعري الأسود اللامع خلفية عاكسة لجمالها الشديد.

قالت إيشي: «إنها هدية أرسلتها لك الأم المحترمة ييدو جراند، يا لجمالها لقد أوعزت بصنعها من العملات القديمة المذابة».

وجهت وجهي اتجاه طوكيو، وانحنيت انحناءة شكر صامته للمانحة الكريمة الغائبة التي لا أعرفها. ومنذ أن وعيت وأنا أتلقى هدية سنوية جميلة منها في كل مهرجان أورا بون، والذي يقام في منتصف الصيف، أدركت بطريقة مبهمة أن لعائلتي صلة وثيقة بها لكني لم اشغل تفكيري بالأمر. لكل الفتيات الصغيرات جدات. البعض له جدتان والبعض أكثر. وبينما لا تعيش الجدات من جهة الأم مع أسر بناتهن إلا أن أم الأب وجدته يسكنَّ معه في الغالب. ولطالما كان لكبار السن منزلة ومكانة جليلة عالية، فوجودهم يمنح الأسرة الشرف، فيطلق اسم «الدار المُشرّفة» على منزل الابن الذي يرعى ثلاثة أجيال من آبائه.

أورا بون أو (الترحيب بالأرواح الزائرة) هو عيد نحتفل فيه بالزيارة السنوية لـ «هو سوهاري ساما»، وهي عِبَارَة ترمز لأرواح كل الأسلاف، ومن أحب المناسبات إلى قلوبنا. تجدد هذه الزيارة السنوية عرى المحبة والوداد بيننا وبين الراحلين في قلوبنا جميعاً.

للتحضير لاستقبال «هو سوهاري ساما» كان جل ما يُكترث له يتمثل في النظافة والبساطة. فكل شيء يتم بطريقة بدائية غريبة، ولم يتغير قيد أنملة عن مهرجانات بون في الماضي، إذ ينهمك الكل في العمل لعدة أيام. يقوم جيا بمساعدة رجل آخر بقطع الأشجار والأسيجة، وتكنيس الأرض، حتى تحت المنزل، وغسل الممشى الحجري في الحديقة بعناية. وإخراج الحصائر الأرضية وجلدها بعصي

الخيزران لتخليصها من الغبار، في غضون ذلك تقوم كل من كين وتوشي، بضرب الشوجي(20)بمنافض غبار ورقية فيتردد صوت «باتا باتا(21)» في الأنحاء، ويفركن أرضيات الشرفة المصقولة بأقمشةٍ مغليةٍ يتصاعد منها البخار. ويمسحن كل شيء خشبي في المنزل بقطعة قماش وماء ساخن، كألواح السقف العريضة، والقضبان البيضاء الصغيرة التي تتخلل الأبواب الورقية، والمراوح المنحوتة، والعمود الذي يشبه المرآة والتوكونوما؛ وإصلاح كل كسر صغير في شوجي ورق الأرز، وفي النهاية يصبح المنزل بأكمله، من السقف إلى صندوق الجليد الموجود أسفل الأرضية، نظيفًا قشيبًا مثل مياه الأمطار المتساقطة من السماء.

جلبت أمي من المستودع كيمونو قديمًا نادرًا، واحد من مدخرات أبي الثمينة، عُلّق ثم وضعت كين تحته أجمل مزهرية برونزية تحمل تشكيلة كبيرة منتفشة من أعشاب الخريف السبعة - اللثيا والأسل واللبلاب والزهرية البرية، وثلاثة أنواع من زهور النجمة، الأرجوانية والصفراء والبيضاء. معظمها عبارة عن أزهار، إلا أن اليابانيين يعتبرون جميع النباتات ذات الأوراق الرفيعة التي تشبه النصل أعشابا.

مثّل الركن المقدس مصب الاهتمام الأكبر من كل شيء آخر، حيث سيحل الضيف الروحي ويقيم طيلة أيام الزيارة. كان جيا قد بكّر بذهابه إلى البحيرة قبل الفجر ليحصل على أزهار اللوتس، إذ لا يهب «النسيم» الذي يفتّح البراعم الخضراء الباهتة فيظهر جمالها الثلجي إلا مع مستهل أول شعاع للشمس. أفرِغَ الركن المقدس ونظف قبل عودته، ونُض الغبار عن تمثال بوذا البرونزي بتبجيلٍ واحترامٍ وأعيد إلى مكانه على زهرة اللوتس المطلية بالذهب. ومُسح اللوح الذي يحمل أسماء الأجداد بكل حرص ومعه صورة والدي، التي أبقتها والدتي هناك دائمًا. ومُلِءَ فانوس «النور الأبدي» النحاسي المزخرف بالتخريم بزيت بذور اللفت. ورُتب كل شيء في مكانه: مبخرة البخور، والشمعدان، والكتب المقدسة، ومسابحنا. وفُرك الطبل الخشبي القبيح ذو فم السمكة(22) -الذي يعد صورة نموذجية عن وضع المرأة الخاضعة- حتى عاد لونه بنيًا براقاً. ثم فرش جيا الأرضية أمام الركن المقدس ببساطٍ جديدٍ بسيطٍ منسوج من عشب الأسل، ووضعت على كلا الجانبين مزهرية تحمل باقات من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعشاب الخريف السبعة.

أكثر ما كنت أتلهف له هو الجلوس مع جدتي الجليلة أمام الركن المقدس لمساعدتها في إعداد زينة الاستقبال، لطالما أحببت ذلك. يبدأ الأمر بأن تحضر إيشي وتوشي بعض الخضروات ذات الأشكال الغريبة من الحديقة، وحفنةً من سيقان القنب المجففة التي يزال منها اللحاء، وياردات من السومن - نوع من النودلز اللينة والمرنة. لصنع العديد من الخيول والجواميس؛ تأخذ جدتي الجليلة إحدى حبات الخيار ملتوية العنق، حيث يشكل أحد أطرافها شيء مثل رأس مرفوع، فتجعله حصانًا، باستخدام حرير الذرة للبدة والذيل، وسيقان القنب للأرجل الصغيرة القوية. ومن حبة باذنجان صغيرة منتفخة، تصنع جاموسًا مائيًا، بقرون وأرجل من قنب، وتقوم بلف بعض من النودلز الجافة قليلًا لعمل لجام لكل الحيوانات الصغيرة، وتضعها في الركن المقدس. وبينما كنا نعمل، جلب جيا بعض أوراق اللوتس الصغيرة، التي بدأت حوافها بالجفاف حتى غدت كأطباق مقعرة صغيرة، ونوع جديد من الفاكهة على شكل كرات صفراء وحمراء صغيرة جدًا، والتي بت أعرفها الآن، إنها الطماطم.

بعد أن ملأت إيشي أوراق اللوتس بالخضروات وكل أنواع الفاكهة باستثناء (الخوخ ذو الفرو)، قامت جدتي الجليلة بلف النودلز على الجزء العلوي من الركن المقدس كسلاسل متدلية بديعة، وعلقت عليها حبات صغيرة من الباذنجان الأرجواني والطماطم الأصفر والأحمر تاركةً مسافةً قصيرةً بين الحبة والأخرى.

وبعد ذلك أحضرت إيشي سلم المطبخ، وصعدت عليه، وعلقت فانوس بون الأبيض عاليًا فوق كل شيء. كان مجرد مكعب ورقي زين بضفيرة ورقية تنتهي بشراريب؛ إلا أنه ما إن أسرِجَ حتى بدأ يدور بلا توقف، فبدت الشراريب الورقية وهي ترتفع وتنخفض وتلوح، كأنها سرب من الطيور الصغيرة المرفرفة، كانت بديعة الجمال.

فقدت أشكال الزخارف والحيوانات والخضروات الصغيرة الظريفة أهميتها في غشاوة السنوات الماضية، لكن أطباق أوراق اللوتس بقيت لأن اللوتس زهرة مقدسة. يروي الكتاب المقدس البوذي قصة تعرض بوذا للغواية عندما كان يعيش كناسكٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على جبل الثلج.

كان جالسًا في حالة تأمل، ذات يوم، في ساعة الفجر، عندما سمع أغنية عذبة عجيبة. وبينما كان ينصت مذهولاً، تسلل الفرح إلى وجدانه، ففي نغمات ذلك اللحن تكشف له رويداً رويداً سبيل الخلاص.

توقفت الأغنية بغتة. خيم الصمت على المكان، ثم لبث ينتظر سدى. أسرع بعدها نحو شفير الهاوية، حدق في الوادي فرأى فيه عبر الضباب شيطاناً قبيحاً وجّه وجهه المستهزئ شطر النبي الملهوف. توسل بوذا باستماتةٍ كي يحظى ببقية الأغنية، لكن الشيطان قال له أنه لم يعد يقوى على غناء المزيد حتى يشبع عطشه وجوعه بدم ولحم بشري. عندها سيترنم بالترنيمة الصوفية، إلى أن تصل معرفة الخلاص إلى البشرية جمعاء. فصرخ بوذا بشغفٍ «ارو عطشك من دمي واشبع جوعك من لحمي؛ لكن واصل غناءك حتى تخلص كل نفس! » وتلاشت إلى العدم حينها أغلى رُؤاه بأنه هو بنفسه من يتعين عليه أن يحمل الرسالة إلى العالم، فنزع رداءه ونهض من الصخرة. أضاء وميض مفاجئ من أشعة الشمس الوادي ولمس مياه البحيرة حيث كانت زهرة لوتس ببرعمٍ وحيدٍ لم يتفتح بعد عائمة باسطة أوراقها. انشق البرعم فجأة، حين تلاشى النبي المقدس، وفي بتلات اللوتس الثلجية غاص وبكل دعة المرء الذي كان سيقدم لأكثر من ثلث العالم إيمانًا صادقا، أصدق من أي إيمان بلغوه.

يُطلق على الجزء النافر من زهرة اللوتس حتى اليوم، اسم يوتينا، وهو ما يعني «المقعد»، وأمام كل مزارٍ بوذي لابد أن تجد أزهار اللوتس، سواء كانت طبيعية أو اصطناعية.

تهيأنا جميعًا قبل غروب الشمس بقليل، عند ساعة الشفق المنتظرة لنتلقى مرحبين، «أوشيرا ساما» الشخصية الغامضة وغير المجسدة كما يصفها الجميع، القادمة على جواد أبيض من «أرض الظلام وشواطئ المجهول ومقام الموتى».

كنت أترقب بلهفة زيارة أرواح الأجداد على غرار كل الأطفال، بيد أن وفاة والدي، ضاعفت لهفتي لهذا اليوم، وحين اجتمعت عائلتي عند الركن المقدس تسارع خفقان قلبي شوقاً. ارتدى الجميع ملابس جديدةً وبسيطةً غير مكلفة، حتى الخدم. وحين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جنّ الليل، أضيء فانوس الركن المقدس، وأزيح الشوجي جانباً، وشرّعت أبواب المدخل؛ وأصبح الطريق سالكاً بلا عائقٍ من البوابة الخارجية حتى الركن المقدس. حينئذ باشرنا بالسير، اثنان، اثنان، اجتزنا الباب المفتوح وعبرنا القاعة، ثم نزلنا من درج مدخل «خلع الأحذية» وعبرنا الممر الحجري الطويل نحو بوابات المدخل الكبيرة، التي كانت مفتوحة على مصراعيها. في وسط الردهة، وضع جيا كومة صغيرة من سيقان القنب -ثلاثة عشر ساقا- حول كومة صغيرة من العشب المجفف المنتفش. حين وصلنا عندها، افترقنا، سار جيا ويوشيتا على أحد جانبي الطريق، وعلى الجانب الآخر سرت أنا وجدتي الجليلة وأمي وإيشي وكين وتوشي. وهناك، بكل احترام، أحنينا رؤوسنا وانتظرنا. كان أخي في طوكيو، لذا قامت جدتي الجليلة، بمساعدة من إيشي، بإشعال نار النقاء بالصوان والصلب، وأنار الشرار المتطاير سيقان القنب فصيّرها إلى شعلة ترحيب واحتفاء.

غرقت المدينة بأكملها في الظلمة والصمت، إلا أن مئات من الحرائق الصغيرة المتفرقة، اتقدت عند كل بوابة. وانحنيت، فإذا بصَبابَة قلبي تجتذب والدي إلي. استطعت سماع الصوت الخافت للحوافر السريعة من بعيد، وعرفت أن الجواد الأبيض يدنو. وكانت لحظةَ اتقاد نيران جذع القنب تتلاشى. لامست رياح آب الخفيفة الدافئة خدي، وتسلل السلام إلى روحي. حينها، نهضنا ببطء وسرنا للخلف برؤوس منحنية، على الحواف الخارجية للممشى، اثنان اثنان، لكنْ متباعدان وتاركان حيزاً فارغاً للمرور المقدس بيننا. وعند وصولنا إلى الركن المقدس، دقت أمي الناقوس وانحنينا مرحبين بالفرحة والحبور وواسع الحفاوة لزائرنا العزيز. لقد بدونا قلة قليلة منذ العام السالف، فكم رحبت قلوبنا بحرارة بالحضرة التي أيقنا أنها ستجلب لدارنا السعادة وتذهب عن قلوب ساكنيها الحزن.

امتلأت المدينة بالفوانيس في اليومين التاليين، وزُيِّنت المنازل بها والشوارع، وحملها كل واحد منا، ووضع فوق كل قبر فانوس صغير أبيض يتأرجح من قوس مصنوع من سيقان عشب الأسل، وفي الليل امتلأت المقابر بأضواء الحباحب المتوهجة.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

لقد كان أوان لفرح اليابان بأكملها، ويومًا مستثنى من العام لم تسلب فيه روح حياة واحدة من المخلوقات لا الأسماك، ولا الطيور ولا حتى الحشرات. تسكع فيه الصيادون لا يحملون هما ولا يلوون فيه على شيء، مرتدين ملابس العطلة، ورقص الدجاج وصاح في أقفاصه المصنوعة من الخيزران، وصراصير الليل الصغيرة، التي يهوى الصغار عادة حبسها في أقفاص صغيرة، غنت أغانيها النشاز على الأشجار حرة طليقة لم يمسها طفل. ومدت الأيادي بالجود والإحسان إلى أبعد حد. وحتى الكهنة توقفوا اليوم عن جمع التبرعات فلم يَطُف واحد منهم بِوِعَائِهِ الفارغ؛ وملئت سلال صُنعت من نبات الحلفا بالطعام وخبئت تحت أوراق اللوتس بين القبور، ليأخذها الفقراء حينما يحين إشعال فوانيس البون؛ بل وحتى العصاة في جهنم، إن تاقوا للخلاص في هذا اليوم، منحوا فرصة أخرى خلال أيام الرحمة، أيام بون.

سادت أجواء الفرحة والضحكات السعيدة بيتنا، ونحا ساكنوه لأفعال الخير. لأننا أحسسنا أن زوارنا الطيبين هَنِئوا بالأطايب المتواضعة من ملابس جديدة، ودماثة أخلاق الحاضرين، ومأدبتنا اليومية في الركن المقدس المكونةِ من الفواكه والخضروات وزلابية الأرز. ازداد وجه جدتي الجليلة سكينةً كل لحظةٍ، وأشرق وجهُ أمي بابتسامةِ رضا، وكان الخدم يثرثرون ويبتسمون طيلة الوقت، وامتلأ فؤادي سعادةً وطمأنينةً.

ببزوغ فجر اليوم الرابع، راح جيا ليحضر أزهار اللوتس في العتمة التي تسبق انبلاج الضوء، ووضعت أمي طعامًا طازجًا عند الركن المقدس. وحين تشاكست نسمات الصباح الأولى الخارجية مع ضوء الفانوس الأبيض الخافت بالداخل، اجتمعنا للوداع.

كانت الأيام الماضية أيامًا سعيدة. أعتقد أن الحزن استولى علينا جميعا حين انتصبت أمي من انحنائها الطويل، رَفَعَت بساط الأسل من أمام الركن المقدس. قامت بطيه وترتيبه، ثم ربطت أطرافه بالخوص، فشكلته على شكل زورق بسيط صغير، وثبتت قوسًا من جذع القنب في المركز. ووضعت أطباق الطعام المصنوعة من أوراق اللوتس بداخله، وأضافت بعض كرات الأرز والعجين النيئ، كهدية من

«أو شيرا ساما» للطيور. ثم وضعت كل دمى الخضروات الصغيرة وكل زينة الركن المقدس، وعلقت الفانوس الأبيض في القوس. حمل جيا الزورق الصغير إلى النهر، وتبعناه أنا وأمي، ومن خلفنا إيشي وتوشي.

كان الصباح قد بزغ لتوه، لكن الشوارع امتلأت بالناس وازدحم الجو بالطيور المحلقة وكأنها علمت أن هناك وليمة تنتظرها. ولما وصلنا، أخذنا جميعًا أماكننا على الجسر، عدا جيا الذي راقبناه يشق طريقه نزولاً عبر الدرج الزلق الذي شق في المنحدر، وانضم إلى الحشود في الأسفل. حَمَلَ الجميعُ زوارق صغيرة عُبِّأت بالطعام وتدلت داخلها فوانيس صغيرة تتأرجح.

همست إيشي، «انظري»، بينما كان جيا يرفع يديه ليضرب الصوان والفولاذ لإضاءة فانوسنا الصغير، «سيغادر أسلافنا الكرام مع أول موجة دافئةٍ بأول شعاعٍ لشروق الشمس».

لم يقطع الصمت سوى صيحات الطيور الصاخبة، حينها بزغ شعاع من الشمس مفاجئ عبر جبل بعيد فانحنى مئات الأشخاص وأطلقوا الزوارق الصغيرة. وقفوا جميعاً يراقبونها وهي تدور وتنجرف في وسط عاصفة من الطيور المندفعة التي تزعق شكراً، واحداً تلو الآخر.

قالت سيدة عجوز: «رحل شوراي ساما، إنه في الأرض المجهولة الآن!»، وكفت عن الانتظار، اعتلت الضفة وشقت طريقها إلى دارها برضى.

مع إشراق ضوء النهار، صار بوسعنا رؤية القوارب الصغيرة من بعيد تعلو وتهبط، والفوانيس البيضاء الصغيرة تتأرجح جيئة وذهابًا. انتظرنا حتى تشرق الشمس. فيما بعد، حين انبجس الضوء من جانب الجبل، صدرت عن الحشود المنحنية على طول الضفاف همهمة كالطنين.

«وداعا يا شوراي ساما»، همسنا بلطف. «عُد مرةً أُخرى في العام المقبل. سنكون في انتظارك مرحبين».

تفرقت الحشود، بوجوه راضية، ويممت نحو ديارها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشيت أنا وأمي بسعادةٍ، وإيشي وتوشي وجيا يتحدثون بسرورٍ خلفنا. اختفت من على وجه أمي نظرة الهم خلال الأيام القليلة الماضية ولم ترجع ولم تعد، فأحسست أن أبي كان معنا حقًا ليجلب لنا الراحة والمساندة؛ والآن رحل تاركًا وراءه السلام بدل الوحدة.

كانت إيشي تزيل الحلية الفضية من على شعري بعد ظهر ذلك اليوم، حينما أشارت إلى شعار منقوش على الدرع الفضي الزاهي وسط الزهور، حيث كانت حوافه المثلّمة تتلألأ كأنها جواهر.

قلت: «إنه ليس شعار إيناجاكي».

قالت وهي تغلق الصندوق الصغير وتضعه جانباً: «لا، إنه شعار ميلاد الجدة ييدو المحترمة». «إنه عمل رائع للغاية. كل ما أهدتك إياه الجدة ييدو المحترمة هو جميل أو نادر بشكل خاص.

قلت: «لا ترسل الجدة الموقرة ييدو هدايا لوالدي ولا لوالدتي بتاتًا».

أجابت إيشي: «نعم هي لا ترسل لأحد غيرك، وهي تتذكرك دائمًا في عيد الاحتفاء بالأسلاف وتكريمهم».

تذكرت بعد ذلك بوقت طويل أن تعجبًا خافتًا مر في ذهني في تلك اللحظة؛ إذ أنني الفرد الوحيد من الأسرة الذي يتلقى هدايا من الجدة الموقرة ييدو، بيد أن تعجبي لم يدم سوى لحظة واحدة؛ فنادرًا ما يسأل الطفل الياباني عما لا يُخبر به، وثمة أمور كثيرة في الحياة اليابانية مسلّم بها. لم أشغل بالي بالأمر على أية حال.

لم أعلم إلا بعد أن كبرت، أن الجدة الموقرة ييدو هي جدتي لوالدي، وأن جدتي العزيزة الجليلة، التي أدين لها بالكثير، كانت في الواقع جدة والدي.

عندما توفي جدي فجأة، ليصبح أبي وريثًا له في سن السابعة، أصبحت جدتي الجليلة سيدةً لمنزلِ ابنها المتوفي وأمًا لطفله. بيد أن عدم بقاء الأرملة الشابة، أم أبي، في منزلها -منزل زوجها المتوفى-، كان بسبب نُظُمنَا العائلية وإحدى مآسيه، والذي، قد يكون مناسبًا للحقب الماضية، إلا أنه أسفر عن العديد من المعضلات

المتوقعة طبعًا في مثل هذه الحالات؛ حين يتقدم العالم بسرعة كبيرة وتتخلف العادات عن الركب.

لم يكن الإصلاح في عام 1868(23) حدثًا مباغتاً. بل كان هناك اضطراب سياسي لسنوات قبله، أدى إلى تقسيم الناس إلى فصيلين - أولئك الذين رأوا أن القوة الإمبراطورية عليها تحمل كلا من الواجبات المقدسة والعلمانية، وأولئك الذين رأوا أن الشوجون، كحاكم عسكري، يجب عليه أن يتولى جميع الأعباء الوطنية من على أكتاف الإمبراطور المقدس.

كان جدي مؤمنًا باستعادة الإمبراطورية للحكم، لكن صهره والد زوجته، كونه كان هاتاموتو أي الحارس الشخصي للشوجون فكان، بالطبع، ضد الحكم الإمبراطوري ومدافعاً قوياً عن الحزب المعارض. ورغم وجود رابط من الصداقة بين الرجلين، إلا أن كل منهما كان مخلصاً بشدة لمبادئه ولسيده.

توفي جدي فجأةً عندما كان في طوكيو وكانت تسمى إدو آنذاك، في مهمة رسمية. قيل إن مرضًا شديدًا داهمه على حين غرة بطريقة غامضة بعد أن عاش ترفيها عظيمًا في قصر والد زوجته. وكان قد حضر المأدبة عدد من السياسيين المتحمسين. واتضح لاحقًا أن جدي كان مدركًا للأهمية السياسية لذاك التجمع، إذ تبين بعد وفاته، أنه ذهب إلى المأدبة مرتديا تحت لباسه الاحتفالي المعتاد رداء الموت الأبيض.

كانت روح اليابان حينئذ تنتفض اضطرابًا وكانت تضغط بشدة على الوضع القائم، ولكن أحداثاً كتلك لم تكن نادرة الحدوث في الماضي إذ أن مساءلة سلطة سادت لقرون هو حدث متوقع، مثلما أن تقبل جدي الجلي لمصيره لم يكن أمرا نادرًا أو غير عادي. بل كان ولاء الساموراي لقضية ما، وشجاعته في قبول الهزيمة متوقعا أيضًا. نعم تتباين المعايير من منطقة إلى أخرى، ولكن يُنتظر منا -أفراد الساموراي- الإخلاص والشجاعة في جميع الأحوال.

بيد أن تلك المأساة عانت منها الزوجة الشابة - جدتي، التي بالكاد تعدت العشرين سنة بقليل حين ترملت. كانت لتصبح الأرملة المبجلة للوريث البالغ من العمر سبع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنوات - والدي في ظل الظروف العادية، ولكن بسبب الحدث المُدرك جيدًا على الرغم من تجاهله ظاهريًا، لم يكن هناك سوى شيء واحد يجب أن تفعله هذه المرأة ذات الأنفة والتي عانت الذل. وسواء أكانت تضحيتها في سبيل تطلعات والدها، أو ولائه، لا أدري، لكنها «تنازلت بتواضع» عن عائلة زوجها، وغيرت اسمها من إيناجاكي إلى اسم ما بعد الوفاة، وعادت إلى منزلها السابق. ووفقًا للمثل العليا في ذلك الوقت، كان موقفها الموقف الأكثر إذلالاً الذي يمكن لأي امرأة من الساموراي أن تتخذه. لقد أُحتُقِرَتْ كما يُحتَقَر جندي مضى متحمسًا إلى ساحة المعركة وعاد قبل خوض غمارها جبانًا إلى منزله.

عاشت الأرملة الشابة حياة هادئة لبضع سنوات في منزل والدها وخصصت وقتها للأدب الكلاسيكي والتحصيل الثقافي؛ ثم عُرض عليها منصب مهم كسيدة مسؤولة في قصر دايميو ساتسوما.

كانت تلك الفترة التي لعب فيها ساتسوما دورًا بارزًا في التاريخ. كان هذا الدايميو هو الذي تحدى، بمفرده، السرب البريطاني الشرقي بأكمله، بعد أن قام ساموراي شاب من العشيرة بقتل السيد ريتشاردسون، التاجر البريطاني الذي اجتاز بجرأة موكب احتفالي للدايميو. كان ساتسوما أقوى دايميو في اليابان، وكان قصره، مثل كل قصور أصحاب الرتب العالية خلال أيام الإقطاع، مقسما إلى قسمين متمايزين: قسم يختص بالدولة وقسم يختص بالمنزل. كانت إدارة المنزل تخضع بالكامل لإدارة النساء المسؤولات. وفي القصور الكبيرة التي بها العديد من الخدم، كان شرطًا على هؤلاء المسؤولات أن يتمتعن بالكفاءة شأنهن شأن مسؤولي وزارة الخارجية -في العصر الحديث-. وقد احتلت جدتي مكانًا مشرفًا بين هؤلاء الأتباع القديرين.

وسرعان ما اتضحت سماتها المميزة واختيرت لتكون مربية للأميرةِ الصغيرةِ، وهو المنصب الذي شغلته حتى غدت الأميرة عروسًا وأصبحت تحتاج لمعلمات أُخريات لتدريبها على المهام والمسؤوليات الزوجية. ثم سُرِّحتْ جدتي من عملها«بشرف» مستحق وبتقاعد سخي لمدى الحياة، وكان هذا الوداع مكتوبًا بعبارة شعرية «يا للأسف توارى البدر خلف طيات السحاب، غير أنه ترك في أثره شعاعًا من نوره عمّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضياؤه المكان بأكمله، ليبقى لنا ذكرى أبدية لطيفة ودائمة».

لم أر جدتي ييدو المحترمة ببصري قط، لكن بوسعي أن أراها دوما بوجداني. كانت تعيش في أكبر قصر دايميو في اليابان، محاطة بالثروة والرفاهية وباحترام ومودة الأميرة الشابة المحبوبة، وفي أوج تمتعها بتقدير واحترام من حولها لثقافتها وحسن سجاياها، إلا أنني أشعر ببالها المنشغل بحفيدتها الصغيرة التي لم تلتقيها ولا رأتها قط. ربما ليس إعلانا عن حبها، رغم أن تفكيري باحتمالية ذلك يستهويني.

لقد سلبت منها حياتها الأسرية بلا جريرة، بيد أن قلبها تعلق تعلقًا راسخًا بواجب أعفيت منه؛ فمدت يدها بلا تردد - منتهجة خلق الساموراي- لتتواصل. ظلت، طيلة حياتها، ترسل بإخلاص كل عام شيئًا واحدًا من أعز مقتنياتها الشخصية لحفيدتها الصغيرة التي قيل إنها تشبهها، حتى بشعرها المجعد، لترتديه حين تتلقى بحفاوة وترحيب أرواح عائلة إيناجاكي التي لم تعد تستطيع الانحناء لها، ولكن لمن كان واجبها تجاههم مستحقا. كان عجزها مأساة، وسعيها تأسيًا. إلا أنها كانت صادقة حتى المنتهى، وذلك خير لها.

يختلف مفهوم الواجب من قطر لآخر، أما اليابانيون فلا يتوانون عن تلبية ندائه أبداً. فكم من فتيان وفتيات لم يصلوا لعمر البلوغ بعد هاجروا بمفردهم إلى مقاطعات بعيدة، وكم من رجال ونساء في عنفوان الشباب، وكم من مسنين، سلكوا ذات السبيل ليكونوا غرباء الجسد والعقل والروح. بيد أنهم إذا قصروا في واجباتهم فإنهم حتى وإن تمتعوا بصفاء حياتهم، فلا شيء يمكنه أن يحلّ انشغال بالهم وتعلق قلوبهم بالتوق إلى إنجاز ما فاتهم ولو شيء منه. هذه هي روح اليابان الخفية.

عندما ودعت الأميرةُ الشابةُ جدتي، منحتها، كأعلى عربون تقدير للامتنان والعطف، شيئًا ارتدته هي نفسها - ثوبًا يحمل شعارها الخاص. وبعدها بسنوات عديدة وقت احتفالنا بعيد بون عندما كنت في العاشرة من عمري، أرسلت لي جدتي هذا الكنز المختار. أتذكر ذلك اليوم جيدًا. أخذتني إيشي إلى غرفتي لأرتدي ملابسي في أمسية الترحيب من أمسيات العيد. عُلّق فستان صيفي جميل فوق أحد الإطارات الكبيرة المطلية بالورنيش التي نضع عليها ملابسنا لتعريضها للهواء أو لننتظر حتى

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

نجهز. صنع الفستان، من الكتان الأزرق الباهت وزين بتصميم رائع لأعشاب الخريف السبعة. بدا لي أنه أجمل شيء رأيته في حياتي.

صرخت: «أوه، إيشي، هل هذا الثوب الجميل لي؟»

«نعم لك يا اتسو بو سما، أرسل لك من عند الجدة يبدو الموقرة من أجل العيد» .

كان مقاسه كبيرًا جدًا بالنسبة لي وكان على توشي أن تأخذ من ثناياه عند الكتفين والخصر. ولما ارتديته ذهبت لأريه لجدتي وأمي المحترمة، ثم ذهبت إلى غرفة أبي.

صحت وأنا راكعة خارج الباب المغلق وجاهزة لفتحه: «لقد جئت!»

جاء الرد من الداخل: «ادخلي!»

دفعتُ الشوجي للخلف. كان أبي يقرأ. رفع بصره وابتسم. ثم تملكتني الدهشة حين رأيته ينسلُ من وسادته بسرعة، بعد نظرة واحدة إلي، ويهتف باحترام وتواضع وبطريقة مسرحية، «تفضلي أيتها الأميرة ساتسوما» ثم يركع بإخلاص.

أحنيت رأسي الصغير إلى الأرض فورا بالطبع، ورغم أنني وجدته يضحك لما رفعت رأسي، ما زلت أشعر، بطريقة خفية، أن هناك شيئًا أعمق تحت ابتسامته من مجرد امتثاله الفكاهي بالطاعة لشعار عشيرة متفوقة: فخرٌ ممتزجٌ بأسى، وربما وجعٌ أيضًا - كوجعٍ شديدٍ في قلبِ رجلٍ باسلٍ، عجزتْ ذراعُهُ عن حمل سيفه.

---

(19). عيد بوذي ياباني يقام سنويًا في أغسطس للاحتفال بزيارة أرواح الأسلاف.

(20).شوجي، في العمارة اليابانية، هي أبواب ونوافذ خارجية منزلقة مصنوعة من إطار خشبي شبكي ومغطاة بورق أبيض متين وشفاف.

(21). صوت شيء خفيف ورقيق مثل مروحة تتحرك في الهواء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(22). «السمكة الخشبية» هي آلة قرع مصنوعة من كتلة خشبية مجوفة يستخدمها في الأصل الكهنة البوذيون لدق الإيقاعات عند ترديد الكتب المقدسة.

(23). عهد إصلاح ميجي تغيرت خلاله اليابان بشكل جذري سياسياً، واجتماعيا، وبدأت فيه الصناعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوم الطائر

بعد مضي عام على رجوع أخي زادت وتيرة تلقيه الرسائل من صديقه. ومع تلقيه كل واحدة منها، خاض أخي جدالاً مع أمي وجدتي، وكانت وجوههم تكفهر من ذلك. انتابني إحساس مبهم أن ثمة أمرا يخصني وراء تلك النقاشات. حدثت ذات مرة مشكلةٌ صغيرةٌ فخرج أخي على حين بغتةٍ منهيا النقاش الطويل بانحناءة سريعة وهو ما يعد فظاظةً منه. اتَّجه نحو الباب مسرعاً، ثم التفت عائداً نحوي ووقف يحدق بي لبرهةٍ، ثم مضى بدون أن ينطق بكلمة. وصلت رسالة ثقيلة الوزن بعد عدة أسابيع وعليها عدة طوابع، وعقب حديث طويل في غرفة الجدة، أرسل أخي جيا بصندوق طويل مصقول مربوط بشريط، كنت أعرف أنه يحمل «رسالة جوالة» لجميع الأقارب، والتي على جيا أن يجول بها بين الأقارب من مكان لآخر منتظراً أن ثقراً ليأخذها للمكان التالي. في ذلك المساء لاحظت الهم يعتري صمت أمي. وجدتي جالسة قرب مدفئتها عابسة يخيم عليها الصمت وغليونها الطويل النحيف في يدها. لا يتسع الغليون لأكثر من ثلاث نفثات، ومن عادتها أن تضعه بعيداً بعد إعادة ملئه مرتين، لكنها بدت حينها وكأنها نسيته ومكثت ممسكة به لفترة طويلة. وفي اليوم التالي عقد اجتماع لمجلس العائلة.

إنه عرف عريق عند اليابانيين أن يعقدوا اجتماعاً لكبار العائلة للبت في المشاكل التي تطرأ.

شَهِدتُ العديدَ من مثل هذه الاجتماعات منذ أن وعيت. لكن لم يكن يُسمح لي بالمشاركة فيها كوني الفرد الأصغر في العائلة إضافة لكوني فتاة.

لم أعر الأمر أي اهتمام ولم يدر بخلدي أن الأمر مختلف هذه المرة، إذ ظننت أن الأمر لا يعدو أن يكون بيعة أرض أو لوحة كما عهدت نوعية المسائل التي تطرح طيلة حياتي. دأبنا أنا وأختي على مراقبة جيا مصطحبا معه بائع الأشياء المستعملة يدخلان ذلك المخزن فنلعب لعبة تخمين ما إذا كان سيخرجُ حاملاً رزمةً صغيرةً في يده أم طردا كبيرا على كتفيه! وفي العادة يستولي القلق على أمي حين يأتي عدد من الرجال لمعاينة الأغراض المزمع بيعها. في حين أن أبي سيضحك ساخراً ثم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعلق: «في الأيام الخوالي كان يُحتفى بالأشياء الجميلة وإن كانت بلا نفع أما هذه الأيام فلا يبحث الناس سوى عن النافع من الأشياء وإن كان بشعاً». إلا أن هناك شيئا واحد لا يتندر والدي بشأنه بتاتاً، وذلك حينما يتعلق الأمر بمفاوضاتٍ على بيع الأرض فإنه يكون في قمة اليقظة. تقلصت بالتدريج الحدود الخارجية لأراضينا التي كانت واسعةً ذات يوم وعامًا تلو آخر تراجعت حدودنا إلى أن بلغت السور الخارجي؛ ثم ظلت تتراجع حتى أوشكت أن تصل للمنزل. لكن أبي لن يتخلى مهما يكن عن أي جزءٍ من الحديقة التي تطلُّ عليها غرفة جدتي. وظل أخي على حرص أبيه بعد وفاته؛ وهكذا ظلت الجدة ترنو ببصرها طوال حياتها نحو الحديقة والجدول، والمنحدر الصغير للأزاليات على خلفيةٍ من الخيزران الريشي كما اعتادت لسنوات طويلة.

كان ذلك الاجتماع العائلي، أكبر اجتماعٍ عقد منذ وفاة أبي. حضر كهلان من الأعمام مع العمات، بالإضافة إلى عمتين أخريين، وعم صغير تجشم عناء الطريق من طوكيو قاصداً الاجتماع. طال مكوثهم في الغرفة، وكنت مشغولة بالكتابة على مكتبي عندما سمعت صوتًا رقيقًا من خلفي يقول «هلّا سمحت لي بالتحدث؟»، التفت فإذا بها توشي واقفةً عند الباب، يغمرها الحماس.

قالت وقد انحنت انحناءةً مطولةً على غير المعتاد: «سيدتي الصغيرة تطلب منك والدتك الموقرة أن تذهبي إلى الغرفة التي يوجد بها الضيوف».

دخلت الغرفة الكبيرة. كان أخي يجلس بجانب التوكونوما، وبجانبه اثنان من أعمامنا الكهول والعم الصغير من طوكيو. جلست قبالته جدتي، وعماتيَ الأربع، وأمي. كان الشاي قد قُدِّم وأكوابه في أيديهم، وأمام البعض منهم. حين دفعتُ الباب إلى الخلف رفعوا رؤوسهم وحدقوا في وجهي كما لو أنهم لم يروني من قبل. انتابني قليلٌ من الدهشة، لكنني بالطبع انحنيت انحناءةَ ترحيب منخفضة. أشارت لي أمي، فانسللت إلى جانبها على البساط.

خاطبتني أمي بكلمات بالغة اللطف: «إيتسو-كو، لقد أكرمتك الآلهة، إن أخاك الكريم وأقاربك المحترمين أجالوا الفكر ملياً فيما يختص بمستقبلك وقرروا نصيبك كعروس. يجدرُ بكِ أن تعربي عن امتنانك لجميع الشرفاء». انحنيتُ انحناءةً مُطوَّلةً،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى أن لامست جبهتي الأرض. ثم قفلتُ عائدةً إلى مكتبي وكتابتي. لم أفكر في سؤالهم «من هو؟»، لم أفكر في أن مسألة خطوبتي مسألة شخصية، مطلقاً. لقد كانت شأناً عائلياً. وكنت متيقنة مثل كل فتاة يابانية، منذ طفولتي أنه في وقت ما، وبطبيعة الحال، يجب أن أتزوج، لكن الأمر كان ضرورة بعيدة سأحسب حسابها عندما يحين وقتها. لم أكن أتطلع إليه. لم أخش حدوثه. لم أفكر في ذلك بتاتاً. وليس لأني لم أكن أتجاوز الثالثة عشرة من عمري. إذ أن ذلك هو حال كل الفتيات.

أقيم حفل الخطبة الرسمي بعد بضعة أشهر. وهي ليست مسألة معقدة، مثل حفل زفاف، لكنها مهمةٌ للغاية؛ إذ اعتبرت الخطوبة في العائلات المتمسكة بالعادات القديمة، رابطةً مقدسةً مثلها مثل الزواج نفسه، وبالفعل لم يكن من السهل حل رباطها شأنها شأن رابطة الزواج.

سرى جو من الإثارة الصامتة في المنزل بأكمله ذلك اليوم. وعلّق الخدم، الذين أحسوا دائمًا باهتمام شخصي بكل ما يحدث في الأسرة، دمى من ورق مطوي على شجيرة نانتين بالقرب من الشرفة، ليضمنوا شروق الشمس، وكانوا مبتهجين بالنتيجة؛ وحتى أمي، التي كانت دائمًا أكثر هدوءًا حين يستبد بها الحماس، تحرّكت من مكان لآخر لتوجيه الأوامر غير الضرورية للعديد من الخادمات. سمعتها تقول لإيشي: «كوني حذرةً حين تضعين البودرة على وجه إتسو-كو سما». اتقني وضعه بسلاسة»، وعندما وصلت مصففة الشعر، عادت أمي إلى الغرفة مرة أخرى لتعطي أمراً بشد شعري ليستقيم.

بمجرد أن ارتديت ملابسي، ذهبت إلى غرفة جدتي لألقي التحية الصباحية. كانت ابتسامتها اللطيفة أرقّ عن المعتاد، وتحدثنا حديثا لطيفًا قبل الإفطار. وحين هممنا بمغادرة الغرفة ذكرتني أنه يوم الطائر.

قلت: «نعم، أعلم. تقام مراسم الخطوبة دائمًا في يوم الطائر. لكن لماذا يا جدتي المحترمة؟ »

قالت وهي تبتسم وذراعها تستريح على كتفي ونحن نسير خلال الشرفة: «لا يصيبك العجب بالنفس!»، ثم أردفت: «انتقى أقاربك هذا اليوم أملاً منهم أن يبارك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحظ السعيد حياتك بالحرير والديباج الوفير مثل ريش الطيور، مع طيب تمنياتهم لك بالبركة والحظ السعيد في حياتك».

وصل عم ماتسو العجوز، السيد أوموري، من كيوتو قبل أيام قليلة وتم استضافته في منزل الوسيط. كان يجب أن يتم الاحتفال صباحاً بدلاً من وقت زوال الشمس؛ لذلك وجدت الاجتماع منعقداً سلفاً منتصف الظهيرة، عندما ذهبت إلى أفضل غرفة، وجدتُ جدتي وأخي وأمي والوسيطان، والعم ماتسو جالساً باستقامة على وسادة بالقرب من التوكونوما. بدا وجهه سمحاً، وقد أعجبني. جلست بجانب أمي. ثم أحضرت لي المرأة الوسيطة طاولة بيضاء صغيرة فوقها قطعة مربعة من قماش الكريب، عليه شعار ماتسو. كانت هدية الخطوبة من عائلته، وكنت أنظر لأول مرة إلى الشعار الذي سأرتديه طيلة حياتي؛ لكنني لم أدرك ذلك بجدية حينها. وأُحضِرت صينيةُ أخرى تحملُ هدايا أخرى، أهمها زوج مراوحِ قابلةٍ للطي، رمزاً لتمنياتهم لنا بازدياد السعادة باطراد.

ثم أحضرت توشي إلى الغرفة صينيتين ووضعتهما أمام السيد أوموري. كانت تلك هدية عائلتي لماتسو.

أُخبِرْتُ قبلاً بما يتوجب عليّ فعله بلا شك، وشُرح لي بالتفصيل. لذلك رفعت مربع الكريب من طاولتي، وعرضتُ لفافةً من ديباجٍ رائعٍ لوشاح. وعلى طاولات السيد أوموري وُضِعَ زوج مراوحِ أساسي، وتنورةٌ حريريةٌ واسعةَ الطيات تسمى هاكاما - الرداء الرسمي للرجل الياباني. كانت هذه هدايا الخطوبة منذ القدم.

انحنيتُ انحناءةَ شكرٍ رسميّ، وقام السيد أوموري بالشيء نفسه. ثم وُضِعَتْ الهدايا على التوكونوما، وانحنى الجميع، حتى الجدة، وتمتموا، «مبارك!»

بعد فترة وجيزة، أحضرت الخادمات طاولات صغيرة لعشائنا، وَوُضِعَتْ طاولات السادة على جانبٍ واحدٍ من الغرفةِ وتلك الخاصة بالسيدات على الجانب الآخر. ثم أخذت توشي صينيتها واتُّخذتْ مكانها في الحيز المفتوح في نهاية الصَّفَّيْنِ، وقام كل شخص بانحناءة خفيفة، وبدأ العشاء. تداول المجتمعون حديثاً عاماً وبدا الضيوف مستمتعين بوقتهم، أما أنا فكنتُ رزينةً وهادِئة للغاية قطعاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الجزء الأكثر إثارة في اليوم بالنسبة لي بعد أن ذهب الجميع، حين كانت إيشي تساعدني على خلع ثوبي. ألقت نظرة على رأسي عن كثب وقالت:

«ما! ما(24)! إتسو بو سما»، «ليست بشعرك حتى خصلة واحدة مجعدة. لقد كان اليوم باردًا وجافًا من حسن حظك!»

تنهدت الصعداء، إذ لم يزعج شعري الجامح عائلتي مرة ثانية، ووضعت رأسي بعناية على وسادتي الخشبية الصغيرة واستغرقت في النوم برضا.

باتت حياتي بعد الخطوبة، ضرباً من ضروب ألعاب التخيل، لأن تعليمي مهارات الحياة الزوجية بدأ يومها بالذات. تلقيت سابقاً التدريب المعتاد في الطبخ والخياطة ومختلف الواجبات المنزلية، بالإضافة إلى تنسيق الزهور وتقديم الشاي وغيرها من الأعمال النسائية؛ والآن عليّ أن أضع هذه المهارات موضع التنفيذ كما لو كنت بالفعل في منزل زوجي. كان منتظرا مني أن أنتقي الأزهار المناسبة بدون مساعدةٍ، كما أنه عليّ انتقاء صورة لفيفة ملائمة وزخارف للتوكونوما، وعليّ أن أحرص على أن يكون المنزل منظمًا وفقًا لقواعد معينة طوال الوقت.

أصبحت كل لحظة من لحظات حياتي اليومية لحظة تدريب وتأهيل. لم يُشرح لي الهدف، لأن هذا التدريب كان جزءًا مفروغًا منه في كل خطوبة؛ لم يكن الأمر يستدعي تفسيرا خاصاً، باستثناء أنه عليّ توخي الحذر وعدم ازدراء أو تحقير نبات الحميض بأي شكل من الأشكال؛ لأن شعار آل ماتسو كان حميضًا. لم يتأثر نظامي الغذائي إطلاقاً بخطبتي، باستثناء أنه كان عليّ أن أتعلم كيف أحب سمك التونة، وهو الطبق المفضل لماتسو وما كنت من محبي التونة قبلاً. خضعت أختي لتدريب طويل قبلي، فقد دامت خطبتها خمسة أعوام، بما في ذلك سنة التأجيل بسبب وفاة أبي. وبما أن شعار زوجها المنتظر كان البرقوق البلدي، فإنها لم تتذوق البرقوق أبدًا، خلال السنوات الخمس، حتى في الهلام. كان يمكن أن يكون عدم احترام.

كان أصعب ما تعلمته ذلك العام هو كيفية خياطة وسادة للنوم. كنت أحب الخياطة وكنت ماهرة في استخدام الإبرة، لكنني لم أصنع شيئًا بنفسي مرةً أبدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقد حظيت بمساعدة إيشي أو توشي على الدوام. وقد كان واجبا على كل ربة منزل يابانيةٍ أن تعرف كيف تصنعُ الوسائد، لأنها كانت كراسينا وأسرتنا؛ لذلك قالت أمي إن عليّ أن أصنع وسادة نوم بمفردي. كان ذلك أمرًا صعبًا على أي شخص أن يُجيدَهُ، لذا تبللت أكمامي بدموعي البلهاء لما نَقَضْتُ الخياطة للمرة الرابعة وقلبت الوسادة الضخمة من الداخل للخارج، من أجل إصلاح الزوايا، والتي، على الرغم من جهودي المستمرة، ظلت ملتوية.

ومما يقع ضمن واجباتي، إعداد طاولة الظل لخطيبي الغائب في الذكرى السنوية وفي أوقات الأعياد. طهوتُ الطعام الذي أخبرنا أخي أن ماتسو يحبه أكثر في تلك الفترة. وُضِعَتْ مائدته بجانب مائدتي وحرصتُ أن تُحضَّر دومًا قبل مائدتي. وهكذا عُلِّمتُ أن أتيقظ لراحة زوجي المرتقب. كانت أمي وجدتي تتحدثان دائمًا كما لو كان ماتسو حاضرًا، وكنت حريصةً على ثيابي وسلوكي كما لو كان في الغرفة حقًا. وهكذا كَبِرتُ على احترامه وتعظيم موقفي كزوجته.

جل ذكريات ذلك الزمن هي أشبه بخيالاتٍ باهتةٍ تنبض بالفؤاد الآن، لكن ثمة ذكرى تبرز دائمًا بوضوحٍ شديد. لها علاقة بعيد ميلاد. لا يحتفي اليابانيون، كقاعدة عامة، بأعياد الميلاد الفردية. وإنما المعتاد بدلاً من ذلك هو الاحتفال بالعام الجديد باعتباره عيد ميلاد كل فردٍ من أفراد الأمة. هذا يعطي معنى مزدوجاً لذلك اليوم ويجعل من احتفال دخول العام الجديد أكثر احتفالات العام بهجة. لكن في منزلنا يُحتفى دائما بعيد ميلاد خاص، ميلاد ماتسو، وليس مجاملةً لي؛ وإنما لتلطفه بأخي، فمنذ أن علمت أمي عن ذلك، لم تُفَوِّتْ أبدا الثامن من يناير دون أن ترتب عشاءً منظماً وتجعل طاولة ماتسو في محل ضيف الشرف. حافظت أمي دائما على تلك العادة، وفي السنوات اللاحقة، حين بثُّ في بلادٍ بعيدةٍ، تذكرت وغشاوة تغشى عينيَّ طاولة عيد الميلاد في منزل والدتي في جبال اليابان.

خلال تلك الأشهر اقتربنا أنا وأمي من بعضنا البعض أكثر مما كنا عليه من قبل. لم تفتح قلبها لي -لم يكن ذلك نهجها- ولكن يبدو أن حبلًا غير مرئي من التعاطف جمع بين قلبينا. لطالما كنت معجبةً جدًا بوالدتي، إلا أن إعجابي امتزج بقليل من الرهبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما والدي فقد كان رفيقي وصديقي ومرشدي الحكيم؛ وفاض قلبي بالحب والعطف لإيشي العزيزة، الصبورة، غير الأنانية. على أن أمي كانت عاليةً، مثل الشمس، سليمة من العيوب وراسخة، تملأ المنزل بالدفء الذي يمنح الحياة، ولكنها بعيدة جدًا بحيث لا يمكن معاملتها بطريقة عادية. لذلك فوجئت ذات يوم، عندما أتت بهدوءٍ إلى غرفتي وأخبرتني أن هناك شيئًا تريد التحدث عنه معي قبل أن تخبر جدتي. تلقى منزلنا خبراً من الوسيط بأن ماتسو قد انتقل إلى مدينة في الجزء الشرقي من أمريكا، ليعمل لحسابه الخاص. بناءً على هذا الوضع، قرر عدم العودة إلى اليابان لعدة سنوات، وطلب إرسالي إليه هناك.

قبلت أمي دائمًا الظروف الحتمية باستسلام وهدوء، بيد أن هذا الموقف غير عادي ويدعو للحيرة. على مدى أجيال، اعتقدت الأمهات اليابانيات، أن المنزل الذي تستقر فيه الفتاة تسكنه الآلهة، وكن يرسلن بناتهن كعرائس إلى مقاطعات بعيدة؛ لذا لم يكن أمر ذهابي إلى أمريكا مصدر قلق عميق. وإنما كيف تذهب العروس إلى منزل لا حماة فيه ولا أخت كبيرة في سن الحكمة لتدريبها على أساليب وطرق المنزل الجديد، كانت مشكلة عويصة. ولم يكن بالإمكان إحالة قضية كهذه إلى مجلس الأسرة؛ لأنني كنت مرتبطةً بماتسو كما لو أنني زوجته فعلاً، ولم يكن لعائلة إيناجاكي أي سلطة على شؤون ماتسو. في هذا الموقف الغريب التفتت إليّ أمي، ولأول مرةٍ في حياتي تمت استشارتي في مسألةٍ عائلية. أعتقد أنني تحولت من فتاةٍ إلى امرأةٍ في تلك الساعة من الحديث مع والدتي.

ورأينا أنه، على الأقل في الوقت الحاضر، لا توجد سوى مشكلة واحدة يتعين علينا أن نواجهها. كانت حول الطريقة التي سأستعد بها لحياة مجهولة في أرض غريبة. في هذا لم يستطع أقاربي أن يدلوا بشيء. تحمسَ الجميعُ وتطوع كل واحد بمشورة بكل تأكيد. لكن الاقتراح العملي الوحيد جاء به أخي. أكد ضرورة تعلمي للغة الإنجليزية. وهذا يستوجبُ إرسالي إلى مدرسةٍ في طوكيو.

انهمكت الأسرة بتجهيزي للمدرسة طوال ذلك الشتاء. لا أعتقد أنني قدّرت، مدى التعاطف الذي أبداه الجميع أثناء هذه الاستعدادات، كما لم يقدرها أي منا. أمضت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمي الليالي وهي تحني رأسها المهيب فوق الأثواب ذات التطريز البديع، المشغول ببراعة بأيدٍ انطوت نفوسها في سلام منذ أجيال مضت، تنقُض التطريز، وتحلُّه غرزة فغرزة، ثم صبغت إيشي الحرير بعد ذلك وحولته إلى أردية عادية مناسبة لحياتي المدرسية.

بيعث أشياء كثيرة، ضحت جدتي وأمي بها بسماحة نفس، رغم أن الأسى لاح على وجوههن أحيانًا؛ أما أخي فبدا وكأنه فقد كل إحساس بالممتلكات القديمة الثمينة فكان يفارقها بلا أسف.

وكثيراً ما قال: «لا جدوى من اكتناز التحف والحرص عليها، في منزل فقير مثل منزلنا، ما من حاجةٍ للاحتفاظ بالعشرات من خزائن الدروع. ما عاد لهن حاجة في هذا الزمن، على سلالة الساموراي من الآن وصاعدًا القتال في ساحة معارك التجارة. الثروة هي القوة الوحيدة في هذا العالم الجديد، والثروة مفتاحها العمل».

يؤلمني الآن ما لم أفكر فيه حينها، أن أتذكر مقابض السيوف المنقوشة المصنوعة من الذهب والفضة ولا يفارق مخيلتي المشهد، حتى الآن، كيف مالَ ميزان تاجر الحديد العجوز بشدة بوزن السيوف التي كانت ذات يوم فخرًا لخدمنا المتواضعين.

دخلتُ غرفة جدتي في إحدى الأمسيات الباردة واستلقيت بجانب وسادتها، بالقرب من مدفئتها، تمامًا مثلما كنت أفعل في الأيام الخوالي التي بدت لي بعيدةً من الماضي. لقد تباعدنا قليلاً في ذلك العام. لم أعد الطفلة الصغيرة التي يمكن أن تسعدها بالحلويات، ويمكنها تثقيفها في الأدب وتعليمها دروس مفيدة من خلال الحكايات الخرافية؛ وشعرت أنه بقدر ما أحبتني، فإن الأوضاع الجديدة التي طرأت على مستقبلي كانت تتجاوز مفهومها القديم. لكنني علمت في تلك الليلة من خلال حديثي إليها، إن تدريب الساموراي يعدُّ المرء لأي مستقبل قادم.

بينما كنا نجلس في غرفة هادئة، لا يضيئها سوى وهج نار الجمر الناعم، أخبرتني كيف أنها في مثل هذا اليوم بالذات قبل ستين عامًا، تركت منزلها كعروس من مقاطعة بعيدة لتأتي إلى زوجها في ناجاوكا. كانت معظمُ العرائس من طبقتها يزرن منازل عوائلهن كل عام في موكب طويل هائل، ولكن على الرغم من إرسال الرسل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالهدايا والسؤال والاطمئنان في كل عام جديد وفي مواسم الأعياد الصيفية، إلا أن جدتي لم تر، بعد زواجها، لا دارها ولا أهلها مرة أخرى إطلاقًا. في تلك الأيام التي كان السفر فيها يستغرق وقتًا، كانت المسافة تُحسب بالمدة وليس بالأميال، وكانت مسافة رحلتها طويلة. غادرت دارها ليلة اكتمال القمر، وحين عبرت محفتها بوابة منزل زوجها كان القمر مكتملاً في السماء مرة أخرى.

قالت: «لم أكن قد جاوزت الرابعة عشرة، تمامًا مثل عمرك الآن، تساءلتُ أحيانًا عندما كان موكبنا يمر عبر مقاطعات غريبة، متسلقاً الجبال وعابراً أنهارًا واسعةً، عن أشياء كثيرة. قَدِمتُ من مكان بعيدٍ، أبعدُ من كيوتو، كنا نقضي فترات انتظار طويلة عند بوابة كل مقاطعة بينما كان مسؤولو الموكب يتبادلون الأوراق ويحصلون على إذن لنا بالمرور. في هذه الأوقات، كانت مربيتي تأتي دائما وتبقى بجانب محفتي، ورافقنا خدم من حَمَلَةِ الرمح و «ستة أكتاف» من الحمالين.. لذلك لم أخف. لكن العالم بدا لي غريبًا وكبيرًا جدًا. وكان الأشخاص الذين أتيت للعيش بينهم مختلفين تمامًا عن الأشخاص الذين فارقتهم. والعادات مختلفة. حتى اللغة بدت غريبة بنبرة وتعابير مختلفة. كانت بمثابة أرض أجنبية. ولهذا فكرتُ كثيرًا فيكِ، في الآونة الأخيرة، وفي الدولةِ المجهولةِ التي يأخذك إليها مصيرك. تذكري يا إيتسو-بو» وكان صوتها رقيقًا بشكل غريب حين أضافت: «لا يهم أين تعيشين، تلك مسألة هينة. المهم أن تدركي أن حياة الساموراي، رجلا كان أم امرأة، لا تختلف: الولاء للسيد الأعلى؛ والشجاعة للدفاع عن شرفه. في منزلك البعيد، تذكري كلمات جدتك: الولاء لزوجك؛ الشجاعة دفاعاً عن شرفه. وستحيين بسلام».

---

(24). في اليابانية للتعبير عن الدهشة، المفاجأة.. إلخ.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

رحلتي الأولى

تلقينا مع بدايات الربيع خبرا من أقاربنا في طوكيو مفاده اكتمال إجراءات تسجيلي للمدرسة. كنت لا أطيق صبرًا للالتحاق بالمدرسة إلا أن أطول شتاء مر على ناجاوكا قد خيم علينا لخمسة أشهر متواصلة لم نر خلالها غير الثلج، فاضطررت للانتظار حتى تكون حالة الطرق الجبلية آمنة من الانهيارات الثلجية لأتمكن من الذهاب للعاصمة بصحبة أخي. أخيرًا، نشفت المنحدرات التي يذوب فيها الثلج أولاً - وتنزهنا «نزهةً في الطبيعة الخضراء» لتوديع رفيقاتي في ناجاوكا. انتشرنا على منحدرات السد ذات صباح مشمس، بأوشحة أرجوانية على رؤوسنا وكيمونو مطوي فوق تنانيرنا الزاهية، وكل منا تحمل سلة صغيرة وسكينا من الخيزران وأصوات ضحكاتنا وأحاديثنا المرحة تملأ الأجواء ونحن نهبط ونصعد التلال نتسابق على من يجد أكثر عدد من درجات اللون الأخضر المختلفة فيما حولنا. غالبا ما استرجعت ذكرى ذلك اليوم السعيد بعد مرور أعوام، معتبرة أنه آخر وقت بهيج لي كفتاة في داري.

أفادت شركات البريد أخيرًا، أن الثلج ذاب وتساقط عن المنحدرات فباتت آمنة. حل يوم الرحيل واختلطت مشاعر الفرحة في داخلي بمشاعر الحزن والأسف، ودعت جدتي وأمي الغاليتين، وبعيون مغرورقة بالدموع دستني إيشي بعناية في الجينريكشا. بعدها، ومن بين صفوف الأحبة المنحنين للوداع، بدأت عربتا جينريكشا وحصان محمل بالأمتعة بقيادة أحد الحمالين رحلتنا التي استغرقت ثمانية أيام إلى طوكيو.

سافرنا أغلب الوقت بالجينريكشا، وقمنا بتبديلهن في مدن معينة، إلا أنه توجب علينا أحيانًا أن نركب الخيل. كان سرجي مقعدًا مرتفعًا، لذلك قام أخي والحمال بتجهيز سلة مزدوجة ثبتت بالأربطة على ظهر الحصان. جلست في جزء واحد منها، وملأت الأمتعة جزأها الثاني. وبينما كنا نسير في الطريق المنحدر الملتف حول الجبل صار بوسعي أن أنحني وألقي نظري للبعيد البعيد، إلى الأسفل حيث قرى الصيادين على الساحل. بيد أن المتعة الأكبر كانت بعدما قطعنا مسافةً أطول؛ رأينا

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

من على البعد واديا عميقا تعلوه مدرجات حقول الأرز على سفوح التلال المنحدرة فتراءت لنا رقع عجيبة الشكل وكأنها قطع حريرية منسقة على رداء كاهن بوذي. كان ثمة معبد مرتفع وسط بضع أشجار في كل قرية صغيرة كونتها الأكواخ المسقوفة بالقش، وتدور عجلة ضيقة كبيرة لمطحنة أرز مخبأة في تجويف بجانب جدول. كان الجو صفواً لدرجة أنني تمكنت بوضوح من رؤية الاندفاع الفوضوي لجاموس الماء وهو يجر محراثًا خشبيًا على طول أخاديد بقعة من بقع حقول الأرز، واستطعت أيضًا تمييز زهرة قرمزية عالقة بين ثنايا منشفة معقودة من الخلف حول رأس مزارع. لم يكن من أحد ليتزين بزهرة طبيعية في تلك الأيام، إذ كانت تُقدم لتكريم الموتى فحسب؛ لذا أدركت أنه ينوي أخذها للركن المقدس في بيته. وانتابني فضولٌ عما سيكون عليه حال بيته.

لاحظت في قرابة اليوم الثالث من رحلتنا أننا نغادر بلاد الثلج. مدن بلا أرصفة مسقوفة للمشي، وسطوح قش بلا صفوف حجارة تحميها من الانهيارات الجليدية. بدت المنازل عارية وغريبة مثل وجه امرأة متزوجة حُلقت حواجبها تواً. لكننا لم نبتعد كلياً عن مشهد الثلج، لأننا وعند تجاوزنا لجبل ميوكو رأينا عددًا كبيرًا من الانجرافات والبقع. قال رجال الجينريكشا إن تساقط الثلوج استمر هنالك حتى يوليو.

قال أخي: «يمكنك رؤية فوجي ياما من الأعلى».

ملأت قلبي الغبطة، وأدرت رأسي بنزق، شعرت حينها أنني دنوت من الجبل المقدس الذي لم أتوقع أن أراه بأم عيني يوماً. ثم، سمعت خاتمة جملته التي هيجت أشجاني:

«أما إذا استدرتِ ونظرتِ في الاتجاه المعاكس، سترين سهول إيتشيجو».

أجبته بصوت هامس: «إننا بعيدون غاية البعد عن بلادنا»

لمح أخي الأسى على وجهي؛ فضحك وأضاف قائلا:

«وإن التفتِ بوجهَكِ للوراء، يمكنك رؤية جزيرة سادو. وإن لم يَزِقّ ماتسو إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مستوى توقعاتك، إليك نصيحتي».

قال ذلك ثم صدح جذلاً بأغنية قديمة:

«نيكويوتوكو ني كيسيتاي شيما وا

روياغوشي ني سادو جا شيما»

صُدمت بغناء أخي أغنية من أغاني الخدم، وما ضاعف صدمتي، مزاحه المستخف بالأمور الجادة؛ لذلك ظللت عابسة والجينريكشا تتمايل بنا.

تشير تلك الأغنية الشعبية إلى جزيرة سادو وهي منفى للمجرمين، ويعتبرها عامة الناس نهاية العالم. إن هذه الأغنية الساخرة، التي تحظى بشعبية بين الفتيات القرويات، تمثل وعيدًا جديًا بأن تكون الهدية التي تقدمها العروس للخاطب الذي تكرهه، عبارة عن ملابس السجن بدلاً من الثوب الرجالي المطوي وهو الهدية المعتادة لكل عريس من عروسه، ومعنى كلماتها: «أتضرع للآلهة أن ترسل الشخص البغيض عبر البحار الهائجة إلى جزيرة سادو حيث نهاية العالم».

قضينا ليلتنا الخامسة في ناجانو ونزلنا بمعبد زينكوجي، حيث عاشت الراهبة الملكية التي كنت قد سِرْتُ تحت شفرتها(25)، قبل سنوات، في موكب من الفتيات الصغيرات اللائي يرتدين ملابس بهيجة، لحضور حفل رسامة بوذي.

توقف أخي في صباح اليوم التالي، بعد أن استأنفنا رحلتنا بقليل وأعطى إشارة للجينريكشا كي تستدير فأكون قبالته، ثم سألني: «إتسو-بو»، «متى تخلّوا عن فكرة تحويلك إلى كاهنة؟»

قلت متفاجئةً: «لا أعرف! لماذا؟»

ضحك قليلًا بازدراء وعاد إلى مكانه تاركا إياي غارقة في الصمت والتفكير.

لم أتجاوز الحقيقة حين قلت إنني لا أعرف. لقد قبلت دائمًا التوجيه دون التفكير في النتائج. لكن ضحكةَ أخي زعزعتني، تأملت في الأمر وأنا أتقلقل داخل الجينريكشا. اعتقد أنني فهمت في نهاية الأمر. فوالدي لم يشأ ذلك أبدًا، رغم

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رضوخه لرغبة جدتي الجليلة في تعليمي الكهانة؛ لذا حينما غادر أخي، استبدل بصمت نوعية التعليم لما ينفعني في حال توليث منصب الوريثة، أعتقد أن جدتي الجليلة، التي أحست بألم خيبة أمل ابنها العزيز، تنازلت عن أغلى أمانيها، وغيّرت الخطةَ في صمت.

وفي مقاطعة شينانو، وهي على بعد ساعة أو نحو ذلك من ناجانو، أشار الرجل الذي يحمل الجينريكشا إلى جبل صغير مخضر خلف النهر قال «إنها أوباتسوياما».

عادت بي ذاكرتي إلى ما روته لنا إيشي عن قصةٍ حكتها لها والدتها المحبة، وقعت أحداثها منذ زمن بعيد، حينها كان يعيش عند سفح هذا الجبل مزارع فقير وأمه الأرملة المسنة. كانا يمتلكان قطعة أرض تمدهما بالطعام ويعيشان حياة سعيدة راضية وآمنة.

حكم شينانو في تلك الفترة حاكم مستبد، وعلى الرغم من كونه محاربًا شجاعًا، إلا أنه كان يخشى خشيةً بالغةً من أي أمر قد يوحي بزوال الصحة والقوة. ما جعله يسن قانوناً قاسياً. أعلن فيه أوامر صارمة وفورية بإعدام جميع المسنين في المقاطعة بأكملها.

وكان عرفاً مقبولاً في تلك الحقبة الهمجية التخلي عن المسنين وتركهم ليلاقوا حتفهم بلا رعاية. بيد أنه لم يكن قانونًا، ولم يكن العديد من المسنين الذين لا حول لهم ولا قوة ليعيشوا، إلا إذا امتد بهم العمر في بيوت مريحة ومراعية. أحب المزارع الفقير والدته المسنة باحترام وتقدير، فامتلأ قلبه حزناً. لكن ما من أحد على الإطلاق فكر للحظة في عصيان أمر الدايميو، لذلك تنهد متحسراً يائساً، وأعد نفسه لما اعتبر حينها ألطف طريقة للموت.

رحلت الشمس عن أفقها، وانتهى من عمله اليومي، فأخذ كمية من حبوب الأرز، غذاء الفقراء الأساسي، طهاها، وجففها، ثم وضعها في قطعة قماش مربعة وصرَّها، وعلق الصُرَّةَ حول رقبته ومعها ثمرة قرع مليئة بالماء العذب البارد. ثم حمل والدته العجوز البائسة على ظهره وبدأ رحلته الشاقة إلى أعلى الجبل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الطريق طويلًا وشديد الانحدار. تمايلت خطواته وهو يحاول الثبات، بينما تزداد حلكة الليل، ثم انبلج القمر، مستديرًا وواضحًا، يرتفع فوق قمة الجبل ويحدق برقة من خلال الأغصان إلى الشاب الذي يكدح صاعداً إلى الأعلى، رأسه منحنٍ بالتعب وقلبه مثقل بالحزن. ثمة دروب واضحة بسبب عبور الصيادين وقاطعي الخشب مراراً وتكراراً. وفي بعض الأماكن اختلطت المسارات كأحجية مبهمة، لكنه لم يأبه بها. لم يكن مهماً أن سلك هذا المسار أو ذاك. مضى، متسلقًا بشكل أعمى - صعودًا دؤوباً- نحو القمة العالية العارية لما يعرف الآن باسم أوباتسوياما، أي جبل (نبذ العجزة).

لاحظت الأم تردد ابنها على الرغم من ضعف بصرها وذلك عند كل مفترق طرق، لم يكن إعتام عيني الأم العجوز بالغًا، فلاحظت سرعتهُ الهوجاء من طريق إلى آخر، استبد بها القلق على ابنها إذ لم يكن خبيراً بمسارات الجبل العديدة، وقد تكون عودته خطرة، لذلك عمدت إلى مد يدها لأخذ الأغصان الصغيرة من الأكمات أثناء مرورهما، وألقت بهدوء قبضة منها كل بضع خطوات على الطريق، وبينما كانا يصعدان، تميز الممر الضيق خلفهما بأكوام صغيرة من الأغصان تناثرت على مسافات متكررة.

وصل إلى القمة بعد لأي. مرهقًا ومنفطر الفؤاد، أنزل الشاب حِملهُ برفقٍ وأعدّ بصمت مكانًا مريحاً، كواجبه الأخير تجاه من يحب. جمع أوراق الصنوبر المتساقطة، وصنع منها وسادةً ناعمة، ورفع والدته العجوز برقة عليها، ولف معطفها المبطّن عن كتب حول الكتفين المتهدلين وودعها بعيون دامعة وقلب متألم. كان صوت الأم المرتجف مليئًا بالحب والإيثار حين أصدرت أمرها الأخير:

«لا تعمى عيناك يا بني. الطريق الجبلي مليء بالمخاطر. انظر بعناية واتبع المسار الذي عليه أكوام الأغصان. سوف ترشدك إلى الطريق الصحيح، إلى سفح الجبل».

ألقى الابن نظرة دهشةٍ إلى الوراء على الطريق، ثم إلى اليد المسنة البائسة والمنكمشة والمخدوشة والمتسخة بسبب صنيع المحبة. وقعَ قلبه، وركع على الأرض وصرخ بصوت عالٍ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«آهٍ أيا أمي الغالية، لطفك يغمر قلبي! لن أتركك. سوف نتبع طريق الأغصان معاً، ومعاً سنموت».

تحمل عباه مرة أخرى (وها قد لاح النور الآن!) فسارع عبر الطريق، عبر الظلال وضوء القمر، إلى الكوخ الصغير في الوادي.

كانت هناك خزانة جدارية للطعام تحت أرضية المطبخ، مغطاة ومخفية عن الأنظار. أخفى الابن والدته هناك، ومدها بكل ما تحتاجه وبقلق المحب رعاها باستمرار.

مر الوقت وبدأ يشعر بالأمان، وبعد حين أرسل الطاغية مرة أخرى رسلاً يحملون أوامر غير منطقية ولا نفع يرجى منها؛ يبدو أنه يقضي بها تباهيا بقوته. كان مطلبه هذه المرة أن يقدم له رعاياه حبلًا من الرماد. ارتجفت المقاطعة بأكملها من الفزع. إذ يجب إطاعة الأمر؛ ولكن مَنْ مِنْ كل سكان شينانو يمكنه صنع حبل من الرماد؟

ذات ليلة، وفي شدة محنته، همس الابن بالأخبار لأمه المخبأة:

قالت له: «مهلاً يا ولدي، سأفكر في الأمر».

في اليوم الثاني أخبرته بما يجب أن يفعله.

قالت: «اسردوا حبلًا من القش، ثم مدوه على صف من الحصى المسطح واحرقوه في ليلة ساكنة الرياح».

دعا الناس جميعا وفعل ما قالت، ولما انطفأ اللهب، أسفر عن حبل من الرماد مكتمل التفاصيل كل لفة وتظفيره تبدت واضحةً على الحصى. سُرَّ الدايميو بذكاء الشاب، وأشاد به كثيرًا، لكنه أصر أن يعرف من أين استقى هذه الحكمة.

صاح المزارع: «يا ويلاه! ويلاه! عليَّ الاعتراف بالحقيقة!» وروى قصته وهو راكع باستسلام.

أصاخ الدايميو السمع، وأطال التأمل وهو صامت، ثم رفع رأسه أخيرًا وقال بجدية: «شينانو بحاجة إلى ما هو أكثر من قوة الشباب آه، كان يجب ألا أنسى القول

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المشهور، «إنما تأتي الحكمة مع إكليل الثلج».

أُلغِيَ ذاك القانون القاسي بنفس اللحظة، وعفا عليه الزَّمَنُ فلم يبق منه سوى الأسطورة.

وجدتُ أن العادات تختلف تماماً عن عادات ناجاوكا كلما ابتعدنا، لدرجة أنني شعرت كما أنني لو كنت بالفعل في أرض غريبة. في أحد الأماكن، قبل أن نصل إلى إحدى القرى بوقت طويل، تناهى إلى سمعنا صوت أجش ينادي: «ما كات تا؟ ما كات تا؟» (من يشتري؟ من يشتري؟ وهي كلمات الدلال في المزايدة) وبينما كنا نسير في الشارع الضيق المزدحم، رأينا دلّالًا يقفُ عاليًا وسط عشرات السلال المصنوعة من الخيزران ممتلئة بالفاصوليا والجزر والخضر وبراعم الخيزران. بينما كان مسطحاً حوله بلا ترتيب، كل حجم وشكل من الباذنجان الأرجواني وجذور اللوتس الطويلة الممتدة اللذيذة.

نظر أخي إلى الوراء وضحك.

«من ذاك؟ ماذا كان كل أولئك الناس يفعلون؟»، سألته حالما وصلنا إلى نهاية الشارع الطويل وانطلقنا إلى الطريق العام.

أوضح أخي الأمر: «إنه مزاد خضار، التجار يشترون بالجملة، وكل صباح يبيعون الأشياء بالمزاد بالسلة. ألم تكن جذور اللوتس شهية؟ لو لم نتناول وجبة الإفطار قبل ساعتين فقط، لقلتُ إنني جائع».

مررنا في طريقنا على مكان آخر، وهو منزل زاره الموت. كانت هناك محفة جنائزية أمام باب المنزل. كان الحمالون ذو القبعات والمعاطف الكبيرة يرفعون النعش الخشبي الثقيل الذي يحتوي على الجسد. ألقي فوقه كيمونو صغير من الذهب القرمزي والذهبي، إشارة إلى أن الميتة فتاة صغيرة. فثوب الصبيان يكون أبيضَ. وثمة عدد من المعزين بملابس بيضاء، تلتف مناشف بيضاء حول شعورهم. حين مررنا، لمحتُ حاجزاً عُكِسَ ظهراً لبطن وشموع تضيء الركن المقدس الصغير.

وحيث مضى بنا الطريق في مكان ما، بالقرب من نهر واسع ذي ضفاف صخرية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منحدرة وواسعة، يكاد الطريق أن يلامس الماء في بعض الأماكن، رأينا عددًا من طواحين الأرز العائمة بعجلات دوارة بدت وكأنها أسطول من القوارب واقفة بثبات تصارع يائسة التيار القوي. تساءلت من أين لهذه البلدة الصخرية ما يكفي من الناس لتناول كل الأرز الذي يُطحَن. ولكن عندما ابتعدنا عن النهر، وجدنا أنفسنا فجأة في منطقة إنتاج الحرير بتربية دود القز، حيث مر طريقنا بقرية تلو أخرى، ولكل منها مزرعة توت خاصة بها.

كنا على بعد بضع ساعات فقط عن المدينة التي تطلّعنا أن نقضي الليل فيها حين توعدتنا السماء مكفهرة بعاصفة. كان الأخ يحدق قلقاً إلى الوراء عندما أخبره رجل الجينريكشا أن هناك منزلاً كبيراً في القرية المجاورة، حيث كان المسافرون يقضون فيه ليلة أحيانا. فسارعنا إلى هناك، حيث تحول الربع الأخير من الساعة إلى سباقٍ نطاطٍ لاهثٍ بين الرجال والسُحب. ظفر الرجال، وأنزلونا عند الباب، فركضنا إليه بغتة، تمامًا مثلما باغتنا اندلاع العاصفة وانسكاب الأمطار والتي كانت ستجعل رحلتنا معاناة فعلية.

كان النزل الذي أوينا إليه غريباً. إلا أنني علمت، أنه حتى والدي المحترم، في رحلاته في الأيام الخوالي، لم يتلق أبدًا، في أية مناسبة، ترحيباً ودياً أو معاملةً أكثر لطفاً مما تلقيناه نحن ورجالنا المتعرقون والضاحكون والمتباهون في نهاية سباقنا الشاق.

---

(25). يُحلق شعر الفتاة البوذية لترسيمها راهبة خلال مراسم الرسامة البوذية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما نتعلمه من السفر

كان النزل الذي لجأنا إليه في تلك الليلة العاصفة كبيراً وبناؤه مصانا على نحو حسن، لكنه مزدحم بالعمال المشغولين. باستثناء الغرف الخاصة بمضيفنا وزوجته وابنتيه، يكتظ بإطارات هيكلية تحتوي على طبقات وطبقات من صواني الخيزران، كل منها يحمل شرائح شبكية مغطاة بديدان القز. لابد أنها كانت آلافا مؤلفة. كنت معتادة على ديدان القز طوال حياتي؛ إذ كان منزل إيشي يقع في قرية نسيج، وكان لأختي الكبرى العديد من قرى مصانع الحرير في مقاطعتها المكونة من ثلاثة جبال؛ لكنني لم أمضِ ليلةً من قبل على أصوات القضم المتواصل للمخلوقات الصغيرة الجائعة. عجّ المنزل كله بحفيف لطيف، تمامًا كطقطقة قطرات المطر على الأوراق الجافة، فحلمتُ طوال الليل بأفاريز تقطر. استيقظت في صباح اليوم التالي يراودني شعور بالانقباض، ذلك أنني سأقوم برحلة طيلة يوم كامل داخل جينريكشا مغلق، غير أنني فوجئت عندما دفعت أحد الألواح الخشبية عند حافة الشرفة، بشمس مشرقة.

وبينا كنت واقفةً، جاءت فتاة يقاربُ عمرها عمري، تحمل حصيرة من القش عليها فضلات دودة القز لترميها في كومة بداخل الفناء، فمن سيقان شجيرات التوت وقشور الأرز تخلّفُ دودةُ القزّ أفضل سماد في العالم. تَوَقَّفَتْ لتحييني بانحناءة سريعة قائلة: «صباح الخير»، ثم وقفت هناك تحت أشعة شمس يونيو، أكمامها مطوية للأعلى، وقدماها عاريتان داخل صندل من القش. بينما جلست أنا القرفصاء على حافة الشرفة مرتدية كيمونو منامتي المصبوغ منزليا، وتعارفنا.

أخبرتني أنها ترعى ست صوانٍ من ديدان القز لوحدها. بدت مستمتعة وتعرف الكثير عن دودة القز. قالت: «إنها نظيفة، أكولة وتهتم بشؤونها الخاصة بفطنة- تمامًا مثل الناس». بينما كنت مستمتعة ومهتمة جدًا بالحديث إليها وبكل الأشياء المدهشة التي أخبرتني عنها، حضرت فتاة لتطوي وسائد السرير، فكان عليَ الإسراع في ارتداء ملابسي. وبعد أن نُظّفتْ غرفتي، وأُحضِرَ الإفطار، قال أخي: «حسنا هل أحببتِ عيشةَ النُزُلِ؟»

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجبته: «نزلاؤه صاخبون جدا، إلا أنهم مميزون للغاية. حسب ما أخبرتني به ابنة مضيفينا، فإن دودة القز لا تحتمل حتى ذرة غبار واحدة. بل إن الورقة الذابلة ستفضي في بعض الأحيان إلى التسبب في «أن تربط الدودة منديل رقبتها الأزرق» لتزحف إلى الحافة الخارجية للصينية» .

سألني أخي مجددًا: «هل قابلتِ جدة مضيفنا؟»

«لا، ما عرفت عن وجودها».

فرد أخي:

«نامت مبكرا بالأمس؛ ربما للفرار من الصخب والإزعاج الذي صاحب وصولنا المفاجئ. سنقدم لها احترامنا قبل مغادرتنا».

حين انتهينا من الإفطار، أخذنا مضيفنا إلى غرفة الجدة. كانت سيدة طاعنة في السن ذات أسلوب متحفظ، بدت على وجهها سيماء الفطنة والذكاء. عرفت أنها تلقنت سمتها في منزل للساموراي بمجرد أن انحنت، ولما رأيتُ قمةَ «ناجي ناتا» على مسند الحائط فوق الشوجي، عرفت لماذا أراد أخي أن أدخل هذه الغرفة. ناجي ناتا هو رمح طويل وخفيف بشفرة منحنية، دُربت نساء الساموراي على استخدامه، لممارسة الرياضة من ناحية وللدفاع عند الضرورة من ناحية أخرى. عليه شعار لأحد أبطالنا الشماليين، كان خائناً، ولكنه مع ذلك كان بطلاً. وحين قُتل، كانت ابنته واحدة من ثلاثٍ دافعنَ عن القلعة التي تعرضت لضغوط شديدة خلال الساعات الأخيرة الصعبة من النضال الخاسر. أخبرتنا السيدة العجوز، متباهية بتواضع، أنها كانت مرافقة متواضعة للابنة ورافقتها في ذلك الوقت الرهيب. كانت ناجي ناتا هدية تذكارية من سيدتها المحبوبة الغالية.

وحين أدركت صدق اهتمامنا، أخرجت كنزها الآخر وهي سكين نحيفة حادة تسمى كوجاي، تشكل مع خنجر الرمي، جزءًا من قبضة سيف الساموراي الطويل. كانت الحرب اليابانية في العصور القديمة عِلمًا. والمهارة الفنية تظهر على الدوام في استخدام الأسلحة، وما كان لجندي أن يفخر بإصابة عدوٍ بأي أسلوب آخر سوى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك التي حددتها قواعد الساموراي الصارمة. كان للسيف الطويل أربع نقاط مشروعة لهدفه لا غير: قمة الرأس، والمعصم، والجانب، والساق أسفل الركبة. يجب أن يسرع خنجر الرمي إلى هدفه، صحيحًا كالسهم، موجهًا إلى الجبهة أو الحلق أو الرسغ. لكن الكوجاي وهي سكين حادة صغيرة متعددة الاستخدام، كانت مفتاحا يُقفلُ به السيف في غمده؛ وبوسع الجنود المشاة استخدام اثنين منها بمثابة عصي تناول الطعام؛ وهي سلاح في ساحة المعركة، أو عند التقهقر، لإنهاء حياة رفيق يعاني ويحتضر يقطع بها وريد الكاحل، وكان له استخدام فريد في النزاعات العشائرية، فعندما يوُجِدَ مغروسًا في كاحل عدو ميت، يعني ذلك تحَدٍّ صامت فحواه «أترقبكم». ويعرف صاحبه من شعاره، وعادة ما يعاد وبذات الطريقة إلى كاحل صاحبه عندما يحين الوقت المناسب. تظهر سكين الكوجاي في العديد من الحكايات الرومانسية وقصص الانتقام في العصور الوسطى.

كنت سعيدةً بملاحظة شغف أخي، وسعيدة بمشاهدة وجه السيدة العجوز يتهلل بشرًا وسعادةً بذكرياتها؛ بيد أن كلماتها الختامية جعلتني أشعر بالأسى. قالت رداً على بعض ملاحظات أخي: «يتحمس الشباب دائمًا لما يقتضيه التقدم؛ أما كبار السن فليس بوسعهم سوى أن ينظروا إلى الوراء إلى الذكريات الحزينة والأحلام الفائتة».

عندما صعدت إلى الجينريكشا وانحنيت مرة أخرى لكل العائلة والخدم الذين انحنوا عند المدخل، لم يسعني إلا أن أرسل وداعًا قلبياً إلى الكائنات الصغيرة المتزاحمة. إن ما تعلمته في هذا المكان عن ديدان القز خلال تلك الزيارة القصيرة، كان أكثر مما تعلمته خلال أربعة عشر عاما من حياتي. بينما كنا نسير على طريق مستوٍ ورتيب، انشغل ذهني، وأعتقد أنه هناك في تلك اللحظة، بدأت أدرك للمرة الأولى -بشكل غامض- أن جميع المخلوقات، حتى وإن بدت تافهة، فإنها فَطِنة في تدبير أمور حياتها - تمامًا مثل الناس.

أخيرًا قلت لنفسي: «عزيزتي! كم نتعلم من السفر!»، وسحبت رداء الجينريكشا فوق حضني ووطنت نفسي للطريق الطويل الذي ينتظرني.

لابد أنني غفوت، لأنني وجدت نفسي منثنية، ولكن على نحو مريح متخذة وضعية

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الكينوجي تقريبًا، ثم سمعت صوت أخي.

كنا قد وصلنا بلدة كبيرة، وأخي يميل إلى الوراء ويشير عبر الأسطح المبلطة إلى قلعة خلف التل.

«هذه هي كومورو، التي أتت منها الدمى التي يبلغ طولها قدماً».

ابتسمت إذ عادت بي الذكرى إلى بيتنا في ناجاوكا وتخيلت دميتين هائلتين من مجموعة المهرجان أحضرتها جدتنا الكبرى كومورو مع مهر زفافها. لم تسمح الحكومة حينها سوى لابنة الدايميو بامتلاك الدمى التي يبلغ طولها قدماً، لابد أن مجموعتها بأكملها رائعة الجمال. لكن في ذاك الزمن، حين اعتمد رزقنا بشكل أساسي على زيارات بائع الأشياء المستعملة إلى مستودعنا، انتقلت دمى كومورو الرائعة بأثاثها المصغر المصنوع من الذهب والورنيش - تمثل كمال الفن الياباني في العصور الوسطى- تدريجيًا إلى منازل جديدة. تيقنت أنها لم تنتقل إلى المحلات والمخازن اليابانية، وإنما غادرت عن طريق التجار الماكرين، إلى أيادٍ وأراضٍ أجنبية، وربما تركت في دعةٍ إلى يومنا هذا في منازل ومتاحف متناثرة على نطاق واسع في أوروبا.

تشوهت دمى جدتي على نحو ما، فوُضِعت بالتالي، كزينة على رف توكونوما عالٍ في غرفتي نظرًا لكونها لا تصلح للبيع. كنت مغرمة جدًا بتمثيل مشاهد من القصص التي حُكيَت لي، وكنت أقوم بإنزال الدمى وأستخدمها كجمهور بينما كنت أتنقل في كل أنحاء الغرفة لتمثيل دور ساموراي عريق عليه القيام بمهام مرعبة. كانت رؤوس الدمى متحركة، وبالتالي وفرت فرصة جيدة لتمثيل إحدى قصص الانتقام المفضلة لدي. في كثير من الأحيان أضع يدي على أحد الرؤوس المطلية بالمينا، وأضرب الدمية بقوة بسكين الورق العاجي كسيف، وفي نفس اللحظة أنتزع رأس الدمية من ياقةٍ من الديباج الفاخر. ثم ألُفُّ الرأس على عَجَلٍ في قطعة مربعة أرجوانية من قماش الكريب. ترتسم تعابير الصرامة على وجهي، أضع الرأس تحت ذراعي، وأخطو بجرأة إلى قاعة محكمة وهمية. أظن أن والدي كان على علم بلعبتي البربرية تلك، فكثيراً ما استعرت منه قطعة الكريب الأرجوانية المربعة، شاعرةً أن شيئا

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يخصه سيمنح الشرف لتلك المسرحية. بيد أني ما أن أسمع خطوات جدتي الجليلة قادمة عبر الشرفة حتى أسرع بإعادة الرأس إلى مكانه كي لا تراني قد ازددت جرأة وفظاظةً فيقضُ مضجعها خوف آخر على مستقبل زواجي.

مرت الجينريكشا عبر البلدة، فنظرت إلى القلعة باهتمام. كانت تلك دار جدتنا الجليلة الكومورو في رحلة زفافها إلى ناجاوكا! وقفت شامخة وتراءت مدفونة إلى منتصفها بين الأشجار، والزوايا الرمادية المائلة للعديد من الأسطح تختلس النظر عبر الأغصان. تراءى وكأنه معبد باجودا(26) شاهق فوق أساس مُتجانف من الحجارة ذو جوانب ستة أو ما يعرف بـ «ظهر السلحفاة» مثل جميع القلاع اليابانية.

من كومورو إلى ناجاوكا! لا بد أنها كانت رحلة طويلة لصبية في كاجو(27) الزفاف المتأرجح! فكرت فيما قالته لي الجدة الجليلة عن رحلة زفافها التي استمرت لمدة شهر. وفكرت في المستقبل. يبدو أن آلهة إيدزومو، التي تكتب نصيب كل العرائس، قد كتبت المصير ذاته لكل عرائس عائلتنا، وما دام مستقبلي مقرراً، بدا أنه مقدورٌ لي أن أسير على خطى أسلافي.

خجلت من نفسي لما حدث أثناء سيرنا في مكان ما على الطريق حيث اضطررنا لركوب الكاجو، إذ كنت أهاب ركوب الكاجو. كانت السلة الكبيرة التي تتأرجح من أكتاف الحمّالين المهرولين عادة ما تجعلني أشعر بالدوار والضعف، ولكن في ذلك اليوم كانت السماء تمطر بغزارة وكان الطريق الجبلي قاسيًا للغاية للجينريكشا. تحملت الموقف بأكبر قدر أطيقه من الصبر، لكنني مرضت في نهاية الأمر، لدرجة أن أخي ربطني بين الوسائد على ظهر الحصان بعد أن أنزل الأمتعة عن ظهره، وغطاني بخيمة مصنوعة من حصيرة قش، وآثرَ راحتي على راحته. فمشى على طول الطريق إلى أعلى الجبل بجانبي، تبعه حمالو الكاجو.

كانت الشمس مشرقة في كبد السماء، وحين اختلست النظر من خيمتي، رأيتُ أخي ينفض نفسه كما اعتاد شيرو المسكين أن يفعل عندما يغمره المطر. غامرت بالاعتذار بصوت خجل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«إن مرضا يسببه الكاجو مدعاة لتقليل للكبرياء، إيتسو بو. أخشى أنه لم يعد لك الحق في لقب (ابن أبيك الشجاع)».

ضحكتُ، لكن الحرارةُ ألهبت خديَّ.

أشار أخي نحو سحابة عظيمة من الدخان تطفو بتكاسل فوق جبل مخروطي الشكل بينما كان يساعدني على الترجل عن الحصان.

قال: «هذه هي علامة محطة اللص، هل تتذكرين؟»

أذكر جيداً، سمعت والدي يروي قصة الفندق الصغير على قمة الجبل أكثر من مرة، حيث كانت أسعاره مرتفعة للغاية لدرجة أن الناس أطلقوا عليه اسم «محطة اللص». حين كبرت أدركت أنه كان محطة استراحة ذات سمعة محترمة وليس وكرا للصوص يبتز أموال المسافرين كجزية.

سرنا أسفل الجبل ومررنا بالعديد من أضرحة الكهوف. لمحت في واحد منها وميض مصباح مشتعل، ذكرني بكهوف الناسك في إيتشيجو. كانت تلك أولى رحلاتي الطويلة من داري، وكانت مليئة بتجارب جديدة وغريبة. بيد أن كل شيء خبرته استدعى ذكريات مألوفة لدي. تساءلت بارتياب إن كان الحال نفسه في أمريكا.

في أحد الأيام، وبعد زخة من المطر، حين توقف الرجل ليسدل سِتر الجينريكشا، أظهر انبجاس خاطف من شعاع الشمس، حرف «داي» الياباني أبيضَ وضخما، عالياً على جانب الجبل مغروسا بشكل مسطح على الخضار، والذي يعني «عظيم». بدا الأمر كما لو أنه رُسم بفرشاة، لكن جيا، الذي رآه عن قرب ذات مرة، أخبرني أنه مصنوع من أعواد الخيزران ومغطّى بسماكة بلفائف التضرعات الورقية لحجاج المعبد. بالقرب من طريقنا كانت هناك قرية صغيرة بسيطة حيث تعيش ميو أخت جيا، حيث قضينا ليلتنا في منزلها. لقد كان مكانًا غريبًا، نوعًا من الفنادق الرخيصة لسكان الريف. قابلتنا ميو عند الباب، مع ابنها وزوجته، بانحناءات عميقة وترديد متواصل لكلمة «ما! ما» بداعي الدهشة والسرور. المدخل الواسع يؤدي إلى غرفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كبيرة ذات أرضية طينية. كُدّست في إحدى الزوايا الكثير من البراميل المربوطة بأطواق ملويّة من الخيزران، وتدلى من السقف المُسوَدّ من الدُخان كيس منتفخ من الحبوب، وحزم من كعك الموتشي والأسماك المجففة، وسلال من الخيزران تحتوي على مؤنٍ من أنواع مختلفة.

مررنا على جمع من الحجاج ممن نزلوا لتوهم من الجبل وجلبة أحاديثهم تضج بالمكان، ثم مشينا على مسار حجري لحديقة صغيرة بسيطة، ووصلنا إلى الغرف التي تعيش فيها ميو. كان كل شيء نظيفا، لكن الأبواب الورقية كانت مرقعة، والحصائر صفراء بفعل الزمن، وأغلفة القماش توشك أن تتآكل. لا ريب أن ميو مرت بوقت عصيب في الماضي؛ إذ كانت ذات شخصية مستقلة، فقد انتهكت جميع التقاليد؛ تخلصت من زوج لا قيمة له وربت أطفالها الأربعة بنفسها. طبعا هي من الطبقة المتدنية إن تفعل شيئًا من هذا القبيل، لكنها كانت شجاعة كرجل، وبما أن زوجها كان بلا والدين، فقد تمكنت من الناحية القانونية أن تكون الوصية على أطفالها. عملت ميو خادمة في منزلنا حينما كان أخي طفلاً، وكان فرحها برؤية «السيد الشاب» مثيرًا للرأفة. مشت بقدميها العاريتين فوق الحصير ودستهما بسرعة في صندلها كلما عبرت عتبة الباب نحو المطبخ. سارعت هنا وهناك، وقدمت لنا أفضل ما لديها مع انحناء واعتذار عند كل شيء تقدمه. شيء واحد أزعجها كثيرا. لم يكن لديها سوى صواني خشبية بلا أقدام، وما عرفت قط أن أخي اعتاد أن يأكل في صينية منخفضة. في تلك الأيام التي عاشتها في منزلنا، كانت حتى الوجبة غير الرسمية مثل الكعك تقدم له على حامل مصقول مرتفع، شأنه شأن أبي بالضبط، لا يمكنك إلا ملاحظة براعة ميو، فقد جاءت بإناء أرز من النحاس الأصفر. وقدمته بانحناءات متواصلة وبقلق قالت: «أرجو أن تسبغوا علينا كريم عفوكم!»، ووضعته على الطاولة أمام أخي الذي ضحك بحرارة وقال إنه حتى الشوجون في زمنه لم يحظ بمثل هذا التكريم.

جلسنا إلى وقت متأخر كثيرًا، وقضينا وقتا ممتعا. تحدث أخي عن أيام الماضي وأشياء كثيرة عن منزلنا. أمور لا أعرف عنها غير القليل فشعرت كما لو أن كتابًا قديمًا ومألوفًا إلى حد ما فتح لي. لم أعتد رؤية أخي مرحًا ومرتاحًا كما كان في ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المساء. أما ميو فسرعان ما اختلط حديثها بالدموع والضحك، وطرحت العديد من الأسئلة وقاطعت نفسها باستمرار. كانت تُذكّرُهُ ببعض حوادث طفولتهِ، حين سألها بغتة: «ماذا حدث لزوجك الذي اخترته بنفسك، ميو؟»

أحسست أنه سؤال فظ، لكن ميو أجابت بهدوء: «أيها السيد الشاب، لا يجلو صدأ حسامك غيرك، لازلت أدفع جزاء خطإٍ حياتي الفادح».

ذَهَبَتْ بهدوء شديدٍ عبر الغرفة إلى صندوق كبير وأخذت شيئًا صغيرًا مسطحًا. كان مربعًا من الكريب الأرجواني يحمل شعارنا. وبوجهٍ جِديّ، فتحتهُ، فظهرت حقيبة أخاذة من الديباج مثل التي كنا نحملها حين كنا صغارا لأخذ نعمة الكاهن الورقية. كانت الخيوط الذهبية مجعدة قليلاً والحبل القرمزي الثقيل منكمشا بفعل الزمن. رفعته ميو بتقدير إلى جبهتها ثم قالت لأخي: «هذا ما منحتني إياه السيدة المحترمة، في تلك الليلة التي سمحت فيها لي ولحبيبي بالعبور من بوابة المياه. كانت تحتوي على عملات فضية مربعة - أشد ما كنتُ أحتاجه».

«آه!» صرخ أخي بحماس، «تذكرت! كنت طفلا صغيرًا. كان الظلام قد حلّ ورأيتها تعود بمفردها وتحمل فانوسًا. لكنني لم أفهم أبدًا ما وراء ذلك».

ترددت ميو للحظة. ثم أخبرتنا كيف أنها عندما كانت تعمل في منزلنا، كانت صغيرة جدًا، ولأنها كانت أخت خادم أبي المخلص جيا، فقد منحت حرية أكبر. وقع في حبها خادم شاب من بيتنا. لكنها اعتبرت جريمة كبرى أن يغدو شابان عشيقين من دون مباركة رسمية مناسبة مهما كانت الطبقة التي ينتميان إليها، أما أن يحدث ذلك في منزل الساموراي، فإنها وصمة عار على المنزل. كان النفي هو العقوبة ويجب أن يتم من خلال بوابة المياه - وهي بوابة من الخشب مبنية فوق مجرى مائي ولا تستخدم أبدًا إلا من قبل إحدى الطبقات المنبوذة. كانت المغادرة علنيةً، وكان الجناة يتعرضون للنبذ. نعم تلك العقوبة قاسية بشكل لا يوصف، إلا أنه وفي الأيام الخوالي، استخدمت تدابير صارمة لمنع انتهاك القانون.

عهدنا من أمي الالتزام الصارم بكل قانون من القوانين العائلية، لكنها أنقذت ميو من الفضيحة إذ أخذت العاشقين عند منتصف الليل بهدوء، وفتحت هي نفسها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البوابة الكبيرة أمامهم للمرور. لم يعلم أحدا عن تلك الحقيقة أبدًا.

وختمت ميو بحزن: «يقال إن الآلهة تطهر قلوب الذين يعبرون بوابة الماء. ولكن مع ذلك، لا مناص من عقوبة المخالف للقانون. لقد دفعت العقوبة سرًا، وتم إنقاذ أطفالي من العار من خلال اللطف السماوي للسيدة المحترمة إيناجاكي».

جلسنا جميعا هادئين للحظة. ثم قال الأخ بمرارة:

«كانت السيدة إيناجاكي المحترمة أرحم بخدم أسرتها منها تجاه ابنها الوحيد، بكثير».

وبلا مقدمات دفع وسادته جانبًا بنفاد صبر وقال: «تصبحون على خير».

التف طريقنا الذي سلكناه في صباح اليوم التالي على طول مجرى السيل بشكل متعرج عبر سلسلة من الأخاديد المنحنية، ليندفع في نهاية المطاف متحدراً بخفةٍ إلى نهر ضحل واسع، عبرناه على متن قارب يوجهه العمال. كان هذا النهر مسرحا لواحدة من أكثر قصص جيا تشويقًا.

ذات مرة، في إحدى رحلاته السريعة إلى طوكيو، وجد أبي النهر فائضًا عن المعتاد، فأمر الحمالين بوضع محفته على منصة وحمله على رؤوسهم عبر المد العارم إلى الضفة المقابلة. وقد غرق أحد الرجال.

وبينما كانت الجينريكشا تتدحرج للأمام، فكرت في عدد المرات التي سلك فيها أبي هذا الطريق وسط المنزلة الرفيعة وأبهة اليابان القديمة؛ واليوم يسلك أعز أبنائه -أكبرهم وأصغرهم- نفس مساره إنما في جينريكشا مستأجرة، يلبسان ملابس بسيطة وبدون مرافقين عدا حارس عجوز صاخب مع حصان أمتعة. يا للغرابة!.

أخيرًا وصلنا إلى تاكاساكي وهو المكان الذي شهدنا منه انطلاق ما نسميه «القطار البخاري النافخ» الشهير في طريقه الى طوكيو. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها قطاراً للسكك الحديدية. بدا لي وكأنه صف طويل من الغرف الصغيرة، ولكل منها باب ضيق يفتح على الرصيف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الوقت متأخرًا عند الأصيل، وكنت في غاية الإرهاق لدرجة أنني لا أتذكر أي شيء سوى توبيخ أخي؛ بسبب أنني خلعت حذائي الخشبي كما لو كنت سأدخل منزلًا ما، وتركته على الرصيف. قبل تحرك القطار بقليل، سلمه لنا من النافذة أحد العاملين كان عمله مختصا بجمع كل الأحذية من الرصيف قبل تحرك كل قطار. ذهبت حالاً للنوم لأكتشف عند استيقاظي أننا في طوكيو.

---

(26). pagoda معبد بوذي على شكل برج متدرج به أفاريز متعددة يوجد في معظم دول آسيا.

(27). محفة صغيرة مصنوعة من السلال معلقة على عمود يرتكز كل طرف منه على كتف حاملها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجانب

رتب لي أقاربنا في طوكيو أن أعيش معهم وألتحق بمدرسة معروفة للفتيات. يُدرِّس اللغة الإنجليزية بهذه المدرسة رجل دَرَس في انجلترا. استمر بي الحال على هذا المنوال لأشهر، ولكن أخي لم يرض عن الوضع. إذ تُلزم الفتيات هناك بإيلاء الكثير من الاهتمام لتعلم الآداب والمهارات النسائية؛ وبما أن عمي كان يعيش في قصر فخم، فإن جزءًا كبيرًا من وقتي في المنزل كان يضيع في أمور تافهة. ورأى أخي أن ما أتلقاه من دروس لا يفرق عما تلقاه هو من تعليم عديم الجدوى، وبما أنني سأعيش في أمريكا، يجب أن أحصل على تعليم عملي أكثر.

مرة أخرى، أسيء فهم أخي المسكين كلياً من قبل أهلنا بسبب رفضه الشديد لكل النصائح؛ ولكن أخيرًا، اقترح صديق والدي القديم الرائد ساتو مدرسةً إرساليةً التحقت بها زوجته سابقاً، واشتهرت بأنها أفضل مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية للفتيات في اليابان. أرضى ذلك أخي، وبما أنه كان من قواعد المدرسة أن يكون لكل تلميذ وصي مقيم، فقد قبلَ الرائد ساتو المسؤولية، ورُتِبَ لذلك، وهكذا سأصبح فرداً من أسرة ساتو حتى بداية الفصل الدراسي التالي الذي يبدأ بعد بضعة أسابيع. كانت زوجة الرائد ساتو سيدة هادئة ومتواضعة ولطيفة المعشر، بيد أنها ذات شخصية قوية وغير اعتيادية. وإذ لم يكن لها ابنة، فإنها قبلتني بمثابة البنت لها وبالسُبل الرؤوفة الرحيمة علمتني أشياء لا تحصى ولا تزول منفعتها.

كانت المدرسة على بعد خمسة أميال من منزل ساتو سيرًا على الأقدام. وحين تسوء أحوال الطقس كثيرًا، يرسلونني في جينريكشا السيدة ساتو، أما باقي الأيام، وكما علمني معلمي العزيز الكاهن، شعرت أنه يكاد يكون عاراً عليَ الانشغال براحةِ بدني حين أكون في سبيلي لطلب العلم، لذلك كنت أمشي عادة.

مشيتُ فورًا بعد وجبة الإفطار المبكرة، نزلت التل وواصلت على طول طريق المعبد القديم حتى وصلت إلى الشارع العريض المار بقصر جلالة الإمبراطور. كنت دائما أتمهل في سيري حين أحاذيه. شكّل الماء الصافي للخندق، الذي يعكس كل حجر من الجدار المتجانف وأشجار الصنوبر الملتوية أعلاه، صورة للسلام الهادئ

الرائق. أحببت هذا المكان، إذ ما لمست شعورًا مألوفًا بالسمو والرفعة في طوكيو إلا هنا. دلفت من هناك إلى ساحة واسعة مشمسة. ثمة شجرة منعزلة تقف في الوسط، حيث كنت أستريح لبضع دقائق دومًا؛ لأن ما بعده كان صعوداً طويلاً لسكك ضيقة ملتوية مرتفعة ومزدحمة بالأطفال، وأناس يكاد كل منهم يحمل طفلاً. لم يكن أطفال المدينة أولئك ينعمون باللامبالاة مثل أطفال الشوارع في ناجاوكا. بدوا أكبر سناً وأكثر جدية، وعلى الرغم من أن الجميع كانوا مشغولين، بعضهم يلعبون، والبعض الآخر يتجاذب أطراف الحديث في مجموعات، وآخرون يركضون لأداء مهامهم، إلا أنهم لم يصدروا أي ضوضاء سوى «جاتا جاتا(28)» لقباقيبهم الخشبية.

على قمة التل كانت مدرستي. شامخة خلف جدار طويل من التلال يعلوه سياج شائك. شُرعت بوابتها الكبيرة على أراضٍ فسيحة، حيث يوجد، وسط كثافة الأشجار، منزل خشبي مرتفع ذو طابقين بسقف من القرميد ونوافذ زجاجية مقسمة إلى مربعات كبيرة بأشرطة خشبية. أمضيتُ في ذلك المبنى أربع سنوات سعيدة، وتعلمت بعضًا من أكثر الدروس فائدةً في حياتي.

لقد أحببت مدرستي منذ البداية، لكن بعض تجاربي كانت محيرة للغاية. ولولا أن السيدة ساتو أغدقت عليّ عطفها وتولتني بنصائحها الحكيمة، لباتت حياتي صعبة؛ فقد كنت مجرد فتاة ريفية بسيطة وحيدة في عالم جديد، أرمقه بعيون متلهفة للغاية، ولكن بإنكار شديد وأحكم بتعنت على كل شيء وفقًا لمعاييري العالية المتعسفة ولآرائي المحافظة.

درّسنا رجال يابانيون جميع دروسنا -ليسوا بكهنة إنما أساتذة- باستثناء اللغة الإنجليزية والكتاب المقدس. كنا لا نلتقيهم سوى أثناء الدروس. أما اللغة الإنجليزية فكن معلمات أجنبيات ليس بينهن رجل واحد. حدث مرة أن رأيت رجلاً أجنبياً في ناجاوكا، لكني لم يسبق أن رأيت امرأة أجنبية قط حتى جئت إلى هذه المدرسة. كانت أولئك المعلمات جميعهن صغيرات سن، وحيويات، وأكثر إثارة، وجمالًا. لباسهن غريب، حذاء أسود ضيق، وبشرتهن فاتحة ولم تمسها أي مستحضرات تجميل بينما كنا نحن نعتبرها جزءًا ضروريًا من أناقتنا، وشعورهن ذات ألوان مختلفة، مسترسلة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

في هيئة لفائف وتموجات، كل ذلك ذكرني بتصورات باهتة كانت تراودني عن عالم خيالي. لقد أعجبت بهن غاية الإعجاب، خلا أن عدم احتفالهن بقواعد السلوك أدهشني.

أما الفتيات، ومعظمهن من طوكيو، فكن يتعاملن ببساطة وبلا تكلف على نقيض ما اعتدت عليه في منزلي المحافظ، ويتبادلن التحايا بانحناءات سريعة ويتحدثن مع بعضهن البعض بأسلوب أصابني بالذهول. ومع ذلك، كان لدي اهتمام معين بمراقبتهن. أما الشيء الذي جزعت منه جزعًا شديدًا فهو تعامل المدرسين مع التلميذات بحرية، والسلوك المتهور للتلميذات في حضور المعلمين. لقد لُقنتُ مبادئ من قبيل «لا تخطو حتى على ظل معلمك، بل اخطُ بثلاث خطوات خلفه احترامًا». وهكذا كل مرة رأيت تحايا ودية وسمعت أحاديث غير رسمية، لاح لي الأمر تواضعًا كبيرًا من جانب المعلم، وقلة احترام من جانب التلميذات.

وكان هناك شيء آخر أزعجني كثيراً. بدا أن تلك الابتسامات الودية والاهتمام البسيط من المعلمين يُعجبُ فتيات المدينة اولئك، أما أنا فقد شعرت بحرجٍ شديد كلما تودد شخص ما إلي. عاقني تدريبي الصارم عن التجاوب بمرونة مع الجميع في المدرسة سواء معلمين أو زميلات، وقد مر وقت طويل قبل أن يتلاشى احساسي بالغرابة، وأجد نفسي منضمة إلى الفتيات في ألعابهن وبدأت آنش إلى أساتذتي، وقد أسهمت القواعد الديمقراطية للمدرسة في ذلك، والتي، على الرغم من عدم تطبيقها، شُجِّعت وأصبحت صرعة كان من بينها التخلي عن استخدام كلمة «ساما» التشريفية واستبدالها بالبادئة الأقل رسمية، «أا»؛ وبالتالي وُضِعت الفتيات على مستوى واحد مع الفتيان. كان الأمر الآخر الذي أثار اهتمامي كثيرًا هو تخلي كل الفتيات عن تسريح الشعر على الطريقة اليابانية وكأنما كان اتفاقاً. وراجت تسريحة بسيطة: يسحب الشعر للخلف ويرفع ويجدل إلى جديلة طويلة، كان ذاك التغيير متعة مختلطة. فلم أعد ضحية «عملية التلصيق» بالزيت المعطر والشاي الساخن، لكن نظرًا لأنني كنت الفتاة الوحيدة ذات الشعر المجعد في المدرسة، تعذر عليّ تفادي بعض السخرية اللطيفة.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

تقبلت تلك الأمور بسهولة، لكن صندلي سبب لي إزعاجاً حقيقياً. فقد اعتدت طوال حياتي على خلعه عند الباب كلما دلفت إلى المنزل، أما في المدرسة، فالصنادل تُرتدى طوال الوقت، باستثناء مهجع النوم المغطى بالقش. صعب عليَ التأقلم مع هذا الأمر، وأصبحت لدي عادة ما أن أصل إلى باب الفصل وأكاد انتزع أصابع قدميَ من سير الصندل حتى أعيدها إليه. استغرق الأمر مني شهورًا للتغلب على تلك العادة. واعتادت الفتيات على الانتظار خارج الفصل الدراسي لمجرد الضحك على لحظة ترددي تلك.

تلك التغيرات التي طرأت على عاداتي القديمة، بالإضافة إلى روح السخرية المرحة للفتيات، جعلتني أشعر أنني بِتُّ واحدة منهن، وأن إتسو-بو قد انسلت كليا من الحياة القديمة واندمجت بسعادة في حياتها الجديدة. بيد أني شهدتُ أوقاتًا، أكون فيها مستغرقة في الدرس فيقاطعني أحدهم مناديًا عليَ فجأة، «يا إيتسو سان!» وتمر لحظة ينتابني فيها الذهول قبل أن استوعب اسمي الجديد! أسرع عبر القاعة، وصندلي يصدر «دقدقةً» صاخبةً على الأرض، شاعرة بخفة رأسي واسترسال شعري دون قيد، وثمة شعور غامض في أعماقي، خوف غامض من أن إتسو-بو القديمة لم يعد لها وجود.

بيد أن ذلك الشعور لم يدم طويلًا. لأن ثمة مسألة ذكرتني أنني ما زلت ابنة إيتشيجو: إذ أن نطقي المختلف عن نطق أهل طوكيو لبعض الأصوات، ولهجتي المفخّمة والمتكلفة، جنباً إلى جنب مع لهجة إيتشيجو المختلفة، بدت مضحكة جدًا بلا شك لأذن سكان المدينة، فصرت تسلية كبرى للفتيات، مما حدا بهن إلى تقليدي، إنما بطريقة لطيفة، لدرجة أنني لم أشعر بالاستياء منهن، لكنها كانت محنة حقيقية لي، لأنها أثرت في ولائي الصادق لمقاطعتي. ونظرًا لأنني لم أفهم تمامًا أين كمنت أخطاء لهجتي، فقد كنت عاجزة، ونحوتُ تدريجيًا إلى حصر حديثي في ملاحظات قليلة، واستخدمت جملاً قصيرة قدر الإمكان.

لاحظت السيدة ساتو أن صمتي يزداد يوما بعد آخر، وبعد أن استجوبتني بلباقة، اكتشفت مشكلتي. ثم أعدّت بهدوء رسماً تخطيطياً للأصوات الصعبة في دفتر صغير،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وشرحتها لي بأرقى طريقة في الوجود. صادف ذلك المساء حضور أخي، فضحك قائلًا وهو ينظر إليّ منتقدًا:

«إيتسو-بو، لا يوجد سبب وجيه لتخجلي من لهجة بلدتك العزيزة، بقدر ما ينبغي لك أن تخجلي من ملابسك الريفية. سأحضر لك ملابس مختلفة».

لقد كنت متشككة بالفعل من النظرات التي كانت زميلاتي في المدرسة يلقينها على النطاق الذي خاطته لي توشي بشق الأنفس من قطعة قماش مستوردة حديثًا تسمى أراباكا، لذلك فرحت جدا بالملابس التي أحضرها لي أخي في اليوم التالي. كان جمالها أخاذًا، مع وشاح من الساتان الأسود، ذكرني بنوادل مطعم ناجاوكا، لكن الفتيات أكدن لي أنها تحمل «طابع طوكيو»، لذا غمرتني مشاعر الرضا والفخر حين ارتديتها وذلك ما لم أشعر به من قبل تجاه أي ملابس امتلكتها، خلا مرة واحدة قبل سنوات عديدة، عندما كان والدي، في إحدى زياراته إلى العاصمة، حيث شاهد يومها، في إحدى المحلات ملابس أجنبية للصغار فاشتراها لي. كانت من القماش الأزرق الداكن وغريبة الطراز. لم يكن أحد منا يعلم أنها ملابس صبيان، ألبستني إيشي إياها ومضيت متباهية بها، مُحشورة في سترةٍ واخزة، وباردة، وضيقة، وغير مريحة. لكن العائلة أعجبت بي، وشاهدني الخدم حابسين أنفاسهم من الدهشة، وكنت مزهوة مثل «الطائر كثير العيون»، وهو رمزنا للغرور.

كلما عرفت معلماتي أكثر زاد إعجابي بهن أكثر. وزال شعوري بالنفور منهن بسبب تعاملهن بعفوية وبلا رسميات. لقد تعلمت أن أقدر القيمة المتأصلة التي تكمن وراء اختلافاتهن الفردية، وأخيراً بدأت أتقبل أن المكانة الرفيعة للمعلم لا تتعارض مع كونه مبتهجاً ومرحاً. كان أساتذتي اليابانيون دمثي الأخلاق، لكنهم ظلوا على مسافة؛ بينما كانت معلماتي مبتسمات وسريعات الحركة يجرين معنا في صالة الألعاب الرياضية، ويلعبن معنا ألعاب القتال والريشة، ويتناوبن على تناول الطعام معنا في غرفة الطعام الخاصة بنا، حيث كان يقدم لنا الطعام الياباني على الصواني كما اعتدنا في منازلنا.

وسَمحن لنا في كثير من الأحيان في أمسيات الجمعة بترتيب برنامج ترفيهي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ياباني. فكنا نخرج أثوابنا السفلية الزاهية(29)، والتي هي الجزء الأكثر جاذبية من اللباس الياباني، ونعلقها في جميع أنحاء الغرفة، حيث كانت تتمايل في شرائط طويلة تذكرنا بالستائر ذات الخطوط العريضة للمحاربين القدامى في مخيماتهم. ثم كنا نستعير أشياء من بعضنا البعض لنصنع زيًا أو لوحة أو نرسم شخصية مشهورة. في بعض الأحيان كانت الفتاة الجريئة تختار معلمةً -المفضلة على الدوام- وترسمها بصورة فكاهية لطيفة. وأحيانًا كنا نقدم تمثيلاً إيمائيًا لدراما تاريخية قديمة، لكن لم يحدث أن مثلناها ناطقة بتاتًا، فتلك جرأة كبيرة لا تلائم السيدات. وكان الرجال هم من يؤدون أدوار النساء على المسارح، ففي ذلك الزمن كان يطلق على الممثلين «متسولي الشواطئ».

كانت المعلمات حاضرات دائمًا في هذه المناسبات، يضحكن ويصفقن ويثنين على جهودنا بسعادة وانبساط كما لو كن فتيات في مثل عمرنا. وفي الوقت نفسه، كن جميعهن مشغولات بالحياكة والخياطة، أو -الأمر الأكثر إثارة للاهتمام من بين كل الأشياء في تلك المدرسة الرائعة- كن يُرتِّقنَ الجوارب.

على الرغم من ارتياحي المتزايد، ظل شيء واحد يسبب لي ألما دائما. فما كان هناك من ركن مقدس في المدرسة ولا بالقرب من دار عائلة ساتو. بالطبع، كانت هناك صلاة أثناء الطقوس الصباحية في كنيسة المدرسة، مهيبة ومريحة جدًا. شعرت حقًا كما لو كنت في معبد. لكنها افتقرت إلى دفء تجمع العائلة في غرفة جدتنا الهادئة تحيط بنا الشموع المضاءة والبخور المتلألئ في الضريح المفتوح؛ والشعور بقرب ورعاية الأسلاف من حولنا. ذاك الذي افتقدتهُ أكثر من أي شيء آخر. وما زادني حزنًا، أنه ما عاد بوسعي حضور الطقوس التي تقام في التاسع والعشرين من كل شهر في ذكرى وفاة والدي.

قبل أن أغادر المنزل، أعطتني أمي شيئًا مقدسًا للغاية. لقد كان اسم والدي بعد الموت(30) مكتوبًا على نوع معين من الورق، وقد خطهُ كاهني ومعلمي الموقر. الغريب أنني كنت أحمله معي أينما ذهبت، ولكن بعد أن أصبحت أعيش داخل المدرسة كان لدي شعور غامض بأن الاحتفاظ به هناك بشكل دائم سيكون خيانة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للاسم المقدس وأيضًا عدم احترام للمدرسة؛ وأنه سيكون نوعا من التطفل لشيء من الماضي على أجواء الحاضر. أيقنت أنه ما عاد بوسعي الاحتفاظ به، بيد أني لم أستطع التخلي عنه. ووقعت في حيرة شديدة.

في نهاية الأسبوع ذهبت لزيارة السيدة ساتو. كان اليوم يوافق التاسع والعشرين من الشهر. كنا نخيط، وقد نقلت وسائد جلوسنا قرب الأبواب المشرعة المطلة على الحديقة. لحظتها توقفت عن الخياطة واستغرقت في التفكير، وعيناي تحدقان بلا تركيز في ممر من الحجارة يمتدّ بين تلين صغيرين ويلتف حول فانوس حجري كبير قبل أن يختفي بين الأكمات.

سألتني السيدة ساتو: «بماذا تفكرين يا إتسو سان سان؟ يبدو عليك القلق؟».

استدرت، رأيت قلقًا حقيقيًا على وجهها. وربما بسبب كل ما مررت به من تغيرات، بدأ تكتمي يخبو. على أي حال، أخبرتها عن مشكلتي، وفي الحال أبدت تعاطفاً كبيرًا.

قالت: «أشعر بالخجل لعدم وجود معبد مقدس لنا، وليس لدينا عذر حتى بأن نكون مسيحيين. نحن لا شيء. أصبح حال الناس في الآونة الأخيرة ينحو نحوَ الغرب، وليس لدينا حتى ركن منزلي للعبادة. ولكن يوجد واحد في بيت الراهبة في نهاية الحديقة».

كررت ما قالته في دهشة كبيرة: «بيت الراهبة في نهاية الحديقة!».

فأوضحث أن الأرض التي يعيشون عليها كانت ذات يوم تنتمي إلى معبد قديم تولّث الكاهنات زمام أموره، والذي أصبح معدماً بسبب تغيرات العصر. بِيعَ العقار إلى الرائد ساتو بشرط، أن يُبقِي كوخا صغيرا من القش، كان لخادم المعبد يوماً، ليكون منزلاً لراهبة عجوز جدًا وجليلة جداً، والتي كانت ترغب في قضاء حياتها في هذا المكان العزيز. في ذلك المساء ذهبنا لرؤيتها، مشينا على المنحدرات بين التلال الصغيرة وحول الفانوس الحجري إلى حيث لمحت من بين أوراق الشجر، منزلًا صغيرًا محاطًا بسياج قصير من الأكمات. كان ضوء الشموع الخافت يتلألأ خلف الأبواب الورقية، وسمعت الصوت الناعم «طن-طن، طن-طن» المألوف للطبل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخشبي والترديد الخافت للكلمات البوذية. حنيتُ رأسي، وفي الظلام اغرورقت عيني بدموع الحنين إلى الوطن.

فتحت السيدة ساتو بوابة الخيزران المتواضعة.

نادت برقة: «عذرًا، هل يمكننا الدخول؟»

توقف الشدو. انزلق الباب إلى الوراء، ورحبت بنا راهبة مسنة ترحيباً حاراً، وهي ذات مظهر رقيق، ترتدي رداءً قطنياً رمادياً.

كانت الغرفة مؤثثة أثاثا بسيطًا. عدا جانباً واحداً حيث يقف ركن المعبد الجميل جدا والمطلي بطلاء ذهبي حال لونه بفعل السنين ودخان البخور الدائم. وضعت كومة من كتب الترانيم البالية أمام بوذا المذهب، إضافة إلى الطبل الخشبي الصغير الذي سمعناه.

كانت الراهبة لطيفة وحلوة مثل جدتي، وكان سهلًا عليَ أن أشرح مأزقي وأريها الورقة التي تحمل الاسم المقدس. رفعته إلى جبهتها، أخذته إلى الركن المقدس ووضعته باحترام أمام بوذا. ثم أقمنا طقوسًا بسيطةً، كتلك التي اعتدنا عليها في غرفة جدتي الجليلة، وحين غادرتُ تركتُ الورقة الثمينة في الركن المقدس. بعد ذلك، وفي آخر جمعة من كل شهر، كنت أزور الراهبة المقدسة وأستمع إلى صوتها الناعم وهي تردد ترانيم الطقوس في ذكرى وفاة والدي.

---

(28). لا يوجد في اللغة اليابانية أسماء للأصوات كالمواء مثلا أو الصهيل ولذا نلاحظ أن الكاتبة تستخدم مقاطع صوتية عوضاً عنها.

(29). عبارة عن قطع طويلة ومستطيلة من القماش.

(30). هو اسم نذر احتفالي أو بوذي يعطيه الكاهن للمتوفى. عادة ما يتم اختيار الاسم من قبل الكاهن ويستند إلى حياة المتوفى وشخصيته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دروس

كان المفترض أن يكون وقت دراستنا في المدرسة مقسماً بالتساوي بين تعلم اللغة الإنجليزية وتعلم اليابانية، ولكن وبما أن قدراتي في اللغة اليابانية قد أسست منذ طفولتي؛ صار بوسعي أن أبذل قصارى جهدي في اللغة الإنجليزية. كانت معرفتي بهذه اللغة محدودة للغاية. جل ما أتقنته منها قليلاً من القراءة والكتابة، أما مهارة التحدث فكانت الأصعب حيث بالكاد فُهِمَ ما أنطقه. بيد أني قد قرأت عدداً من الكتب الإنجليزية المترجمة - التي احتوت على ما هو أكثر قيمة من أي شيء آخر - أحضرها لي والدي من العاصمة عندما كنت طفلةً، واكسبتني بعضا من المعرفة المتناثرة. كانت ترجمات، جُمِعَتْ من مصادر مختلفة ونشرتها إحدى دور الكتب التقدمية في طوكيو.

لا أعلم صاحب فكرة ترجمة تلك المجلدات العشرة الصغيرة القيمة، ولكن أيا من يكون فله شكري وامتناني الخالص. فقد فتحت لعقلي المتعطش أول نافذة من النور أطللت منها على عجائب العالم الغربي، وقادتني إلى عدد لا يحصى من الأصدقاء والرفاق الذين أدخلوا لحياتي، في السنوات التي تلت ذلك، ثروة من المعرفة والسعادة لدرجة أنني لا أستطيع التفكير فيما كانت ستكون عليه الحياة بدونهم. أتذكر اليوم الذي وصلتني فيه: ذهب أبي في إحدى رحلاته التي أسماها «إطلالة نحو زمن الازدهار». كانت تلك الرحلات حدثًا مهمًا في حياتنا، لأنه يعود محملاً ليس بالقصص الرائعة عن رحلته وحسب، بل بالهدايا والأشياء الغريبة والجميلة أيضًا. قالت أمي إنه سيعود إلى المنزل نهاية النهار، فقضيت فترة ما بعد الظهيرة جالسةً على درج الشرفة أراقب ظلال أشجار الحديقة تتمدد رويدا رويدا. كنت قد وضعت قبقابي الخشبي المرتفع على نقطة انطلاق على حافة أطول ظل، وكلما زحفت الشمس أبعد، نقلته من حجر إلى حجر. أعتقد أنه كان لدي إحساس غامض أن بوسعي أن أحيل الظل المنحرف إلى خط مستقيم طويل لأعجل بغروب الشمس. وأخيرا، وقبل أن يستقيم الظل تماما، انتزعت على عجل القبقاب وقعقعت به عبر الحجارة، لأنني سمعت صرخة رجل الجينريكشا «أوكايري!»(31) خارج البوابة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مباشرة. بالكاد استطعت تحمل فرحتي، وأشعر الآن بوخز من الندم عندما أتذكر كيف دفعت القبقاب بشكل ملتوٍ في صندوق الرفوف المرتب في كوة «خلع الأحذية» في المدخل.

في اللحظة التالية، وصل الرجال، وهم يتصببون عرقاً ويضحكون، يهرولون إلى الباب حيث اجتمعنا والخدم جميعًا، وحنينا رؤوسنا نحو الأرض، وكلنا في أوج من الإثارة والبهجة، ولكن بكل تأكيد ألقى الجميع بجدية كلمات التحية المناسبة. بعد ذلك، ألقيت التحية عليه، وعلقت بين ذراعيه ومضينا إلى الجدة المحترمة، التي كانت الوحيدة في الأسرة التي تنتظر في غرفتها وصول سيد المنزل.

كان ذلك اليوم هو أحد معالم الذاكرة في حياتي، لأنه ومن بين كل الأشياء الرائعة والجميلة التي أحضرت في صناديق خشب الصفصاف المستقرة على أكتاف الخدم كانت تلك المجموعة من الكتب والتي بوسعي رؤيتها الآن. عشرة مجلدات صغيرة من الورق الياباني القاسي، مربوطة بشريط حريري «حكايات البحار الغربية». احتوت على مقتطفات من «تاريخ العالم لبيتر بارلي» و «القارئ القومي» و «قراء ويلسون» وزخرت بالقصائد والحكايات القصيرة لمؤلفين كلاسيكيين في الأدب الإنجليزي.

استولى علي سحر البهجة الذي تسبغه الأشياء النادرة من تلك الكتب طوال أيام وأسابيع، بل شهور وأعوام. بوسعي إلقاء صفحات كاملة منها الآن. ثمة قصة مشوقة عن كريستوفر كولومبوس. لم تترجم نصيًا، وإنما كُيفت حتى يمكن للنفس اليابانية أن تدرك الفكرة بسهولة دون أن تُدفن في كتلة محيرة من العادات الغريبة. سيقت جميع حقائق الاكتشاف الرائع بأمانة، ولكن صُوِّرَ كولومبوس كصياد شاب، وفي مكان ما في القصة يظهر صندوق من اللك وزوج من عيدان تناول الطعام!

أصبحت هذه الكتب مصدر إلهام لي طوال سنوات طفولتي، ولاحقا حين درست اللغة الإنجليزية في المدرسة، بدأ عقلي الأخرق يدرك حقيقة أن ثمة تتمة مستترة وراء تلك الكلمات الغامضة لقصص ألممت بها، وأحداثا مماثلة لتلك التي قرأتها في الكتب القديمة التي ألفتها وأحببتها كثيراً، كانت فرحتي غير محدودة. عندئذ بدأت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في القراءة بلهفة. كنت أنحني على مكتبي، وأستعجل، أخمن، وأتخطى سطوزا كاملة، وأتعثر، ومع أن معجمي مفتوح على دفتيه بجانبي، إنما لا متسع من الوقت لدي لأبحث فيه، ولكن بعدها، وعلى نحو عجيب، ألتقط الأفكار. ولم أكلّ أبدا. كانت فتنة شبيهةً بحفلٍ لمشاهدة القمر، إذ بينما كنا نراقب القمر من موضع على التلال، أقبلت سحابة طافية فحجبت القرص البهي، ونحن -صامتون، نرتجف توقًا- ننتظر مجد اللحظة القادمة. وعين الأمر، فإن فكرةً نصف مستترة -مراوغة ومحيرة- ستغمرني بأمل عريض بأن النور آت في اللحظة التالية. شيء آخر عن الكتب الإنجليزية هو أنني، أثناء قراءتي، كانت تتكشف لي بلا انقطاع ردود غامضة على أسئلة طفولتي التي لم تُجَب. أوه، كانت الكتب الإنجليزية مصدر سعادة غامرة.

أخشى أنني لم أكن لأكون مثابرة جداً، أو ناجحة جداً في دراستي للغة الإنجليزية، كان بإمكاني الحصول بسهولة على ترجمات من الكتب التي كنت أتوق لقراءتها. كانت مكتبات طوكيو في ذلك الوقت تغرقها ترجمات لكتب إنجليزية، وفرنسية، وألمانية، وروسية. ولكنها بشكل عام، إن لم تكن بحوثاً علمية وهي الأغلب، فإنها كلاسيكيات مترجمة، من قبل أفضل كتابنا؛ لكنها كانت باهظة الثمن ومن الصعب عليّ الحصول عليها بأي طريقة أخرى. كانت الكتب الموجودة في مكتبة المدرسة هي موردي الوحيد، حتى لو كانت قراءتي متعثرة، أصبحت واحدة من أعظم ملذاتي.

كانت مادة التاريخ مفضلة لدي على جميع المواد الأخرى بعد اللغة الإنجليزية، وقد أحببت وفهمت أفضل الكتب التاريخية للعهد القديم. كانت اللغة التصويرية تشبه اليابانية. ولأبطالهم القدامى ذات فضائل قدماء الساموراي وذات نقاط ضعفهم. وحكومتهم كحكومتنا ذات هيكل أبوي، ونظام الأسرة يصور بوضوح نظام عوائلنا، لدرجة أن معنى العديد من المقاطع العسيرة الفهم كان أكثر وضوحًا لي من تفسيرات المعلمات الأجنبيات.

في دراستي للأدب الإنجليزي، يبدو من الغريب أنه من بين كل عيون الأدب الإنجليزي التي ألممت بها، فإن الوحيدة التي بقيت صورتها حية في ذهني هي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صورة «دورا» لتينيسون. ربما يعود ذلك إلى أن كاتبا يابانيا مشهورا بنى روايته عليها وتسمى «تانيما نو هيميوري»، أي (زنبق الوادي). قصة دورا، هي حكاية عن الولد البكر لعائلة أرستقراطية، حُرِمَ من الميراث لأنه وقع في حب فتاة قروية من الطبقة المتواضعة؛ وتتناول المأساة التي حدثت بعدها، الناتجة عن الاختلاف في المستوى التعليمي والثقافي بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، كانت حكاية معتادة ومفهومة لنا، وقد كتبها كاتبها بمهارة، بكلمات تصويرية بديعة، وبتكييف الحياة والأفكار الغربية مع الظروف اليابانية.

ظهرت (زنبق الوادي) في الوقت الذي بدأت فيه العقول الشابة في اليابان، سواء من الطبقات الرفيعة أو المتواضعة، في السعي إلى التحرر من الفلسفة الرواقية، التي كانت لقرون جوهر التعليم التربوي، فلمست قلب القراء. انتشرت الرواية بعاصفة شعبية في كل أنحاء البلاد، وقرأها الناس من كل الطبقات رجالهم ونساؤهم؛ وهو أمر غير اعتيادي. يقال إن صاحبة الجلالة الإمبراطورة اهتمت بقراءتها لدرجة أنها عكفت عليها طوال الليل بينما جلست سيدات بلاطها صامتات في الغرفة المجاورة منتظرات بضجر. على ما أظن أنه كان عامي الثالث في المدرسة حين عمَّت طوكيو موجة من الإثارة بسبب قصص الحب. كانت جميع التلميذات مهتمات للغاية، وإذا ما وجدنا ترجمة، مررناها من يد إلى أخرى في كل المدرسة. لكن في الغالب كان علينا أن نناضل لقراءتها باللغة الإنجليزية، ونختار مشاهد الحب من الروايات والقصائد في مكتبة مدرستنا. كان إنوك آردن(32) بطلنا. كنا على دراية بالولاء والتضحية من جانب الزوجة، وفهمنا تماماً لماذا توجب على آني أن تصمد طويلاً أمام تقدم فيليب، كانت درجة الإيثار لدى إنوك المخلص نادرة جدًا فحاز على موضع تقدير كبير منا.

في هذه المناسبة، طُلب مني إعداد مقال من ثلاث صفحات باللغة الإنجليزية، يتضمن إحدى الفضائل الأساسية لموضوع ما. لقد احترت هل أختار الإيمان، أم الأمل، أم المحبة، أم الحب، أم الحصافة، أم الصبر. ولكن بعد أن تذكرت عدد المرات التي استشهد فيها معلم الكتاب المقدس لدينا بعبارة «الرب محبة»، شعرت أن لدي أساساً متيناً، ولذلك اخترت موضوع «الحب». لقد بدأت بحب الإله الأب، ثم وبتأثير من قراءاتي المتأخرة، أخشى أني انسقت، بشكل مبهم إلى حد ما، إلى تأثير الحب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على حياة الشخصيات المشهورة في التاريخ والشعر. لكنني لم أكن أجيد التعامل مع موضوع محرج إلى هذا الحد، لم أكن متأكدةً من كيفية التعامل مع مثل هذا الموضوع الدقيق وقد استنفدث معرفتي ومفرداتي قبل وصولي للثلاث صفحات. ومع ذلك، فإن التزامي بواجبي لا مناص منه، فكتبت، واختتمت أخيرًا بهذه الكلمات: «الحب مثل العقار القوي يمكن أن يكون منشطًا لطيفًا عند استخدامه بشكل صحيح، وأحيانًا يساعد في إنقاذ الأرواح؛ ومع ذلك يمكن أن يدمر بلدانا بأكملها عند استخدامه بشكل غير صحيح، كما يتضح من وفاة كليوباترا والإمبراطورة المحبوبة للإمبراطور جينسو من الصين العظمى».

في ختام قراءتي للمقال، قال أحد المعلمين: «يكاد هذا أن يكون ازدراءً». لقد مرت سنوات قبل أن أفهم ما يعنيه ذاك النقد. شغل اهتمامي الكبير بقراءة اللغة الإنجليزية لفترة من الوقت كل ساعات فراغي، ولكن جاءت فترة تاق فيها قلبي لقصص اليابان القديمة العزيزة، فكتبت إلى والدتي أطلب منها أن ترسل لي بعض كتبي من بيتنا. اختارت أمي رواية كلاسيكية شعبية تسمى «هاكيندين» والتي أعجبتني بالذات وقد نَجَحَت بجهد كبير في الحصول على نسخة مغلفة في الخارج تتكون من مجلدين سميكين وأرسلتها لي من بين كتب أخرى. إنها أطول رواية مكتوبة باللغة اليابانية، ونسختنا، تتألف من 180 مجلدا وهي موثقة باللغة اليابانية ومصورة بعناية. استقبلت هذه الكتب بفرح، وتفاجأت عندما قام أحد المعلمين بأخذها مني حين رآها في رفيَ الخاص بالكتب، قائلا إنها ليست مناسبة لي.

بالنسبة لي، كان كتاب «هاكيندن»، برمزيته البديعة، من أكثر الكتب التي قرأتها إلهامًا على الإطلاق. كتبه الروائي والفيلسوف العظيم باكين في القرن الثامن عشر، وبسبب موسيقية الكتابة ومدى رفعة المُثل، قارنها العديد من اليابانيين بـ «الفردوس المفقود» لميلتون و «الجنة المفقودة والكوميديا الإلهية» لدانتي.

كان المؤلف من أشد المؤمنين بنظرية تناسخ الأرواح الغريبة، وقد بنى قصته على هذا الاعتقاد. تدور أحداث القصة حول الدايميو ساتومي، الذي كان، مع أتباعه، صامدين داخل القلعة ضد جيش محاصر وهم موشكون على الموت جوعاً. ولإدراكه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن قوة عدوه تكمن في قائدهم الباسل، أقدم يائسًا على تقديم كل ما يملك، حتى ابنته الغالية، لمن يقضي على قائد العدو. وكان لساتومي كلب ذئبي مخلص وسيم، يُدعى ياتسوبوسا، انطلق للبعيد، وفي صباح اليوم التالي ظهر أمام سيده حاملاً رأس عدو ساتومي من شعره الطويل. وبهلاك قائدهم، زُجّ بالعدو في حالة من الارتباك، وقام محاربو ساتومي بالاندفاع كالإعصار لدحرهم. وهكذا عاد الإقليم إلى حالة من السلام والازدهار. شعر ساتومي بعدها بمرارة الندم على ما وعد به لدرجة أنه أصبح يغضب لمجرد رؤية الحيوان المخلص الذي يدين له بالنصر. بيد أن ابنته الجميلة الأميرة فيوز أشفقت على الحيوان المغبون.

قالت إن كلمة الساموراي، لا رجوع عنها، وواجبي يحتم عليّ الحفاظ على شرف كلمة والدي. فرحلت الابنة البّارة مع ياتسوبوسا إلى كهف جبلي حيث قضت وقتها في التضرع للآلهة لإحلال الروح في الحيوان الشجاع؛ ومع كل تمتمة صلاة دنت طبيعة ياتسوبوسا الأبكم الشهم إلى حدود الفطنة البشرية. ذات يوم قدم إلى الجبل خادم مخلص لساتومي فرأى داخل الكهف، الأميرة فيوز جالسة أمام الركن المقدس تحمل كتابًا مفتوحًا وأمامها، كالتابع المخلص، جلس ياتسوبوسا يسمع بإنصات برأس منحنٍ إلى الكلمات المقدسة. رفع الخادم بندقيته وأطلق النار معتقدًا أنه يقوم بعمل نبيل، قاد القدر الرصاصة، الخاطفة القوية، لتمر حالًا عبر جسد ياتسوبوسا وبعدها اخترقت قلب الأميرة فيوز. في تلك اللحظة، فاضت روح الأميرة المحررة من جسدها، كثمانية نجوم لامعة في ضباب عائم، وطفت بسكون عبر السماء إلى أركان العالم الثمانية. كل نجم كان فضيلة: الولاء، الإخلاص، بر الوالدين، الصداقة، الإحسان، النزاهة، الكياسة، الحكمة. قاد القدر كل نجم إلى منزل بشري، وبمرور الوقت، وُلِدَ صبيّ في كل من هذه المنازل. وحين تفتحت زهرة رجولتهم، جمع القدر الشباب معًا، وأصبحت الفضائل الثمانية التي وُحدت أتباعًا شجعاناً، من خلالهم تمجد اسم ساتومي. وهكذا كرمت روح الابنة اسم والدها.

لم أتمكن من فهم وجه الاعتراض على قصة استثنائية، مليئة بالرمزية النبيلة، في حين قرأتُ العديد من الخرافات والحكايات الخيالية المجسدة للحيوانات في الأدب الإنجليزي، بلا أي اعتراض. لكن بعد الكثير من التأمل، خلصت إلى أن الأفكار،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مثل اللغة، في أحد جوانب العالم مباشِرة وحرفية؛ بينما في الجانب الآخر، غامضة، صوفية، وحالمة.

في نهاية حياتي المدرسية، أعيدت كتبي الأثيرة إلي. وهي ما تزال لديّ إلى الآن - مهترئة ومتقطعة ومتخلخلة- وما زلت أحبها. وتعلمت مع مرور الوقت، أن أحب كل شيء تقريبًا في مدرستي - حتى العديد من الأشياء التي كنت أحسبها في البداية صعبة جدًا؛ ولكن ثمة شيئا واحدا استمتعت به منذ البداية من كل قلبي. كان مبنى المدرسة محاطًا بأراضٍ كبيرة ذات أشجار عالية. وبالقرب من المدخل الرئيسي توجد حديقة صغيرة أعتنيَ بها كثيراً، ولكن خلفها ثمة امتداد واسع من الحشائش والشجيرات غير المشذبة. لم تكن هناك فوانيس حجرية، ولا بركة بأسماك ذهبية، ولا جسر منحنٍ، إنما أشجار كبيرة ذات أغصان طليقة، وأعشاب سائبة، تنمو بحرية.

كان من المفترض أن تكون إحدى جوانب الحديقة في منزلنا برية. كانت الأشجار ملتوية مثل أشجار الصنوبر الجبلية التي تهب عليها الرياح، وتميزت أحجار الممشى بمسار غير منتظم على الأرض المغطاة بأوراق الصنوبر، وكان السياج من خشب أرز ينمو بين أعواد غير مستوية من الخيزران المقسوم، والبوابة من خشب كث مربوط بخيوط خشنة. لكن شخصًا ما انشغل دوماً بقص أشجار الصنوبر أو تشذيب السياج، إنه جيا. يكنس الحجارة في كل صباح، وبعد أن ينظف تحت أشجار الصنوبر، ينثر أوراق شجر الصنوبر الخضراء بعناية بعد أن جمعها من الغابة. وهكذا تُقمع الطبيعة البرية بلا توقف هناك، أما هنا في المدرسة، فترك كل شيء زاهٍ على طبيعته من غير قيد. لقد نعمت بذلك وسعدت به غاية السعادة، لدرجة أن حقيقة إمكانية حلول سعادة كتلك بقلب إنسان، أدهشتني. قسم المعلمون أحد أجزاء تلك الأرض البرية إلى حدائق صغيرة، وسلموا كل فتاة جزءًا وقدموا لنا أي نوع شئناه من بذور الزهور، فخبرنا فرحة مختلفة. لقد أحببت حقا ترك الأشجار لتنمو بحرية، والعشب الذي وسعني المشي عليه حتى بحذائي؛ بيد أن هذه الحديقة التي حملت اسم «ازرع ما تحب» منحتني شعورًا جديدًا بالحق الشخصي. أنا، حرة في التصرف دون أن أكسر أي تقاليد، أو أشوّه اسم عائلتي، أو أصدم والديّ أو المعلمين أو الجيران، أو أتسبب في أي ضرر لمحيطي. لذا، بدلاً من أن أسيج حديقتي بسياج قصير من الخيزران

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

مثلما فعلت معظم الفتيات، ذهبت إلى المطبخ وأقنعت الطباخ بإعطائي بعض الأغصان الجافة التي كانت تستخدم لإشعال النار. ثم سيجت حديقتي بسياج بدائي بسيط، وفي حديقتي، زرعت البطاطس بدلاً من الزهور. لا يمكن لأحد أن يتخيل مدى ما وهبتني إياه تلك التجربة البسيطة من شعور بالانعتاق والمجازفة ولا مدى تأثيرها، لقد حررت روحي ووقفت هناك أستمع إلى روح الحرية التي طرقت على بابي من خليط غريب من الابتسامات الصادقة والسلوكيات العفوية، والكلمات والأفكار الصريحة، ومن أشجار وأعشاب لم تمسها يد.

---

(31). عودًا حميدًا.

(32). إنوك أردن قصيدة سردية كتبها اللورد تينيسون، نُشرت عام 1864.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كيف أصبحت مسيحية؟

رغم أني كنت محاطةً بالحب والرعاية في منزلي في ناجاوكا، إلا أن عقلي لم يتوقف بتاتًا عن طرح الأسئلة. إذ تطورت مداركي من خلال تعلمي للكهانة، لكنني تبرعمت في محيط خانق، إذ أن جو منزلنا المحافظ ترك أثره على نفسي فلم أبح بأعمق أفكاري لأحد حتى لأبي، رغم آرائه المنفتحة حول أمور تعليمي.

كسرت ذلك الصمت بين الفَينةِ والفَينةِ رغم ذلك، وذات مرة، بعد أن أكثرت من انحناءات الوداع للضيوف المغادرين لاحتفال الذكرى المئوية الثالثة لوفاة أحد الأجداد سألت:

«أبي المحترم، من يكون أول جد لنا، بداية أسلافنا؟»

رد أبي بصرامة: «ابنتي الصغيرة، هذا سؤال متعجرف لا يجدر بفتاة متعلمة أن تطرحه، لكنني سأصدقكِ القول وأقول لك كما قال كونفوشيوس العظيم لتلميذه ردا على هذا السؤال بالذات، أنا لا أعرف. ما من معرفة بالحياة لدينا».

كنت صغيرةً جدًا، لكنني أدركت تمام الإدراك أنني يجب أن أكون أكثر رقة وأنوثة في استفساراتي، وألا أطرح أسئلة جريئة كالصبيان.

بيد أن الوقت الذي أمضيته في المدرسة في طوكيو ترك أثره عليّ خفية. ودون وعي مني تغيرت، وغدوت شيئا فشيئا أرى بأن طرح الأسئلة لم يكن سوى جزءاً طبيعياً من النمو. ثم بذلت جهدا للتعبير عن بعض أفكاريَ الخاصة لأول مرة في حياتي.

عندها ولأول مرة في حياتي، حاولت أن أصف بالكلمات خبيئة نفسي. شجعتني معلماتي على ذلك بلطف. وبمرور الوقت، أدركت أكثر فأكثر مدى حكمتهن كنساء، وزادت ثقتي بهن، ليس هذا وحسب، بل إن قدرتهن على إلهام السعادة غيرت نظرتي للحياة تماما. نعم كانت طفولتي سعيدة، لكن لم تشهد خفقة من خفقات قلبي قط ما يسعني أن أسميه بالفرح. اعتدت النظر إلى القمر بدراً مبحراً في سماء دامسة الظلمة، بجذل القلب الياباني الحالم، إنما كمُنَ على الدوام بداخلي هاجسٌ يلقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بذرة حزن على كل فرح، فأهمس «سيخفت الليلة». كنت أرى الزهور فأبتهج، بيد أني أتنهد دومًا، أثناء عودتي إلى المنزل، هامسة لنفسي: «ستسقط الأزهار الجميلة قبل أن تهب عليها رياح الغد.» وكان ذلك حالي مع كل الأمور. في لجة الفرح أبحث في داخلي بلا وعي عن خيط من الحزن. وقد عزوت نزعة الهوس تلك إلى التعاليم البوذية في طفولتي. لأن هناك أثرا من الحزن اليائس يتسم به الفكر البوذي بكليته.

ولكن حياتي المدرسية نفخت في روحي نسمة عليلة من الفرح. تلاشت على إثرها تلك النزعة نحو الكآبة في داخلي؛ حين بدأ تحفُّظي الذي أمسكني مثل الكماشة ينزاح. لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؛ لأن المعلمات، سواءً كن يعملن أو يلعبن أو يضحكن أو حتى يوبخن، لا يفتأن يدهشنني. بينما كانت الدهشة في داري نادرة، فالناس ينحنون ويمشون ويتحدثون ويبتسمون تماماً كما كانوا ينحنون ويمشون ويتحدثون ويبتسمون بالأمس واليوم الذي قبله وفي كل الأوقات الماضية. أما هؤلاء المعلمات المذهلات فلم يكنّ أبداً كذلك. كن يظهرن بطرق مختلفة، فحتى نبرة صوتهن وأسلوبهن يختلف باختلاف من يتحدثن إليه، وذلك كان عامل جذب متجدد، فتمثلتهن أزهار كرز.

يحب اليابانيون الزهور التي تحمل لهم معنى. لقد عُلِّمتُ منذ طفولتي أن البرقوق، الذي تنبجس أزهاره بجرأة عبر ثلوج أوائل الربيع، هو رمز لتحمل مشقة الواجب لذا فزهرته هي زهرة العروس. أما جمال الكرز فلا يذوي أبداً، إذ أن أخف هبّة من النسيم كافية لتحوّل بتلاته اليانعة العطرة إلى جمال آخر من غيوم طافية زاهية، والتي تتحول بعد ذلك إلى سجادة من أصداف بيضاء وزهرية رقيقة، شأنها كشأن معلماتي اللواتي لا يفتأن يتغيرن ويزددن بهاءً.

رغم أني أدركت الآن أن انطباعاتي الأولى عن المرأة الأمريكية اتسمت بالغلو، إلا أنني لم أندم على ذاك التصور المثالي، وذلك لأنني تبينت من خلاله الحقيقة المأساوية؛ وهي أن المرأة اليابانية شأنها شأن زهرة البرقوق، متواضعة ولطيفة وتتحمل الصعوبات والظلم دون شكوى على الأغلب، بيد أن كل تضحياتها بلا طائل، بينما المرأة الأمريكية تقدر ذاتها، حرة بلا قيد، تجيد التغير والتكيف مع الظروف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتغيرة، وملهمة لكل من حولها، لأن شأن حياتها شأن زهرة الكرز، تزدهر في الطبيعة الحرة.

نما ذاك الفهم شيئًا فشيئًا. ونمت معه الكثير من التساؤلات الصامتة. وعلى غرار كل اليابانيين، عرفت منذ أن كنت طفلة صغيرة أن النساء أقل شأنًا من الرجال. لم أشكك في ذلك أبداً، فذلك مصير لا مناص عنه، لكن كلما كبرت، رأيت كيف أن هذا «المصير» لا يجر سوى المعاناة والإساءة للأبرياء، فوقعت في حيرة طفولية فجة، من تلك السلطة النافذة القاسية. ثم جاء أخيراً يوم ظهر فيه تمرد قلبي علنًا.

تعرضت والدتي لنوبات من الربو من حين لآخر، منذ الأيام الصعبة قبل الإصلاح، وكنا جميعًا مؤمنين بأنها كانت بسبب ذنوب مستترة ارتكبتها في وجودها السابق. سمعتها تلهث ذات مرة بعد نوبةٍ لا تُطاق: قائلة «عليّ تحمل قدري». ركضتُ إلى (إيشي) وسألتها بغضب: «لماذا يسبب القدر المعاناة لوالدتي؟»

أجابتني وعيناها تفيضان بدموع الشفقة: «ذلك لأنها امرأة ليس بيدها تفادي القدر، عليك أن تتمالكي نفسك يا إتسو-بو سما. فسيدتي المحترمة لا تتشكى. وهي فخورة بقدرتها على التحمل بصمت». كنت صغيرة جدًا على فهم ذلك، ولكن اشتعلت روحي تمردًا على القوة الغامضة الظالمة، فألقيتُ بنفسي في حضن إيشي، وتمسكت بها بتشنج، وتوسلت إليها أن تقص عليّ قصة سريعة عن قعقعة السيوف وتراشق السهام وقتال الأبطال وانتصارهم.

لم يُعلّم الأطفال اليابانيون أن كتمان ما اعتلجت به نفوسهم من مشاعر وأفكار ثائرة، إنما هو إثم في حق الآلهة. لذلك نما السخط في داخلي. ومع نموه تسلل إليه رويدًا رويدًا فضولٌ امتزج بحيرة شديدة، فتساءلت لماذا يتحتم على أمي وإيشي أن يرضخن للمشقة والعذاب بلا جريرة ولا ذنب بإخلاص وصبر، -ذلك، بالطبع، مقتضى وضعهن كنساء-، إنما بفخر! هتف هاتف بداخلي أنه مهما بلغت طاعتهن، فلا بد لقلوبهن أن تتمرد. إلا أنني رأيتهما تتكبدان اللوم على أمر لم تتسببا فيه. كنت أكثر سخطًا من المعتاد لأن هاتين المرأتين النبيلتين ستُفعِنان في إذلالِ نفسيهما وذلك ما امتعضت منه بشدة، أكثر مما رسمته يد القدر القاسية.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يكن هذا الفكر واضحا في ذهني آنذاك بكل تأكيد. ثم ولسنوات بعد ذلك، كانت فكرتي عن القدر -لأنني آمنت إيمانًا راسخًا به - أنه قوة متقلبة غامضة وهائلة، وسخطت منه غاية السخط.

ثم حدث أمر آخر محير. ومن الغرابة أن ذلك الحدث وقع حينها، فقد كانت تلك الفترة هي أيام التهوية في منتصف الصيف وهي أكثر ما يحمل السعادة والراحة لي في السنة بأكملها. حينما تُفرَغ المخازن، وتمدُّ الحبال الطويلة تحت أشعة الشمس، وتعلق عليها رايات بالية تحمل شعارنا، وستائر ميدانية قديمة استخدمت في معسكرات أسلافنا، وشعارات قديمة لحراس المنزل، والعديد من الملابس ذات الأشكال الغريبة التي تنتمي إلى ما أسمته حكايات إيشي الخيالية «في قديم قديم الزمان». وتحت الأفاريز المنخفضة، ثمة أكوام من دروع الخيول المتخلخلة المربوطة بحبال باهتة من الحرير الملتوي، وأسلحة حرب قديمة -رماح، وفؤوس قتال، وأقواس، وحزم من السهام- في زوايا الحديقة البعيدة. استخدمت كل المساحات، حتى أعمدة القناطر والفوانيس الحجرية كانت مزينة بدروع مزرودة وخوذات ذات أقنعة مخيفة مطلية بطلاء لامع.

أحببت أجواء تلك الكركبة، كان أبي يصحبني للتجول خلالها، يريني الأشياء ويشرح لي كيفية استخدامها، ثم نحاول الدخول عبر القاعات المزدحمة بعد أن عرقنا وزغلت الشمس عيوننا فنتعثر هنا وهناك. متجهين إلى غرفة جدتي المحترمة إذ يبدو أنها المكان الوحيد الذي سلم من كل تلك الفوضى. أما باقي الأمكنة فقد انهمك فيها الخدم بالتنظيف أو الطي أو النقل وهم يتجاذبون أطراف الحديث بمرح. إن أيام التهوية تلك، على الرغم من ارتباطها بالعمل الشاق، إلا أنها كانت بمثابة كسر للرتابة وموعد للبهجة في منزلنا وطالما رحب بها الخدم بحرارة. حين وصلنا أنا وأبي إلى غرفة جدتي المحترمة ألفينا أنفسنا فجأة بمنأى عن كل البلبلة، في مكان بارد وهادئ. بوسعي أن أرى أبي الآن، حين أغلق الباب خلفه، بتنهيدة ارتياح، ودفع الوسادة المقدمة له جانبًا، وانحنى انحناءة شكر لجدتي المحترمة وجلس على بساط من القش البارد بجانب الأبواب المفتوحة المطلة على الحديقة البرية، يتلقى النسيم ويتحدث مع الجدة المحترمة عن الأزمنة الغابرة.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ذات مرة، وبعد وجبة الغداء المكونة من حساء الحوت الساخن والباذنجان والتي كانت تقدم دائما في أيام التهوية، ذهب أبي رأسا إلى غرفته. كنت أسرع وراءه عندما رأيت جيا وخادماً آخر يلبسان ملابس خاصة بالطقوس، يعبران الحديقة من المنزل. كانا يحملان، بوقار، صندوقاً من الخشب الأبيض على صورة صناديق كتب المعابد، رُبط بحبل من القش تتدلى منه أوراق الشنتو(33)، ورسم شعارنا في مقدمة الصندوق الكبيرة جداً. في كثير من الأحيان كنت أرى ذلك الصندوق في المخزن، يقف وحيدًا على منصة من الخشب الأبيض. في داخله إرث عائلي، يصل عمره لقرون. كان الرجال في طريقهم إلى غرفة بعينها قامت أمي بإعدادها لذلك، حيث سيُفتح الصندوق في صمت، ويفحص رجال يلبسون ملابس الطقوس الأشياء المقدسة بعناية.

جلست بلا حراك على حافة الشرفة، لأنني كنت أعرف أن أبي سيمضي عما قريب إلى الغرفة التي أُخذ إليها صندوق الإرث، مرتديًا ثيابه الفخمة من الكاميشيمو، ولن أراه مرةً أخرى بعد ظهر ذلك اليوم. اعتدت أن أتبعه عمومًا في أيام التهوية أينما ذهب، لكن لم يسمح لي بالعبور حتى إلى عتبة تلك الغرفة. لم أتساءل لماذا. لقد كان الأمر على تلك الشاكلة. لكن عندما جلست وحدي على الشرفة بدأت أفكر، وبعد فترة بحثت عن إيشي. قلت: «إيشي يصحبني أبي إلى كل مكان، فلماذا لا يصحبني معه إلى تلك الغرفة حيث يُعَرِّضون الأشياء المقدسة للهواء؟»، ردت بأعمق نغمة واقعية، وهي تؤرجح تعليقة المبخرة الكروية قديمة الطراز: «إيتسو-بو سما لأنك فتاة ولست صبيا».

شعرت بكلماتها كعتاب شخصي، ومشيت بتمهل وبخضوع المرأة اليابانية وصبرها المتوارث نحو غرفة جدتي المحترمة. كان تحويل فكري نحو جدتي الجليلة والنبيلة خير عزاء لي، فهي التي يبجلها أبي وبقية أفراد الأسرة على حد سواء. ثم انبثق هاجس في ذهني، فجأة كأنما هبت نسمة من الرياح الباردة عليّ، وهو أنه حتى جدتي التقية لن تجرؤ على لمس الأشياء المقدسة التي كانت تستخدم لتكريم آلهة الشنتو. كانت دائما حاضرة عند الركن البوذي المقدس، بيد أن أبي هو من يرعى ركن

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الشنتو الأبيض. وأثناء غيابه، يحل جيا أو خادم آخر محله، لأنه لم تكن هناك امرأة جديرة بالتعامل مع مثل هذه الأشياء المقدسة، رغم أن إله الشنتو العظيم كان امرأة وهي إلهة الشمس!

في تلك الليلة واتتني الشجاعة لأسأل والدي عما إذا كانت والدته الجليلة امرأة بلا قيمة أيضا، شأنها شأن النساء الأخريات، تردد للحظة، ثم سألني:

«ما رأيك أنت يا ابنتي الصغيرة؟»

أجبته: «لا أظنها كذلك، أنت تعلي من شأنها لدرجة تنفي ذلك الافتراض». ابتسم ولمس رأسي برقة بيده وقال بلطف: «تمسكي بذلك الاعتقاد يا ابنتي الصغيرة، إنما لا تنسي ما تعلمته في طفولتك من تعاليم حكيمة، فهي تخلقُ تيازا نقيًا كالبلور، يتدفق عبر الأجيال، ليحافظ على استحقاق المرأة اليابانية كاستحقاق جدتك». لم أفهم ما حملته كلماته من معانٍ خفية حينها، أن المرأة بوسعها أن تكون ذات فكر مستقل ثابت على ألا تسمح بطغيان ذلك على رقة أنوثتها.

في الليلة التي خطرت ببالي تلك الفكرة، كتبت في مذكراتي: «لا تفضي التضحية التي لا طائل منها إلا إلى التحسر. بينما يفضي احترام الذات إلى الحرية والأمل».

ثمة طريق وعر خلف الجدار الجانبي لمدرستنا يمر بعدة قرى صغيرة، وحقول من الأرز وبقع من البرسيم مبعثرة في وسطه. أخذت إحدى المعلمات مجموعة منا لنزهة على الأقدام في يوما ما، مررنا بحقل أرز جاف غاص بالزهور البرية، فطفقنا نقطف الزهور بمرح ونحن نثرثر ونضحك حين مر مزارعان قرويان، كانا يسيران بتمهل ويرقباننا بفضول.

قال أحدهما: «ما الذي وصل إليه العالم؟ شابات في سن العمل يهدرن وقتهن في التجول بين الشجيرات والأعشاب البرية»!

فرد الآخر قائلاً: «لسن سوى جنادب تافهة تحاول تسلق الجبال، لكنهن سيصلين وهج الشمس الحارق. أما الشاب الذي سيختار إحداهن كعروس فلا أملك له سوى الشفقة».

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كانا رجلين فظّين وجاهلين، لكن هذا حال الرجال. وعلى الرغم من ضحكنا جميعاً، إلا أن العصر الذي قيد أم كل صبية منا لم يكن ببعيد لدرجة تمكنهن من الإفلات من ظلال من القلق، وهن يقفلن عائدات.

توقفت المعلمة حينما وصلنا إلى جدار حجري لمزار قديم استوطنته الطحالب، وأشارت إلى شجرة كرز قريبة، صغيرة ومزدهرة، منبثقة من جوف شجرة أخرى سقط جذعها العتيق وتلوى حتى لاح مثل تنين بحراشف خشنة. بجانبها ثمة لوحة خشبية كالتي توضع غالبًا في موقع فني أو ذي أهمية. نُقش عليها كلمات جميلة:

«تستمد أزهار اليوم قوتها من جذور تمتد لألف عام».

قالت المعلمة وهي تبتسم:

«إن شأن هذه الشجرة كشأنكن، لقد ورثتن يا فتيات اليوم الحضارة اليابانية العريقة بكل ما فيها من قوة وجمال، والآن من واجبكن أن تسعين نحو تطوير اليابان الجديدة وتهبنها قوةً وجمالًا أعظم مما حازته في ماضيها. تذكرن ذلك».

ثم واصلنا طريق عودتنا. وما إن وصلنا إلى البوابة الخارجية لمدرستنا، حتى التفتت إليّ إحدى الفتيات، ممن يغلب عليهن الهدوء وقالت بتحد:

«ومن قال إن الجنادب لا تتسلق الجبال في وهج الشمس».

حين أصبحت أقدّر ذاتي كامرأة، أدركت أكثر فأكثر أن ولعي بالحرية وإيماني بحقي في السعي وراءها يتجاوز مجرد القدرة على التحدث والتصرف والتفكير كما يحلو لي، ليصل إلى التحرر الروحي.

لا أعرف بالضبط متى كانت اللحظة الفارقة التي أصبحت فيها مسيحية. لم يحدث الأمر بغتة. بل كان ارتقاءً روحياً طبيعياً جدًا لدرجة أنه لم يساورني حياله أي تردد سوى بعض من الحيرة وحسب حين أنظر الآن إلى الطريق الطويل ورائي. أفضت قراءاتي، وتأملاتي الفكرية، ومشاعري إلى اغتراب روحي؛ فانجرفت تدريجيًا، وبيسر وبساطة، وأكاد أقول بلا وعي، من إيمان الفلسفة والتصوف والإذعان إلى إيمانٍ بالمُثل العليا، والحرية والبهجة والأمل. أنا لا أتحدث عن عظمة

وإعجاز هذا المعتقد الذي أعده أعظم المعتقدات، فهذا أمر يعلمه الجميع. بل عما اكتسبته من مزايا ذاتية من هذا الدين الذي تعجز الكلمات عن وصفه بأي لغة كانت.

عندما أُرسلتُ إلى المدرسة الإرسالية، لم تؤخذ حقيقة أن المعلمات من ديانة أخرى في الاعتبار على الإطلاق. نُظِرَ إليهن كمعلمات للغة الإنجليزية وآداب السلوك الأمريكية؛ لذلك عندما كتبت إلى والدتي، أطلب موافقتها على أن أصبح مسيحية، أعلم أنها تفاجأت كثيرًا. بيد أنها كانت امرأة حكيمة. أجابت: «يا ابنتي، هذا أمر مهم. أعتقد أنه سيكون من الأفضل لك الانتظار حتى الإجازة. لنتحدث معاً».

لذا أرجأتُ المعمودية، وعندما حانت الإجازة، ذهبت إلى ناجاوكا. لم يكن أهل ناجاوكا يعرفون غير القليل عن المسيحية. كان الانطباع الوحيد لدى معظمهم أن المسيحية معتقد غريب خال من الطقوس، وأنه يُطلب من معتنقيها الجدد أن يُهينوا المقدسات. وثمة نفور شديد من جاكيو، أي الهرطقة الضالة، خاصة بين كبار السن، لكن ذلك النفور لم يصل لدرجة العداوة والبغضاء. اعتبر سكان ناجاوكا قصص الشهداء المسيحيين في اليابان(34) قصصاً حزينة مضى عليها عهد. غير أنهم لم يحسوا بالروع والهلع الذي أصاب بعض مجتمعات جنوب اليابان، لدرجة أن تلك المآسي لم تنطمس رغم مرور أربعة قرون عليها.

أما أمي التي تعلمت التسامح مع آراء الآخرين من أبي، فلم يكن لديها أي تحيز ضد الدين الجديد، لكنها اعتقدت أن أعظم واجبات الأبناء والبنات في الحياة يتمثل في التقيد الصارم بطقوس عبادة الأسلاف والاحتفاء باحتفالات ذكرى الموتى. لذا كان قلبها مثقلا بالوجل عند عودتي إلى المنزل لأول مرة، ولكن عندما علمت أن عقيدتي الجديدة لا تتطلب مني إهانة الأجداد، كان ارتياحها وامتنانها بالغًا، ومنحتني موافقتها بسهولة. لكن جدتي المحترمة! جدتي الأبية المخلصة! استحال عليها أن تفهم، وأعتقد أن ارتدادي استحال أسى أبديًا لها، فأثقل ذلك كاهلي.

وحتى زيارات الأقارب والأصدقاء غدت أمرا شاقًا. إذ ساورتهم الشكوك والريبة حيالي، وفي المقابل تلبست والدتي حالة مستمرة من التبرير والاعتذار. بل وأغلقت عمة عجوز أبواب ركنها المقدس وألصقت عليه أوراقاً بيضاء لمنع أسلافنا من معرفة

أمر «اختلافي». دعتني عمة أخرى، لتناول العشاء، ولم تقدم أيا من السمك، إذ حيرها وضعي واختلافي، وظنت أني ليس بوسعي تناول الطعام المعتاد، وبعد أن اشتدت حيرتها، حزمت أمرها أخيرًا ورأت أنه ليس من ضرر إن عاملتني ككاهنة.

آلمتني هذه التصرفات من الناس الذين عرفتهم منذ نعومة أظفاري. كان بإمكاني أن أتحمل الاضطهاد بشجاعة، ولكن أن أوصم بالغرابة فهو أمر كاد أن يفطر قلبي. كم تُقْتُ إلى أبي! كان سيفهمني، صرت وحيدة وسط الجهل الساذج. لقد أحبوني بلا استثناء، لكنهم جميعًا نظروا إليّ بشفقة نظرة العاجز. فتملكني الأسى أثر ذلك في البداية، بيد أن الأشهر الثلاثة التي قضيتها في المنزل كانت كفيلة بتغيير الأمور، سواء من جهة المحيطين بي أو من جهتي. ولما عدت إلى المدرسة، عدت حاملةً احتراماً وحباً لكل المحيطين بي في داري، مثلما كانوا دائمًا، وحمدا للرب، لقد تمكنت من الحفاظ على احترامهم ومحبتهم حتى اللحظة. أرى أنني مسيحية حقيقية، على الأقل منحني إيماني راحة لا توصف ورضًا روحيًا تاما، لكنه لم يبعدني أبدًا عن أحبابي البوذيين، لإنهم احترموا معتقدي المختلف الغريب؛ وقد شعروا بأني وإن أصبحت مخلصة للإله المسيحي، إلا أنني لا أزال أحمل منتهى درجات التبجيل لآبائي وأني مازلت احترم إيمانهم الذي كان أسمى وأقدس ما عرفوه.

---

(33). تعرف أوراق الشنتو أيضا باسم أوفودا. إنها تعويذات ورقية تستخدم في الشنتوية لحماية الناس من الأرواح الشريرة وجلب الحظ السعيد.

(34). دخلت الديانة المسيحية إلى أرض اليابان لأول مرة في عام 1549، ولكن تم حظرها لقرابة 250 عامًا خلال عصر إيدو في الفترة ما بين عام 1603 إلى عام 1868 وخلال فترة الحظر تلك ارتكبت السلطات العديد من المذابح سعيا لاستئصالها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إبحار نحو لجج مجهولة

قضيت سنة سعيدة أخرى في المدرسة، ثم عدت إلى ناجاوكا. كنت مدركةً ضآلة ما أعلم، بيد أني كنت المرأة المثقفة في عيون أهلي وأحبابي، وذاك أمر لا أحسد عليه، فقد أدركت أنني يجب أن أحسن صورتي إذا أردت أن أحفظ الود بيني وبينهم خلال تلك الأشهر الأخيرة قبل انتقالي إلى أمريكا. خضت عين التجربة في كل إجازة؛ لأن العقول في ناجاوكا، رغم بساطتها ومحبتها وصدقها، إلا أنها مكابرة؛ لدرجة أنه لا يمكنني أن أستأنف معهم من حيث انتهيت في العام السابق. صحيح أن جميع أصدقائي أظهروا الحب وتصالحوا إلى حد ما مع تغيير معتقدي، لكنهم اعتقدوا، في نهاية المطاف، أنني ذات عقلية فريدة ولا شك لأستمتع باختلافي عن بقية النساء. لذلك تحملت مرة ثانية الحرج الناجم عن استقبالي رسميًا، ومرة أخرى راقبت بصبر تلاشي جدار تحفظهم الظاهري شيئًا فشيئًا، حتى أتمكن مرة أخرى من الوصول إلى قلوبهم المخلصة الكامنة خلفه.

وجدت نفسي بعدها مستتبة في حياتي السابقة، عدا ما أضفته تجهيزات سفري إلى أمريكا من إثارة. وبما أن الزواج في اليابان مسألة عائلية، لم يكن من المعهود أن يقدم الغرباء هدايا؛ لكن الظروف المرتبطة بحالتي كانت غير عادية إلى حد أن العديد من عائلات ناجاوكا أرسلت كعكات موتشي كبيرة باللونين الأحمر والأبيض، وكان معظمها على شكل طيور اللقلق أو طيور الحب التوأم - وهي دلالات التهنئة والعمر الطويل السعيد. تذكرني كل الأقارب البعيدين، والخدم القدامى، وخدم الأسرة، حتى أولئك المتزوجين الذين يعيشون على مسافة منا، تذكروني بنسيج من الحرير ولفائف من المواتا الحمراء والبيضاء وهي قطع من الحرير الناعم الخفيف المفيد جدًا لكل أسرة يابانية إذ يستخدم كبطانة للأردية والفساتين ولأغراض مختلفة. كانت معظم هذه الهدايا المنزلية لا تناسب الحياة في أمريكا، لكنها أثّرت في نفسي أيما أثر، فقد حملت معاني كثيرة من التقدير لشخصي والولاء لعائلة والدي. وكثرت ولائم العشاء التي قدمها الأقارب. في الأغلب، كنت أجلس حينها بجوار أمي، في موضع التشريف من الجلسة، يُقدم لي الأرز الأحمر وسمك النهاش

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأحمر كاملاً برأسه، وحساء مع سبعة أو تسعة أو أحد عشر نوعًا من الخضار.

كان كل ذلك مثيراً وإنما إثارة وقورة، وحلت الإثارة الحقيقية عندما حضر أخي، الذي استقر آنذاك في طوكيو، ليشاركنا أسابيعي الأخيرة في المنزل. أحضر لي رسالة من ماتسو، يقول فيها إن سيدة أمريكية لطيفة، طلبت من ماتسو أن تستقبلني في منزلها عند وصولي، ذلك أنها تهتم لشأن فتاة يابانية في مدرستي، وأن زواجنا سيعقد معها. قرأت أمي الرسالة برأس منحنٍ، وعندما رفعته، دهشت من رؤية عينيها مغرورقتين بالدموع! يا لأمي المسكينة! أخفت الوجل الغامض بأعماق قلبها زهاء ست سنوات، وهو الذي استوطنها حينما وصلنا خبر بقاء ماتسو في أمريكا؛ لأنه لم يُسمع من قبل بتاتًا في المجتمع الياباني أن تتزوج عروس من رجل بدون أن تكون أم العريس أو أخت له أكبر بجانبها لمساعدتها على التكيف مع مسؤولياتها الزوجية الجديدة. كانت تلك الرسالة بمثابة همسة ترحيب من قلب غريب مراع؛ وكون الغريب امرأة منح أمي شعورًا بالأمان والراحة التامة. رفعت الرسالة إلى جبينها، وانحنت بالطريقة المعتادة للتعبير عن الشكر، لكنها لم تقل شيئًا، ولم يدرك أحد منا السيل المنهمر من الارتياح الذي أخفته وراء أسلوبها الهادئ جارفاً سنينَ طويلة من القلق. في تلك الليلة، عندما مررت ببابها المفتوح، شممت رائحة البخور، ورأيت الركن المقدس مفتوحاً، ورسالة ماتسو داخله، وقبالتها يتصاعد دخان البخور ملتفًا للأعلى، حاملا امتنانًا عظيمًا من قلب أم.

راقب أخي بعض استعدادات رحيلي باستنكار واضح. قائلاً: «هذه أمور مناسبة لعروس ستعيش في اليابان، أما بالنسبة لإيتسو-بو، فكلها ترهات دون معنى. ماذا ستفعل بستارة الزفاف الطويلة ذات الشعار، أو بمجموعة مهرجان الدمى؟ سيتعين على ماتسو دفع رسوم تجارية باهظة كونه تاجرًا على أشياء لا طائل منها». في البداية، استمعَت جدتي وأمي الموقرتان في صمت، ولكن أمي اعترضت في أحد الأيام بلطف، ولكن بحزم، قائلة: «قد تكون عديمة الفائدة، لا أعرف شيئًا عن مستقبل إيتسو-كو، لكنها الآن عروس يابانية، تنتقل من منزلها إلى منزل زوجها. ومن واجبي أن أتأكد من جهازها على قدر استطاعتي، وفقا لعادات عائلتها. لذلك فالأمر محسوم».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تذمر أخي، ولكن نظرا لأن النساء في العائلة اليابانية منوطات باتخاذ جميع القرارات المتعلقة بـ «الشؤون الداخلية المهمة»، فقد استمرت الاستعدادات وفقًا للتقاليد. بيد أن أمي، تنازلت عن بعض الأشياء لثقتها بمعرفة أخي الكبيرة بأمريكا، فقدّمت لفائف الحرير والكريب المطرز التي جيء بها مرتبة على شكل طيور اللقلق وأشجار الصنوبر والعديد من الرموز الجذابة لحياة سعيدة، إلى أخواتي وقريباتي الأخريات؛ وأبقيَ على مجموعة الدمى الخاصة بي والتي تحضرها كل فتاة يابانية معها إلى منزل زوجها.

لقد كانت مسألة ملابسي في غاية الأهمية لدرجة انعقاد مجلس عائلي لمناقشتها. وبينما كانت أفكار أخي صادمة حقًا، لم يكن أي من الأقارب على دراية كافية لتقديم اقتراحات عملية، ونظرًا لوعيهم بذلك لم يحاولوا حتى طرح اقتراحات تخمينية. استحالت الأمور إلى حالة من الحيرة، ولم تحسم حين انحاز العم من طوكيو، الذي يقدر غالبية الأقارب آراءه، إلى جانب أخي في تفضيل الزي الأمريكي. وأوضح قائلًا: «بين الأوروبيين، يعتبر كشف الجسد أمرًا غير لائق أبدًا، حتى الرجال، الذين يتمتعون بطبيعة الحال بحرية أكبر من النساء، مطالبون بارتداء ياقات عالية وأكمام محكمة. أما اللباس الياباني فليس ملائما، كونه منخفض العنق وذا تنورة ضيقة، لارتدائه بين الشعب الأوروبي». وبما أن معظم أقاربي لا يعرفون شيئًا تقريبًا عن
Telegram:@mbooks90
العادات الأجنبية، فقد ترك تصريح عمي تأثيرًا بالغًا عليهم. عندها لاح القلق الشديد على أمي، لأن هذا كان بعدًا جديدًا للموضوع، لكن قلب جدتي الموقرة المخلصة كان مجروحًا ومتيقظا. كانت اليابان بالنسبة لها، أرض الآلهة، ولا ينبغي انتقاد عادات شعبها. لقد احتجّت بهدوء شديد، إنما بثقة عالية، وقالت: «وفقاً للصور، فإن أكمام الزي الأوروبي ذات الشكل الأنبوبي تفتقر إلى الأناقة، مثلها مثل المعاطف التي يرتديها عمالنا. يحزنني أن وقتًا قد حان أرى فيه ذريتي تنقاد للانحطاط إلى مستوى الحمالين المتواضعين».

كان لرأي الجدة الجليلة وزنٌ كبيرٌ في المجلس نظرًا لمكانتها الكبيرة. وفي النهاية، تقرر تجهيزي بالملابس اليابانية وحسب. وترك اختيار ملابسي الأوروبية لما بعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصولي إلى أمريكا. رتب لي أخي لأسافر تحت رعاية السيد هولمز وهو تاجر شاي إنجليزي، وصديق عمل لعمي، وكان عائدًا مع عائلته إلى أوروبا عن طريق أمريكا. ختامًا، آن الأوان واكتملت التجهيزات، وكان الوداع، وبدأنا أنا وأخي معًا مرةً أخرى رحلة إلى طوكيو، ولكن هذه المرة، بالقطار البخاري الذي تقدم بنا شيئًا فشيئًا فوق الجبال وعبرها، واختزلت رحلتنا السابقة التي كانت تستغرق ثمانية أيام إلى ثماني عشرة ساعة من الصخب والهزهزة والتعب. لم نتحدث كثيرًا، لكننا نزلنا أحيانا في المحطات الكبيرة لنحصل على بضع دقائق من الراحة ولنغير ملابسنا. مرة في محطة تاكاساكي بعدما عدنا للتو إلى مقاعدنا بعد هرولة سريعة ذهابًا وإيابًا على المحطة، أخرج أخي رأسه من النافذة وألقى نظرة قلقة.

سألته: «ماذا حدث؟»

أجاب وعيناه تومضان بشي من الماضي: «أتأكد وحسب، ما إذا كنتِ قد تركتِ قبقابك على المنصة مرة أخرى».

ضحك كلانا، وكانت بقية الرحلة عبارة عن ثلاث ساعات ممتعة لا تفارقني ذكراها. تلقينا المزيد من وجبات العشاء المكونة من الأرز الأحمر والسمك الكامل في طوكيو، والمزيد من هدايا الوداد عديمة الفائدة لي، والمزيد من لحظات الوداع القلبية الصادقة والإنحناءات الرسمية المتكلفة، ثم وجدت نفسي أقف على سطح سفينة بخارية كبيرة، وأخي بجانبي، وانتظرَ على سطح الماء في الأسفل، زورق ليقل آخر المودعين إلى الشاطئ. انطلق الصوت الحاد لصافرة التحذير الطويلة الثالثة، ومع وخز غريب في حلقي انحنيت انحناءة طويلة وعميقة، ووقف أخي بالقرب من كمي. قال بحنان غريب في صوته: «إيتسو-بو الصغيرة، لقد كنت لك الأخ الفقير الذي لا يمكنك الافتخار به؛ ولكنني لم أعرف قط شخصًا متحرراً من الأنانية، سواك».

رأيت ظله ينحني، وحينما رفعت رأسي، كان وسط الحشد متجهًا نحو سلم السفينة، رافعًا رأسه عاليًا موليًا وجهه الضاحك نحو السيد هولمز بصيحة وداع. كانت الرحلة ممتعة خلال الأيام القليلة الأولى. إلا أن السيدة هولمز، لم تسعفها قوتها البدنية على التحمل، فمرضت معظم الرحلة وانشغلت خادمتها برعاية الطفل؛ لذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زجيت الكثير من الوقت على سطح السفينة بمفردي، إما متأملة الماء بهدوء، أو أقرأ إحدى المجلات اليابانية العديدة التي حصلت عليها قبل صعودي للسفينة. كان السيد هولمز لطيفًا ومراعيًا للغاية، لكنني لم أكن معتادةً على الرجال، فغدوت صامتةً طول الوقت. ويبدو أنه تفهم الوضع لأنه يعرف اليابانيين؛ وبعدها صار ما أن يراني جالسةً بارتياحٍ على كرسي السطح الخاص بي، حتى يمضي مبتعدًا، تاركًا كرسيه الخاص بجوار كرسيي خاليًا، خلا أنه كان يرسل لي من حين لآخر طبقًا من الفاكهة أو كوبًا من الشاي. خلص الركاب بسبب ملابسي والمجلة اليابانية بيدي، إلى أنني لا أفهم اللغة الإنجليزية فكثرت التعليقات عني وعن اليابانيين، تُلقى على مسمعي من الجالسين بالقرب مني. لم تكن تعليقات قاسية، إنما بدا من الفظاظة أن أستمع إلى كلمات غير موجهة لأذني، لذلك في صباح أحد الأيام أخذت كتابًا باللغة الإنجليزية معي إلى سطح السفينة وكنت مستغرقة في القراءة حينما توقفت سيدة تمر بجانبي. قالت بلطف: «أرى أنك تفهمين اللغة الإنجليزية،» وظلت تتحدث قليلًا. لا بد أنها نشرت الخبر، لأنني بعدها لم أسمع أي تعليقات حول (اليابانية الصغيرة الهادئة) فحسب، بل عرجت العديد من السيدات في أوقات مختلفة لتجاذب أطراف الحديث معي. كان مكاني عند الطاولة بجوار السيدة هولمز. التي لم تكن تحضر إلا لمامًا، لكنني لم أشعر أبدًا بالوحدة لأن الراكبات الأخريات احطنني بلطفهن واهتمامهن، كما لو أنهن شعرن بالمسؤولية تجاه التزام السيدة الأمريكية اتجاهي. في الواقع، ساد جو من العفوية والحديث البهيج بين الركاب، وكان منعشًا كهواء البحر المالح. أما تحية «صباح الخير» فتقال للجميع، سواء كانوا أصدقاء أو غرباء، ما من فرق. رأيت في أحد الأيام سيدتين أنيقتين تستقبلان بعضهما بمرح: «مرحبًا! صباح رائع، أليس كذلك؟ لنتجول معًا،» ثم سارا معًا كرفيقين عسكريين. لا انحناءات ولا كلمات متكلفة. جرى كل شيء بتلقائية وودية، فاستحوذت مسألة التعامل دون كلفة ولا رسميات على إعجابي بشدة، وبدا لي كأنه ضرب من السحر.

رصدت فساتين أولئك السيدات الأجنبيات باهتمام كبير دون شك. لقد أبهتتني تعليقات عمي بشأن الرقبة المنخفضة والتنورة الضيقة للثوب الياباني وأزعجتني كثيراً، وبما أنني كنت المرأة اليابانية الوحيدة على متن السفينة من بين حوالي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خمسين أو ستين سيدة أمريكية، فقد حرصت على ألا أتسبب بثلم سمعة بني وطني. ضُمَّ الرداء الياباني بحيث لا يمكن ارتداؤه بشكل صحيح إلا بطريقة معينة، لكنني، بدافع من حيائي كفتاة، ممتزج بروح وطنيتي الصادقة، حاولت سحب الطيات المطرزة عند الرقبة لتقترب من ذقني؛ وبقيت جالسة أغلب الوقت حتى لا تُلاحظ تنورتي الضيقة. كان الطقس سيئًا في بداية الرحلة، فلم يظهر على سطح السفينة سوى عدد قليل من السيدات، بيد أنهن ما لبثن أن ظهرن، ثم راودني الشك حيال مدى صحة تعليق عمي؛ ولكني لم أفقد الثقة تمامًا في حكمه إلا في أمسية ترفيهية تضمنها رقص. وهناك تمكنت بالفعل من رؤية الياقات العالية والأكمام المحكمة لملابس السادة، كما وصفها؛ غير أني وجدت أن معظم فساتين السيدات لم تكن عالية الرقبة ولا واسعة التنورة، ورأيت أمورًا أخرى كثيرة حيرتني وصدمتني. حيث إن خصور الفساتين الضيقة المصنوعة من الأقمشة الخفيفة والدانتيل الرقيق بدت لي مُتَجَاوِزةً للحَدّ أكثر من الرقبة العارية. صحيح أنه حدث أن رأيت مرة خادمة يابانية في خضم عمل شاق في مطبخ حار، وقد انزاح الكيمونو من على كتفها فانكشف، ورأيت امرأة ترضع طفلها في الشارع مرة، ولمحت مرة امرأة عارية في حمام فندق، لكنني لم أمر قط امرأة تعرض علنًا بشرتها العارية حتى ذلك المساء على تلك الباخرة. حاولت جاهدة لفترة من الوقت أن أُقنع نفسي بأني لم أشعر بالحرج، ولكن وجنتيّ اشتعلتا خجلاً بعدها، فتملصت مبتعدةً وتسللت إلى مقصورتي وراودتني تساؤلات كثيرة عن الحضارة الغريبة التي كنت على وشك أن أصبح جزءًا منها.

لم أنوِ انتقاداً وأنا أسوق ذكرى مشاعري تلك الآن. في الواقع، تغيرت نظرتي لتلك المسائل كثيرًا بعد سنوات من إقامتي هنا في هذا البلد، لدرجة أنه يسعني أن أنظر إلى الوراء وأضحك بدهشة من انطباعاتي الأولية. تكون عادات جميع البلدان غريبة على عيونٍ لم تألفها. وقد غدا تطوري الفكري التدريجي والحتمي، أحد أروع أمور حياتي هنا. بوسعي الآن مشاهدة النساء في حفلة عشاء أو رقص بملابس السهرة فأرقبهن بسرور، وغالبًا ما أرقب الموقف كمشهد فني جميل شأنه شأن لوحة جميلة، وأنا موقنة أن هؤلاء النساء ذوات الوجوه السعيدة اللاتي يماشين السادة المهذبين،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو يتمايسن على أنغام الموسيقى المرحة إنما هن بريئات وطيبات القلب مثلهن مثل نساء بلادي اللطيفات والهادئات فيما وراء البحر. كانت تجربتي في سان فرانسيسكو غريبة ومحيرة، لكنها كانت مبهجة في حداثتها. وأمور كالغرفة الصغيرة المذهلة في فندق القصر التي ما كدنا نقطنها حتى بدأت في التوسع، إلى أن انتهى بنا الحال إلى شقة كبيرة بمنظر شامل كما لو كان من قمة جبل، وحوض الاستحمام الأبيض الناعم الذي يمكن ملؤه بالماء الساخن دون وقود وبلا تأخير، والأبواب الموصدة في كل مكان، على عكس اليابان حيث لم يكن لدينا أقفال قط؛ كانت كل هذه الأشياء الغريبة، جنبًا إلى جنب مع الإحساس المحير بضخامة كل شيء، أمر فوق الاحتمال.

هذا الإحساس بالحجم الهائل للأشياء - الشوارع الواسعة، المباني الشاهقة، والأشجار الكبيرة - كان جليًا أيضًا داخل الفندق. كانت الأسقف عالية، والأثاث كبيرا، والكراسي مرتفعة، والأرائك رحبة، لدرجة أن مساند الظهر بدت قصية، لاح كل شيء وكأنه مصنوع لسلالة من العمالقة؛ وذلك، في الحقيقة، ليس ببعيدٍ عن الواقع، لأن ذاك حال الأميركيين: شعب عظيم، ليس من شيمه لا الكبت ولا القمع؛ فخم في فتنته وفخم في شينه؛ شخصيات بحجم كبير، ومحافظ سخية، وعقول عظيمة، وقلوب قوية، وأرواح حرة. ولم يتغير انطباعي الأول عنه أبدًا.

قضينا بضعة أيام فقط في سان فرانسيسكو، لكن كل شيء كان في غاية السرعة والصخب والعجب، لدرجة أن ذهني استقر في حالة نصف خدرة من الدهشة، ثم حدث شيء ما، حدث عادي وبسيط لدرجة أن ذكراه تتجلى لي بوضوح وبصورة منفصلة عن كل شيء آخر يتعلق بزيارتي القصيرة لتلك المدينة الرائعة. جاء قسيس عجوز دمث ذو شعر أبيض، كان يعيش في اليابان، لتبادل حديث وديّ. وبعد تحيته، فتح صندوقاً أبيضَ ووضعه في يدي، قائلًا: «أعتقدُ أن لك رغبة في شيء بسيط من وطنك بعد رحلتك الطويلة، افتحيه واكتشفي ما بداخله». رفعت الغطاء واندهشت لرؤية طعام ياباني حقيقي طازج ويبدو لذيذًا. سمعت أخي قطعاً يذكر منذ فترة طويلة، أن الطعام الياباني متوفر في أمريكا، حينها لم اعط الأمر أهمية، وقد اندهشت كما لو أنني لم أتوقع أبدًا رؤية الطعام الياباني مرة أخرى. وحين رفعت بصري إليه ممتنة، ولمحت وميضًا من روح الدعابة في عينيه واللطف في كل ملامح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجهه المبتسم، ذابت غرابة البيئة المحيطة بي، ونبض فؤادي بأول نبضةِ حنين إلى الوطن؛ فخلف تلك الابتسامة اللطيفة رأيت قلب والدي. قبل سنوات من ذلك، أخذتني إيشي إلى معبد الخمسمئة بوذا رأسًا بعد وفاة والدي، حيث انتصبت صفوف من التماثيل الكبيرة المنحوتة من الحجر أو الخشب المذهب. طفق قلبي الصغير المستوحش يبحث في كل وجه من تلك الوجوه اللطيفة الوديعة والمسالمة راجيًا العثور على وجه والدي، الذي غدا بوذا حينها. ولما رأيت أخيراً وجهًا دمثًا كريمًا، وابتسامة لطيفة، لمست قلب أبي خلفه، واكتنفني الرضا. وبالمثل رأيت الآن والدي في وجه الرجل العجوز الذي دفعته طيبة قلبه لمنحي هدية حميمة. أحب أن أتذكر تلك الابتسامة بحسبانها ترحيبًا بي في بلد جديد غريب، تعلق به قلبي بعد أن مرت الأيام كتعلقه بوطني.

ذكّرتني المناظر المتغيرة بسرعة من نافذة القطار أثناء الرحلة الطويلة عبر القارة، بالفوانيس الدوارة التي خلب جمالها لبي حين كنت طفلة. كانت تلك المشاهد المبهجة على ألواح الفوانيس تمر بسرعة كبيرة جدًا بحيث لا تسمح برؤية صورة واضحة؛ إن غموضها لهو سر فتنتها.

رافقني السيد والسيدة هولمز إلى أقرب مدينة كبيرة من المكان الذي سأعيش فيه وتركاني في عهدة معلمة كانت صديقة للسيدة هولمز. ثم ودعاني واختفيا إلى الأبد، على الأرجح. لكنهما تركا أثرًا لا ينسى من لطفهما واهتمامهما.

عندما أخِذتُ إلى المحطة المعتمة للمدينة التي أقصدها، نظرت بشيء من الفضول من نافذة عربة القطار. لم أكن قلقة. كنت دومًا محط رعاية، ولم يضايقني أنني سألتقي بشخص لم يسبق لي معرفته. وعلى الرصيف المكتظ أبصرت شابًا يابانيًا، منتصب القامة، يقظًا، يراقب بصبرٍ فارغٍ كل خارج من القطار. إنه ماتسو. كان يرتدي بدلة رمادية وقبعة من القش، وبدا لي عصريًا وتقدميًا وغريبًا في كل شيء ما عدا وجهه. عرفني حالًا، بالطبع، ولكن بهتتني، أولى كلماته:

«لماذا ترتدين الزي الياباني؟»

فلمعت في ذهني صورة الوجوه الكالحة في مجلس العائلة وكلام جدتي عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أكمام كالأنابيب» بيد أني، هنا الآن في أرض الأكمام الأنبوبية!، أحدق في زوجي المستقبلي، بأكمامه الأنبوبية. أضحك من كل ذلك الآن، أما حينها فلم أكن سوى فتاة صغيرة وحيدة، بأكمام فضفاضة، تلقت لوما. خيبة أمل ماتسو من ملابسي كانت في الغالب بسبب صديقته العزيزة، السيدة ويلسون، السيدة الطيبة التي أخبرنا عنها ماتسو في الرسالة التي احتفظت بها أمي لسنوات في الركن المقدس. لقد أرسلت بعطف واهتمام ماتسو في عربتها لمقابلتي، وكان حريصًا أن أبدو بصورة لائقة في عينيها، وقد شعر بالخيبة لأنه لم يجدني تقدمية ومواكبة للعصر. أخذت مكاني بصمت بجانب ماتسو في العربة اللامعة بخيولها السوداء المتوثبة وحوذيها ذي الزي الرسمي، وفي صمت مطبق تقلقلت بنا العربة على طول الشوارع المكتظة وإلى أعلى التل المرتفع، ثم انحدرت بنا نحو المنزل الجميل في الضواحي. لم أدرك حينها أنه يخوض تجربة من هذا الموقف كما أخوضها أنا؛ لأنني لم أكن بهذا القرب من رجل في حياتي، عدا والدي، ولأن موتي كان وشيكاً خلال تلك الرحلة.

انعطفت العربة إلى درب يطوق حديقة واسعة وتوقفت أمام منزل رمادي كبير له رواق واسع متعدد الأعمدة، وقفت خارج بوابته سيدة جليلة ورجل طويل القامة ذو شعر أبيض. استقبلتني السيدة بأيدٍ ممدودة وكلمات ترحيب ودية. ورددت التحية بامتنان شديد، وعندما نظرت إلى الوجه النبيل اللطيف للرجل ذي الشعر الأبيض الذي كان بجانبها، تسلل السلام إلى قلبي، لأنني، رأيت مرة أخرى قلب والدي خلف ابتسامته اللطيفة. لن يعرف هذان الشخصان الطيبان مدى أثر طيبتهما ولطفهما عليّ وعلى ماتسو سواء قبل حفل زفافنا أو بعده حتى يقفا عند البوابات المشرقة حيث تفتح المعرفة السماوية أعيننا. رُحِّبَ بي في ذلك المنزل الجميل لمدة عشرة أيام هانئة؛ ثم حان وقت الأمر الحتمي الثاني من «الحتميات الثلاثة» لأن الزواج في اليابان القديمة كان يحتل مكانته بالتساوي مع الولادة والموت. أقيم حفل زفافي في يوم جميل من شهر يونيو. أشرقت فيه الشمس، وتخللت الريح الناعمة أغصان الأشجار العتيقة الضخمة وأزْحَفَتِ العشب حولها، وفاحت رائحة الأزهار في غرفة الاستقبال ذات التحف الفنية المجمعة من كل أرجاء الأرض، وأمام طاولة رائعة مطعمة ثمة علمان متقاطعان - الأمريكي والياباني. وقف ماتسو وإيتسو بينما ثُليت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلمات المسيحية فاستحالا شخصًا واحدًا. وقف بجانب ماتسو شريكه التجاري، رجلٌ حسن الطباع، ووقف بجانبي من أثبت منذ تلك اللحظة أنه أفضل وأصدق الأصحاب. وهكذا غدونا زوجين. اتفق الجميع على أن حفل زفافنا كان جميلًا. بالنسبة لي، كانت الغرفة مليئة بأشياء عجيبة وأشخاص عجيبين، وكلهم ينبضون بروح اللطف العظيم؛ وعلى نحو مبهم، أدركت أنه قد أوفي بالنذر المقدس الذي قطعته الآلهة قبل ولادتي بوقت طويل.

غمرتني صديقتنا، السيدة ويلسون، بلطفها دومًا، وقد نعمتُ وسعدتُ باستضافتها لي في منزلها الجميل مرات لا تحصى؛ أما منزلي الدائم فكان في ضاحية مجاورة، وهو منزل كبير قديم الطراز يقع على تل وسط أشجار كبيرة ومروج مشذبة، بمسارات متعرجة مرصوفة بالحصى. كانت صاحبة المنزل أرملة من أقارب السيدة ويلسون، وهي امرأة اتحدت فيها سلالة نيو إنجلاند الصارمة ذات المبادئ الرفيعة مع الطبقة الأرستقراطية اللطيفة في فرجينيا. دعتنا لزيارتها في البداية، لأنها أحبت اليابان. ثم سعدنا بصحبتها مثلما سعدت بصحبتنا كثيرًا مما حدا بنا أن قررنا جميعًا البقاء معًا؛ لذلك بات منزلنا لسنوات عديدة بيت «الأم»، كما اعتدنا أن نسميها. سكنت في صميم قلبي أبدًا والدتي الأمريكية بجانب والدتي وهي واحدة من أنبل وأجمل النساء اللاتي خلقهن الرّب طرًا. خبرت الحب والعطف والحكمة وعرفت أمريكا بأحسن صورها هناك في تلك الدار الحنونة، وتعلمت أن أجتني بوعي وتقدير المعرفة التي حرم منها أخي المسكين خلال الفترة القصيرة التي عاشها على ذات الأرض.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

انطباعات البدايات

كانت سنتي الأولى في أمريكا بمثابة اندفاع متحير ومتسارع من فكرة مفهومة جزئيًا إلى أخرى. بيد أنها كانت سنة سعيدة. ما من عروس يابانية تصاب بالحنين إلى الوطن أبداً، إذ تعرف منذ نعومة أظفارها أن قدرها ينتظرها في منزل آخر، وأن مصيرها سيتحقق هناك. تتقبل كل فتاة ذلك بالطريقة ذاتها التي تتقبل بها الذهاب إلى المدرسة، وهي لا تتوقع أن يكون الزواج سعادة بلا مشقة، مثلما لا تتوقع أن تكون المدرسة ساحة لعب بلا دراسة. لذلك انساقت بي الأيام أسبوعاً تلو آخر، وحملت نفسي أحيانًا إلى التذكر أن «جفون الساموراي لا تخضل» حتى في أمريكا، ولكني عموماً، خبرت أيامًا مليئةً بالتجارب الجديدة والممتعة. وسرعان ما ألفت وأحببت كل شيء في منزلي، على الرغم مما بدا لي في البداية أن كل ما حولي يحاصرني؛ النوافذ ذات الستائر، والأثاث الثقيل الداكن، واللوحات الكبيرة، والأرضيات المغطاة بالسجاد.

لكنني ابتهجت بالشرفات الكبيرة والمرج الواسع الذي يمتد فوق منحدر جميل، ويتعرج بين الممرات حتى يصل إلى جدار حجري منخفض، وثمة أشجار باسقة دائمة الخضرة، حَجَبَت جزءًا من مشهد الأعمدة الحجرية الكبيرة للبوابات الحديدية عن الشرفة، والتي طبعت في نفسي إحساسًا بالأمان مع الجزء العلوي المنيع، الذي يشبه برج القلعة الممتد. وثمة شجرة صنوبر كبيرة ملتوية وشجرة إيكو، تقفان جنبًا إلى جنب، وحينما يستهل الهلال، يخلق صورة مثالية لبيت شعرٍ ياباني قديم:

«بين أغصان تنثني، يتأرجح في الأعالي منجل فضي هائم في غض صباه، غافلًا عن يوم مجده الآتي».

كنت أقضي معظم وقتي في واحدة أو أخرى من شرفاتنا الثلاث الكبار، وكانت أمي تحب المكوث هناك بقدر ما أحببتُ ذلك، فكنا نخرج بعد الإفطار صباحًا، تأخذ هي أدوات خياطتها وآخذ أنا الصحيفة. هادفة أن أحسّن لغتي الانجليزية، فاعتدت على مطالعتها كل يوم، وأثارت أخبارها اهتمامي كثيرًا. كنت أتجه مباشرة إلى صفحة أخبار الطلاق والمحاكم. وتفاجأت أيما مفاجأة بأن عدد النساء اللاتي يسعين

للحصول على الطلاق أكبر من عدد الرجال. ذات يوم أخبرت أمي أنني أشعر بالأسف تجاه اولئك الأزواج،

فسألتني: «لماذا؟، ألا تظنين أنه قد يكون الخطأ خطأ الزوج مثلما قد يكون خطأ الزوجة. أليس ذلك هو الحال في اليابان أيضا؟»

أجبتها: «ولكن بعد أن اختارت زوجها بنفسها، لا بدّ أنه سيصعب على كبريائها كزوجة الاعتراف بالفشل».

قالت الأم: «ماذا عن الرجل؟ يراها، ويرغب، فيومئ لها؛ وتحمر خجلاً، تبتسم، وتلبي... أو تأبى... كما يحلو لها. هذا هو دورها: أن ترضى أو لا».

قلت متفاجئة إلى حدٍ ما: «كيف ذلك؟ اعتقدت أن المعتاد في الزيجات الأمريكية أن المرأة هي من تبادر بالاختيار»، لأنني ومعظم اليابانيين في ذلك الزمن، فسرنا ما نشر في الكتب والصحف إلى أن العادة لدى الأمريكان أن «تبادر النساء باختيار أزواجهن». كانت تلك واحدة من الأفكار المغلوطة لدينا عن روح مهيمنة للمرأة الأمريكية وموقف خاضع من الرجال الأمريكيين. وفي المحادثة التي تلت ذلك، سمعت للمرة الأولى أن العادة في هذا البلد هي أن يبادر الرجل لخطبة المرأة.

قلت: «إنها مثل الحكاية الشعبية التي تحكي عن أصل عرقنا».

ضحكت أمي وقالت: «هلا حكيتها لي، أظنها ستكون أكثر تشويقًا من أخبار محاكم الطلاق».

قلت: «إنها قصة طويلة إن قصصتها من بدايتها، لكن الجزء المهم لنا هو أن إلهًا يُدعى إيزاناجي وإلهةً تدعى إيزانامي -آدم وحواء- جاءا من السماء على جسر عائم وأنشآ جزر اليابان. ثم قررا البقاء لإقامة مراسم الزواج وبناء منزل لهما. فذهبا إلى الصرح السماوي للقيام بمراسم الزواج. بدأت العروس تدور من اليمين والعريس من اليسار، ودارا حول الصرح السماوي. وعندما التقيا على الجانب الآخر، صاحت الإلهة:

يا لجمالك أيها الإله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استاء الإله وقال إن العروس أفسدت الحفل، لأنه كان من المفترض أن يبادر هو أولاً. لذلك وجب عليهما أن يبدآ من جديد. بدأت الإلهة مرة أخرى من يمين الصرح السماوي، والإله من اليسار؛ ولكن هذه المرة، حين التقيا، لم تبادر الإلهة بالكلام حتى يبدأ الإله بالحديث إليها

فبادرها إيزاناجي قائلًا: «يا لك من إلهة جميلة!»،

أجابت إيزانامي:

«وإنك لإله جميل!»

وبما أن المراسم تمت هذه المرة بشكل صحيح، فقد بنى الزوج والزوجة منزلاً لهما، ومنهما نشأت الأمة اليابانية».

قالت الأم: «يبدو أنه ما من اختلاف كبير في الأصل بين الزواج الياباني والأمريكي».

وأكثر ما تعجبت منه في أمريكا هو صعوبة، بل وفي كثير من الأحيان، استحالة قدرتي على القيام بواجباتي الزوجية، بالطرق التي دربت عليها. فقد جاء ماتسو إلى هذا البلد صبيًا في سن المراهقة، ولم يكن على دراية بالعديد من العادات اليابانية مثلما كنت غير مطلعة على العادات الأمريكية؛ لذلك مررت، مع عدم إدراكه لمأزقي، بالعديد من التجارب المحيرة المرتبطة بالواجب الزوجي. بعضها كانت مأساوية وبعضها مسلية.

تأخر ماتسو بسبب عمله مرة، حتى وقت متأخر، وتكرر الأمر لعدة ليال. واعترضت أمي على طول جلوسي في انتظار عودته. إذ لم أكن على ما يرام حينها، ولكن الأمر أزعجني كثيراً؛ ففي اليابان يعتبر نوم الزوجة أثناء عمل زوجها كسلًا وعارًا. ليلة بعد ليلة، كنت أغالب النعاس بعينين مفتوحتين على اتساعهما، وأتساءل أعليّ أن أمتثل لأمي البعيدة التي كانت عليمة بالعادات اليابانية، أم لأمي الجديدة، التي كانت تعلمني العادات الأمريكية.

ووقعت مرة أخرى في حيرة حين غابت والدتي لمدة أسبوع بسبب وفاة أحد

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقاربها. حينما سعت خادمتنا كلارا لإدخال السرور إلى نفسي فأعدت فطيرة كرز في إحدى الليالي لتقديمها مع العشاء إذ سمعت أن اليابان توصف بأنها «أرض أزهار الكرز». رغم أن أشجار الكرز تُزرع في اليابان لإزهارها فقط، كما تزرع الورود في أمريكا، ولم يسبق لي أن رأيت ثمار الكرز من قبل؛ بيد أن رائحة الفطيرة كانت لذيذة فقد وضعت أمامي لتقطيعها وتقديمها. فسأل ماتسو:

«ما هذه؟ أوه، فطيرة الكرز! إنها حامضة جدا، لا تعجبني»

أوعزتُ حالًا بأن تأخذ تلك الفطيرة الحلوة للمطبخ، فما من عروس يابانية تسعى لإهانة زوجها لدرجة أن تتناول طعامًا لا يتناوله ولا يشتهيه، وإن اشتهته هي. لكني شغفت بها، ومنذ ذلك الحين تراءى لي أنه ما من فطيرة أخرى يمكن مقارنتها بتلك الفطيرة اللذيذة.

في يوم من الأيام سألت ماتسو عما يمكنني تقديمه لكلارا كهدية فلطالما بادرت للقيام بأمور لطيفة لأجل خاطري. قال إن أفضل ما يقدم كهدية في أمريكا هو مبلغ من المال. فقمت باختيار ورقة نقدية جديدة، وغلفتها بورق أبيض وكتبت عليها «هذه كعكة». كعادتنا في اليابان.

كم ضحك ماتسو على ذلك! ثم قال: «ما من بأس أن تهدى المبالغ النقدية بلا تغليف في أمريكا».

أجبته بانزعاج شديد: «لكنها طريقة لا تلائم إلا عطية المتسولين». صاح ماتسو: «كلام فارغ! يعتبر الأمريكيون المال نظيرا للخدمة. وليس للمال أي قيمة روحية».

أمعنتُ التفكير في الأمر كثيرًا، لأن التعبير عن الامتنان لدى اليابانيين، مهما اتخذ من مظهر موارب، فهو فعل نابع من القلب.

لقد أحببت خدمنا، لكنهم ما انفكوا يدهشونني، فرغم اهتمام الأم وحنوها وعطفها على الخادمة وعلى العامل الذي يعمل في المكان؛ لكنها لم تكن مهتمة بهم اهتماما حقيقيًا، وبالمقابل لم يولونا هم أي اهتمام ينم عن الإيثار، بينما كان الخدم في منزلنا في اليابان، بمثابة أفرادٍ فرعيين في العائلة، كانوا يفرحون لفرحنا ويحزنون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لحزننا ويتلقون لقاء ذلك منا اهتماما صادقًا بشؤونهم. بيد أن ذلك لا يعني ألفة لا داعي لها، فقد ظل هناك دائمًا خط غير مرئي «عند عتبة الباب»، ولم أعرف قط أحدًا من الخدم تجاوزه أو رام ذلك؛ لأن الخادم الياباني يفتخر بمسؤولية منصبه. أما كلارا فقد قامت بواجباتها على أكمل وجه، إلا أن شغفها واهتمامها كان في مكان آخر خارج المنزل؛ وفي أيام «الخروج بعد الظهر» كانت تعمل بطاقة مذهلة كي تنهي عملها، لدرجة أنها لم تكن تفكر في أي شيء سوى المضي قدمًا. لم أستطع إلا أن أقارنها بتوشي اللطيفة والمهذبة وانحناءاتها التوديعية الوقورة.

لكن كلارا قدمت لنا، من ناحية أخرى، خدمات طوعية لم أكن لأتوقعها أبدًا من أي خادمة في اليابان باستثناء مربيتي. ففي أحد الأيام، كاد أن يستبد بي الرعب عندما سمعت ماتسو ينادي بلا مبالاة: «كلارا، ألن تأخذي هذا الحذاء إلى شرفة المطبخ ليقوم ويليام بتنظيفه؟ لو وُجِّهَ هذا الطلب إلى خادم ياباني، لاعتبره إهانة، عدا من كان منوطًا به رعاية الصنادل؛ لكن كلارا التقطت الحذاء بمرح ومضت وهي تغني أثناء سيرها. كانت الحياة في أمريكا محيرة للغاية.

تُدرب جميع الفتيات اليابانيات على الأعمال المنزلية، لذلك كان طبيعيا أن أهتم كثير الاهتمام بمراقبة الطرق التي تؤدى بها الأعمال المنزلية داخل البيت الأمريكي. شجعت أمي فضولي قائلة إن السؤال طريق للمعرفة؛ وتحلت كلارا أبدا بالصبر أثناء شرحها لـ «تلك السيدة الصغيرة اللطيفة شوجرموتر» كما يحلو لها أن تناديني.

كان اهتمامي منصبًا على المطبخ أكثر من أي مكان آخر، لكن أدواته كانت بالغة الثقل، معلقة على ارتفاع عال جدًا، ورفوفه بالغة الارتفاع، فواجهت عائقًا كلما حاولت القيام بأي شيء فيه. وللمرة الأولى تعاطفت مع الأجانب في طوكيو، الذين قيل إنهم يكثرون الشكوى من «صغر» ما يحيط بهم من أشياء وعدم مواءمتها لهم. كانت إحدى التلميذات تحكي لنا حكايات طريفة عن عائلة أجنبية كان والدها يؤجر لها منزله. كان على الرجل أن يحني رأسه كلما مر من المدخل، وكانت زوجته ترى أن رغبة الخادم بتقطيع الخضار على طاولة لا ترتفع سوى ست بوصات عن الأرض وغسل الأطباق بدون صابون أمرًا مريعًا. رأت جميع تلميذات المدرسة أنها كانت ولا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بد امرأة ذات تفكير غريب، فقد ظننا أن الأجانب يستخدمون الصابون كاستخدامنا لكيس النخالة، للاستحمام وحسب. ولكن بعد أن رأيت مدى إسراف كلارا في استخدام الماء المغلي والصابون في المطبخ، أدركت ضرورة ذلك، ففي الطبخ الأمريكي تستخدم الكثير من الشحوم والزيوت على عكس الياباني إذ في الغالب يتكون طعامنا من خضروات، أما الأسماك، فتخصص لها أطباق خاصة تغسل برماد الفحم.

عندما دخلت غرفتي يوم الجمعة، وهو يوم التنظيف، دهشت لرؤيتي كلارا تفرك مكتبي بقطعة قماش مزيتة.

سألتها: «ماذا تفعلين يا كلارا؟».

أجابت: «أوه، مجرد تنظيف بسيط يا سيدة شوجرموتر».

بدا لي أن وضع شيء لزج على شيء ما لتنظيفه أمر مستعصِ على الفهم، بيد أن دهشتي زادت حينما نظرت لاحقًا إلى مكتبي ووجدته جافًا ولامعًا ونظيفًا. لم يحصل أن لُقعث أو زُيتث أو طُليث أيًا من أخشاب المنازل اليابانية، سواء من الخارج أو من الداخل؛ ولم يوضع شيء على الأثاث للحفاظ عليه عدا الورنيش أو أنه ينظف بالماء الساخن وحسب. كانت تاكي وكين تمسحان الأدوات الخشبية بالكامل كل يوم بقطعة قماش مغموسة بالماء الساخن؛ وكانت الخادمة تنظف أروقتنا، صباحًا ومساءً، حيث تنحني وتدفع أمامها قطعة قماش مطوية يتصاعد منها البخار، وتركض مسرعةً ذهابًا وإيابًا، من أحد أطراف الشرفة إلى الطرف الآخر؛ متتبعة بعناية خطوط الألواح الخشبية. تغدو الشرفات رويدًا رويدًا مصقولة وداكنة لدرجة أنها تعكس بوضوح صورة من يمشي عليها، وبما أنها لا تداس بالأحذية بتاتًا، تبقى لامعة براقة لسنوات.

حازت الأعمال المنزلية على اهتمامي دومًا، وازدادت حماستي في أوقات تنظيف المنزل. كنت أتجول من غرفة إلى أخرى، أرقب بذهول وحبور ويليام وكلارا وهما يعملان. لم أتخيل قط أن قطعة السجاد الثقيلة التي تغطي الأرضيات، والمثبتة بشكل دقيق وأنيق في كل زاوية وحول النتوءات، إنما ثبتت بالمسامير ويمكن رفعها

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كقطعة واحدة هائلة وحملها لتنظيفها. وكان الأمر يتطلب رجلين للقيام بذلك. أما في اليابان فأرضياتنا تغطى بحصائر تُصفُّ جنبًا لجنبٍ كقطع من الدومينو، وحجم كل حصيرة لا يتجاوز ستة أقدام في ثلاثة فقط، مما يمكن جيا من رفعها ونشرها بسهولة بمفرده.

كانت لي ولماتسو غرفتان متجاورتان، وعندما صعدت إلى الطابق العلوي لأرى ما إذا كانت السجادة قد أُخذت من أرضية غرفته أيضًا، وجدت أن الخزانة الكبيرة المصنوعة من خشب الماهوجاني، والتي افترضت أنها جزء من الجدار، قد سُحبت إلى منتصف الغرفة، فانعقد لساني من الدهشة، فلم يكن ظهر تلك الخزانة -بل وظهر كل أثاثنا الجميل- سوى ألواح خشنة؛ ذكرتني بالألواح التي رأيتها على عربة لنقلها إلى ورشة نجارة في اليابان. لقد كان أمرًا عجيبًا للغاية. لم يسبق لي أن رأيت أي أثاث لم يسحج بأكمله ويصقل، من خارجه وداخله وأعلاه وأسفله وخلفه.

أوضحت الأم أن هذه الخدعة الأمريكية نشأت من الحاجة إلى توفير الوقت والعمل. وهكذا، اكتسبت فهمًا لمشكلة العمل لأول مرة. وأثناء تنظيف المنزل، تحدثنا أنا وأمي للمرة الأولى من القلب إلى القلب. كانت تبحث في بعض صناديق الملابس في العلية، وكنت جالسةً بالقرب منها، كانت تمسك بقطعة كبيرة من الكافور، قطعتها إلى قطع صغيرة ولفتها في مناديل ورقية لتضعها بين ثنيات الملابس. وأرتني معطفًا عسكريًا ارتداه جدها في حرب عام 1812. ذكرتني الصناديق المفتوحة، والملابس المكركبة، ورائحة الكافور المألوفة في الهواء، بأيام التهوية في منزلنا. حينها رأيت أمامي غرفة جدتي التي كنا نمضي إليها أنا وأبي دائمًا لنبتعد عن حبال الملابس المتمايلة وبلبلة الخدم المنشغلين بالطي والتنظيف بالفراشي. سألتني الأم بابتسامة: «بماذا تفكرين يا إيتسو؟، فعيناك تبدوان وكأنهما تبصران أشياء على بعد خمسة آلاف ميل». أجبتها: «بل أبعد من ذلك، فعيناي تنقبان في الماضي، فيما قبل ولادتي». انحنيث ومسدث ياقة المعطف العسكري القديم على حضنها. بدت تلك اللحظة ولسبب ما، الأقرب إلى نفسي من أي شيء آخر في أمريكا.

قلت: «في مستودعنا يا أمي بالمثل، تذكارات مقدسة عَلِقَتْ بها ذكريات الحرب.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمة كومة من الكتب ذات الأوراق الرقيقة المكتوبة بيد والدي، وهي كنوز عزيزة علينا جميعًا. هل تعلمين يا أمي، أن والدي كان سجينًا ذات مرة، احتجز كرهينة لفترة طويلة في معسكر للجيش. لكنه يختلف اختلافًا كليًا عما توحي به الكلمة هنا في أمريكا. فالمعسكر يقع في بستان لمعبد، وقد سلّم الجزء الذي كان يعيش فيه الكهنة من المعبد إلى المسؤولين وسجنائهم رفيعي المستوى؛ وعلى الرغم من أن أبي كان وحيدًا بين الأعداء، فقد عومل كضيف شرف». لقد فصل عنه رفيقه المخلص، ولكن بدلاً منه، كان هناك شاب ساموراي، عامله باحترام واهتم بكل احتياجاته. وليرفها عن نفسيهما، مارسا فن الدفاع ورياضات الساموراي المختلفة؛ وفي بعض الأحيان، كانا يقضيان ساعات معًا يجريان مسابقة شعرية بينهما أو يغنيان الأغاني الكلاسيكية اليابانية القديمة مثلما كانت العادة الاجتماعية بين الساموراي. لقد تمتع بكل وسائل الراحة الجسدية والترفيه الذهني، لكنه كان مقطوعًا عن العالم. حتى الكتب لم تعدُ أن تكون قصائد ونثر من الأدب القديم الجميل الذي لا يحمل أي كلمة عن الحاضر. وضع في نهاية كل يوم رتيب رأسه على وسادته مثقلًا بالتفكير: هل وصل الجيش الإمبراطوري إلى إيتشيجو؟ من أصبح مسؤولًا عن قلعة ناجاوكا؟ وما هو المصير المجهول لخدمه؟ وابنه؟ وزوجته وبناته؟

ثمة حديقة جميلة كان يتمشى فيها يوميًا، بلا حراسة، ربما كان هناك حراس خارج البوابة. لم يتيقن، لكنه لم ير شيئًا يوحي له بأنه مراقب، وربما لم تكن هناك أي حراسة، فقد أيقن حرّاسه أنه مقيد بسلاسل هي روح شرف الساموراي والتي كانت أقوى من كل أنواع القيود.

كانت أعز ساعات أبي في تلك الفترة التي كان فيها وحيدًا، هي تلك التي قضاها بصحبة أدوات الكتابة ولعب لعبة الجو مع القائد العام - وهو رجل يتمتع بثقافة رفيعة، والذي كثيرًا ما أقبل إليه ليبادله أطراف الحديث. امتلك الرجلان نفس الذائقة وحملا نفس التقدير للشرف - إنما اختلفا في ولائهما لسيدين مختلفين- وقد صاغت تلك الأشهر صداقة العمر بينهما وأبرمتها. أغرم كلاهما بلعب الجو ولعبا معاً بمهارة وجدية. إنما لم يبح أي منهما للآخر بسريرته، ولكن بعد فترة طويلة، أسرّ أبي لأمي أنه كان يدرك أنه في كل لعبة يلعبانها، كان كل واحد منهما يناجز في خبيئة نفسه

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

الآخر لأجل قضيته السياسية. فيفوز أحدهما مرة، ويفوز الآخر مرة؛ ويتعادلان مرة؛ لكن المهزوم دائمًا كان يهنئ المنتصر بحماس، ويتلقى شكره الرسمي ردًا على ذلك. وهكذا مرت أيام، وأسابيع، وأشهر طويلة، طويلة، حتى أصبح يخشى عدها والتفكير بها. ولم تصله أي كلمة أو لمحة أو خبر عما يدور في العالم خارج أسوار المعبد. ثم في أصيل يوم من أيام الربيع الجميلة، وهو جالس بهدوء في غرفته المطلة على الحديقة، يستمع لترنيم كهنوتي خافت يتناهى إليه من الغرف البعيدة، والنسيم يهب فيجرف أزهار الكرز المتساقطة عبر الحديقة، وبتلاتها العطرة تنساب ثم تعلق بحجارة الممشى المتباينة فتتجمع في أكوام ملونة، وقمر خافت يطارد ظلال أغصان الصنوبر. ذلك منظر لم ينسه أبي إطلاقا. حينها اقترب خادم شاب، وبطريقته المحترمة المعتادة، ولكن بوجه جاد، أعلن: «سيدي الضيف، وجبة المساء جاهزة». أحنى أبي رأسه، وأحضرت الطاولة الصغيرة المطلية اللامعة ووضعت أمامه على الحصيرة.

وأخيرًا وصلت الرسالة المنتظرة. كان وعاء الأرز على اليمين، والحساء على اليسار؛ بينما انتصبت عيدان تناول الطعام كشاهد قبر، وكانت السمكة البنية في الطبق البيضاوي بلا رأس. لقد كان إيعازا صامتا من ساموراي إلى ساموراي.

تناول والدي عشاءه كالمعتاد. وعندما حان وقت استحمامه، كان الخادم جاهزًا بانتظاره. غسل شعره، ولم يعد بحاجة لجديلة لتحمل وزن الخوذة، فتركه مسترسلًا وبلا دهان، ليربط بحبل ورقي. ارتدى كفنه المصنوع من الكتان الأبيض ووضع فوقه الكاميشيمو(35) الناعم للساموراي المحتضر. ثم انتظر بهدوء حتى منتصف الليل.

دخل القائد العام واستقبله بالصلابة العسكرية التي تتخفى خلفها المشاعر المتأججة.

قال: «أنا لم آتِ كمسؤول في الدولة، بل كصديق، لأطلب منك أن تكرمني برسالة».

أجاب أبي: «لك شكري الجزيل على كل معروفك. لكني حين فارقت منزلي، فارقته على ألا أعود وتركت وصيتي حينها. ليس لدي رسالة».

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنه طلب من القائد أن يعتني بخادمه، الذي سيغدو بلا سيد بعد وفاته. أكد له الجنرال أنه سيقوم بذلك، وأنه أوعز لأعلى خدمه أن يكون بمثابة المرافق الأخير لأبي. هذان الرجلان، اللذان أصبحا يعرفان ويحترمان بعضهما البعض عن كثب، افترقا بدون كلمات أخرى بعد أن حنيا رأسيهما انحناءة شكر وتبادلا المجاملات الرسمية. قد يلوح الأمر للأميركيين، قاسيًا، ولكن تلك هي تقاليد الساموراي، لقد عرف كل واحد منهما دخيلة الآخر.

حان الوقت. كان أبي صاحب أعلى رتبة بين السبعة الذين انتظروا تلك اللحظة في منتصف الليل؛ لذا، سار هو أولًا نحو ساحة المعبد، وحيدًا، مرتديًا ثوب كفنه وحاملًا على عاتقه إباء مئات من السنين. وحينما دخل إلى المنطقة المسيجة، كانوا هم على الجانب الآخر، ينتظرون، مرتدين أرديتهم البيضاء ويكتنفهم الصمت. ثم ظهر طفل بينهم، يتبعه شخص بالغ. عرفه أبي -دون أن يلتفت- إنه مينوتو، حارس ابنه الصغير، بوجهه الرمادي وعيناه المتوترتين. ثم صدرت عن الطفل ارتعاشة بالكاد لوحظت، كان مينوتو يُمسك بأكمام الصبي بإحكام. واصل أبي طريقه. وجلس الصبي باستقامة، وعيناه مسددتان إلى الأمام، وتبددت الرعشة. أواه لم يكن الصبي سوى أخي، وبغض النظر عما مر به بعد تلك التجربة وتغير العالم من حوله إلى عالم بالغ الجدة وبالغ الغرابة، بيد أنه في تلك اللحظات، هناك، كان ساموراي في عالمه الخاص، العالم الذي فهمه من تربيته ومحيطه! جلس والدي بوقار رابط الجأش، مرفوع الرأس وعيناه مصوبتان للأمام- لا يريان شيئًا. إنما قلبه... لكن لماذا لم يشفق عليه الإله الذي لا يعرفه؟ وأمسكت بالياقة الكبيرة لمعطف الجيش القديم ودفنت وجهي بجبن في طياته لأنني لحظتها، أضعت روح الساموراي. أمريكا كانت طيبة للغاية معي، فتغير شيء ما داخلي وشعرت بيد أمي على كتفي، ولكنني لم أجرؤ على رفع رأسي وإهانة والدي، لأن الدموع كانت تسيل على وجه ابنته الجبانة.

«أوه، ابنتي الصغيرة! عزيزتي الصغيرة! لكنه لم يمت حينها، لم يمت».

رفعت رأسي ولم أمسح دموع عيني.

قلت بهدوء: «لقد انتهت الحرب، وعفت الحكومة الجديدة عن جميع السجناء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السياسيين. وعرف المسؤولون عن القرار بالفعل، ولكن، حتى وصول الرسل الذين كانوا في الطريق؛ كان لا بد من تنفيذ الأوامر».

قالت الأم بحزن: «نعم سمعت أمورا كهذه عن تلك الأيام التي اعتمد فيها على سرعة الرجال والخيول لتوصيل الرسائل، ولا لوم عليهم. فليس من المنطقي أن يوقف قانون أو ينفذ لمجرد سماع أخبار بلا أدلة، إذن لَسِيسَتْ البلاد بالتخمين. وذلك أمر غير مقبول! وذلك أمر غير مقبول!»

اندهشت حين نظرت إلى أمي، فوجدتها متضرجة الوجنتين ومخضلّةَ العينين جاذبةً المعطف العسكري بقوة إلى حجرها مسددة نظرها نحوي.

وتابعت كلامها: «كم تدنو بلدان العالم من بعضها البعض. لقد كانت مربيتك العجوز على حق يا إيتسو، عندما قالت إن الأرض مسطحة وأنك على الجانب الآخر من اللوحة، ولست بعيدة، إنما بعدت عن أنظارهم». وابتسمنا معًا، لكن شفتي أمي كانتا ترتجفان. وضعت ذراعها حولي بلطف، ومنذ تلك اللحظة أحببت الأم!

كان معلم الذاكرة الآخر في حياتي هو اليوم الذي نَعِمتُ به في النادي. كانت الأم عضوا في مجموعة أدبية درس أعضاؤها عن بلدان مختلفة وكتبوا عنها المقالات. واعتادت على عقد اجتماعاتها في منازل الأعضاء، وفي وقت مبكر من صباح اليوم الذي كان فيه دور الأم للاستضافة، تلقت رسالة تدعوها إلى المدينة لزيارة «بين القطارات» من صديقة عزيزة تمر بالمدينة في طريقها إلى أرض بعيدة. وكانت ستعود قبل انتهاء الاجتماع، لكنني شعرت بالفزع لأنها أوكلت إليّ مسؤولية ترتيب الغرف واستقبال الضيوف.

قال ماتسو الذي كان متأهبًا للذهاب لعمله:

«ليس هناك ما يدعو للقلق. سمعت أمي تطلب من ويليام أن يحضر المزيد من المقاعد من الطابق العلوي وما عليك إلا أن تقرري أين يضعها ويرتبها بنفس ترتيب الكنيسة. وكلارا ماهرة في ذلك».

صحت بقلق وضيق بالغ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«لكن أمي كانت تزمع ترتيب الزهور، وذكرت أن لديها طاولة صغيرة معدة للرئيس، و- أوه، يجب نقل البيانو إلى مكان آخر! لقد أخبرتني أمي بذلك. تمنيتُ بشدة لو أنها حاضرة».

«لا تعقدي المسألة! كلارا قادرة على القيام بأي شيء»؛ ثم جرى ماتسو عبر العشب استجابة لتلويح أحد الجيران الذي كان ينتظره في عربته عند البوابات الحديدية.

كنت أعرف أنه كان محقًا، فكلارا قامت بتنظيف الغرف في اليوم السابق بالفعل، وأتمت عمل كل أمر ضروري؛ ولكني، مع ذلك، شعرت بالضياع والعجز.

وفي خضم حزني، رأيت سيدة عجوز من الحي تقبل نحوي، وكانت قد اعتادت المجيء أحيانًا لتبادل أطراف الحديث مع أمي. ركضت نحوها ورحبت بها بحرارة شديدة، وحرصت على طلب مشورتها.

قالت: «البيانو لا يعوق الطريق، فالغرفة واسعة، حتى لو حضر الجميع. لستِ بحاجة لتغيير أي شيء، تحتاجين لمزيد من المقاعد وحسب. لكن، ثم حولت نظرها إلى الصالونات الشديدة الاتساع، ذات ستائر الدانتيل المسدلة على النوافذ، والمرآة الطويلة بإطارها المذهّب، لتكمل: «تبدو الصالات فارغة بدون الطاولة المركزية. لماذا لا تنثرين بعضًا من أغراضك اليابانية الموجودة في الطابق العلوي؟ ستضيف أثراً رائعاً للمنظر العام».

حالما غادرت، أنزلت العديد من الأشياء اليابانية ونثرتها في أرجاء الغرفة. ثم قمت بتنسيق بعضًا من أزهار السوسن في مزهرية وفقًا لقواعد تنسيق الزهور اليابانية الأنيقة والصارمة، ثم تراجعت للخلف لمعاينة النتيجة.

أجلت بصري بتمهل في جميع أنحاء الغرفة، بدءًا من الزهور. لم يرضِني المنظر. أين الخطأ؟ كانت كل أداة من الأدوات اليابانية مصنوعة بإتقان نادر، وكانت الفازة جميلة بزهورها؛ ولكن لسبب مبهم، بدت الصالات أقل جمالًا من قبل. مال بصري إلى مبخرة برونزية صغيرة أهداها لي في طفولتي أحد أطفال تودا، لألحقها بمجموعتي للدمى. لاحت في غير مكانها هناك في خزانة الكتب الأمريكية؛ وعندما رفعت عيني

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

رأيت فوقها لوحة إغريقية، فهممت بانتزاعها بصورة هستيرية وإلقائها بعيدًا. لكن انبثقت فجأة في ذهني صور الغرف الباردة والمشرقة لمنزلي في ناجاوكا - والزينة القليلة، كل قطعة منها في مكانها المصمم لها - واتضحت الفكرة لي؛ إن مقتنياتي اليابانية جميلة في بيئتها الملائمة، لكنها لم تكن جميلة في حد ذاتها، ولم تُضف شيئًا إلى جمال غرفنا الفخمة. لقد كانت مجرد تحف بشعة وغريبة. أخرجتها كلها على عجل وأخذت مزهرية السوسن التي نسقتها بعناية، إلى المطبخ، وهرعت إلى الحقل الخلفي لمنزلنا وجمعت حفنة من الأعشاب المنتفشة وزهور الأقحوان. وعلى عجل ملأت بعشوائية كل المزهريات الموجودة في المنزل، بغض النظر عن شكلها أو لونها، بالأزهار البرية اليانعة. فتجلى جمال الغرف، وقد تجانست كليًا مع المعشب الخارجي الواسع، الممتد في تموجات متعرجة من اللون الأخضر حتى الجدار الرمادي الحجري.

تنهدت بارتياح واتكأت على أريكة وقلت: «سيظل الغرب غربًا، والشرق شرقًا. أظن أنني سأنسى طالما بقيت هنا معايير الجمال التقليدية؛ فسحر الطبيعة وحسب هو ما يناسب هذه الغرف الكبيرة الفارغة ذات الطابع العائلي في بيت الأم».

---

(35). الكاميشيمو عبارة عن سترة ذات أكتاف كالجناح وسروال طويل كامل يتم ارتداؤه فوق الكيمونو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عادات غريبة

ثمة كنيسة حجرية كبيرة في ضاحيتنا لم تغط تكاليفها بعد، كونت نساء الكنيسة جمعية أسمينها «دعم السيدات». تقيم تلك الجمعية أحيانًا معرضًا أو حفلًا موسيقيًا وأحيانًا مسرحية تقدمها المواهب المحلية، تهدف لجمع المال للتمويل. في إحدى الأمسيات، حضرث أنا وأمي وماتسو إحدى هذه الحفلات الموسيقية. كان البرنامج عبارة عن أغنية منفردة لبعض المختارات الكلاسيكية. كانت المغنية ابنة موهوبة لأحد الرعايا الأثرياء، تلقت تعليمها الموسيقي في أوروبا. عرفتها شابة هادئة نوعًا ما، ذات صوت رقيق وأخلاق كريمة؛ ولذلك فوجئت، حين صدحت الموسيقى، برؤيتها تتقدم بخفة وعفوية، وتنحني مبتسمة للجمهور، يمينًا ويسارًا، لتقدم عرضًا صوتيًا بترجيعات واضحة صافية ورنانة وبتعبيرات وجه متنوعة، لكن وقعها كان غريبًا وعجيبًا على سمعي الذي لم يألف مثل تلك الأصوات، بيد أنه كان أروع ما سمعت في حياتي.

وقد علق بذهني أثر من بهاء الصوت وحركته السريعة وعلو نبرته، ما يتباين تباينًا صارخًا مع موسيقانا الكلاسيكية، التي تعرض دائمًا بتنويعات خافتة، وحركة بطيئة، ونغمات عميقة، وهادئة. كذلك فإن موسيقانا مثل معظم الفنون اليابانية، تتطلب عيونًا وآذانًا مصغية، وإلا فقدت جاذبيتها. أما منصات عروضنا فلا تتغير. فقد كان الجزء الخلفي بأكمله عبارة عن لوح واحد متين من خشب الأرز الطبيعي، رُسِمَ عليه شجرة صنوبر قزمة وضخمة. وأرضية عارية من خشب الكافور. يقعد عليها المغنون، كلهم رجال بالطبع، وكأنهم دمى، دون حركة. يلبسون لباس المناسبات التقليدي ذا الألوان الخافتة. يبالغ كل منهم، بالانحناء ويطيل قبل أن يبدأ في الغناء، وبعد تأمل متدبر، يضع مروحته أمامه أفقيًا على الأرض. ثم، يجلس باستقامة صارمة بلا حراك واضعًا راحتي يديه على ركبتيه، ليسرد مترنمًا ببعض القصص الشيقة عن الحرب والحب بطلاقة خطابية مذهلة؛ ولكن بلا أدنى حركة من بدنه أو أي تغيير في تعبيرات وجهه.

في الختام، غالبًا ما تورِّدُ المشاعرُ وجه المغني، ولكن دون أن يرتسم على محياه

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أي تعبير، ينحني، ثم يرفع برفق مروحته وقد أمسك بزمام عواطفه. يجلس الجمهور في صمت مطبق. قد ينفعل الجمهور حد البكاء أو يبلغ أعلى درجات الإثارة، ولكن دون الإفصاح عن ذلك، خلا صوت شهقة خافتة أو تنهيدة خاطفة. ظل الكبت هو السمة المميزة لكل ما هو رفيع، ولقرون طويلة، وأعظم ما كان يكرم به مغنٍ ما أو ممثل في الدراما الكلاسيكية هو أن يستقبل بصمت عميق.

الشيء الوحيد الذي لم أستطع التعود عليه في أمريكا هو الموقف الفكاهي تجاه النساء والمال. فقد سمعت قصصًا فكاهيةً يلقيها الرجال والنساء من كل الطبقات، وتنشرها الصحف والروايات وحتى في خطب المحاضرين، بل حتى من على المنبر مرة، تحمل تلك القصص مآخذ على نساء يخفين المال في أماكن غريبة، أو يقترضنه من صديقة، أو يحصلن عليه بخداع أزواجهن، أو يدخرنه سرًا لبعض الأغراض الخاصة. لم تحمل تلك القصص أي إلماح لعار. فربما وفرن المال لشراء ستائر جديدة للردهة، أو حتى هدية عيد ميلاد للزوج. كانت تلك النكات بمثابة لغز محير لي، وكان لغزًا لا ينفك يكبر باستمرار؛ لأني ومع مرور الوقت، لاحظت أشياء جعلتني أعتقد أن كل ذلك قد يستند على أساس من الواقع.

كانت ضاحيتنا صغيرة وكنا نهتم بشؤون بعضنا البعض، لذلك كنت أعرف الجميع تقريبًا. عرفت أن السيدات كن ذوات علم وثقافة، إلا أنهن جميعًا كان يعوزهن تحمل المسؤولية المالية وذلك أمر شائع ومعترف به علنًا بينهن. كن بلا استثناء يرتدين ملابس أنيقة، وبدا أنهن يمتلكن بعض المال لغايات محددة، ولكنهن لم يملكن ميزانية تحت تصرفهن ليصرفنها بحرية ومسؤولية. حدث أن كانت لدي طاولة عرض ذات مرة، في معرض الكنيسة، حيث قامت العديد من السيدات، بعد التجول في القاعة وتفحص المعروضات المختلفة، بشراء بعض الأشياء الصغيرة الرخيصة، ولكنهن أجلن شراء الأشياء باهظة الثمن قائلات:

«سيكون زوجي هنا لاحقًا» أو «سأطلب منه شرائها»، أو «عند قدوم السادة ستباع البضاعة باهظة الثمن»

في المقابل، لم يسبق لي أن عرفت رجلاً يابانيًا يشتري أي شيء لمنزله، أو يتوقع

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منه ذلك.

توقفت صديقتي ذات مرة، حينما كنت أتسوق معها، عند مكتب زوجها لتطلب منه المال. بدا لي الأمر بالغ الغرابة، ولكن حدث أمر استرعى فضولي أكثر منه، عندما ذهبت بصحبة أمي إلى اجتماع لسيدات الكنيسة حيث كن يحاولن جمع الأموال لسبب غير عادي. ونظرًا لأن جمعية مساعدة السيدات قد انتهت من جمع تبرعات الرجال، لذا تعهدت كل عضوة بجلب خمسة دولارات هذه المرة، على أن تحصل عليها بشكل مستقل عن زوجها. كان الاجتماع الذي حضرته هو الاجتماع الذي ستسلم فيه الدولارات. شرحت كل سيدة لما حان دورها كيف نجحت في الحصول على دولاراتها الخمسة. الأغلبية منهن ادخرنه بطرق مختلفة، شيئًا فشيئًا. بينما ذكرت إحدى النساء أنها قدمت تضحية كبيرة عندما أعادت إلى صانع قبعاتها قبعة جديدة كانت قد دفعت ثمنها، ولكنها لم ترتديها، مقابل قبعة أقل تكلفة بخمسة دولارات.

وباعت أخرى تذكرتي مسرح قدمتا لها كهدية. وروت أخرى، بأسلوب بارع للغاية، كيف أنها، رغم فقرها تقدم المساعدة للمحتاجات، فقد قضت معظم وقت فراغها لأسبوع كامل، وتعهدت لمدة أسبوع إضافي برتق جوارب أطفال جارتها الغنية من خارج المجموعة.

كان اللقاء مشوقًا للغاية. وذكّرني بحفلات «نظم القصائد» التي كنا نقيمها، ولكن بالطبع الموضوع هنا مغاير والقصص تدور حول موضوع محرج. إذ كنت مستمتعة بالإصغاء لهن، حتى قامت امرأة جميلة ومشرقة ترتدي ملابس أنيقة وقالت إنها لا تعرف كيف توفر المال ولا تعرف كيف تكسبه. كانت قد قطعت وعدًا بعدم التحايل بحسابها في المتجر، وألا تطلبه من زوجها، لذا فعلت الشيء الوحيد الذي بقي لها أن تفعله: سرقته من جيب زوجها أثناء نومه.

وقد أثار ما حكته قدراً كبيراً من البهجة وسط السيدات، ولكنه أحزنني. وبدت لي مأساوية الأوضاع حين قالت المرأة: «لم يكن بيدي حيلة أخرى». لقد بدا أمرًا لا يصدق، أن تُجبر امرأة ذات كرامة وثقافة، سيدة المنزل، وأم الأبناء هنا في أمريكا حيث تتمتع المرأة بالحرية والثقافة، أن تجبر أمام خيارين إما أن تطلب المال من

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زوجها، أو أن توضع في موقف مهين.

حينما غادرت الوطن، كانت اليابان بشكل عام لا تزال تتبع التقاليد القديمة المتمثلة في تنشئة الفتاة لتغدو مسؤولة عن كافة أمور أسرتها، بما في ذلك الزوج. وإذا كان الزوج سيد الأسرة، فالزوجة سيدة المنزل. هي المسؤولة عن جميع نفقات الأسرة المعيشية، بما في ذلك السكن والغذاء وملابس الأطفال ومدارسهم، والالتزامات الاجتماعية والخيرية، ولباسها الخاص، الذي يفترض أن تعكس خامته وأناقته وضع زوجها الاجتماعي. إذن من أين تحصل على المال؟ من الزوج بالتأكيد، فكل دخله لعائلته، والزوجة بمثابة المصرفي. وهي تفخر بقدرتها على تدبير الأمور بحيث تتمكن من إعطائه المبلغ المناسب لمكانته حين يطلب مبلغًا لنفسه. أما فيما يتعلق بمتطلبات منصبه، فليس هناك شك في أن تلك المهارات جزء من تعليم الزوجات، وقد يظهر الزوج عدم مبالاته أو تردده، بيد أنها تدير المنزل بأكمله وترعى مكانته فيكون ذلك مصدرًا لفخره، وإن خرجت الأمور عن السيطرة وعمت الفوضى فتلك خسارته ولذلك فاحتياجات بيته لها الأولوية دائمًا. يتزوج الرجل، في المقام الأول، كواجب تجاه الآلهة والأسلاف؛ وثانيًا، للحصول على سيدة تجعل البيت والأبناء ذخرًا له. إذا نجحت بذلك، سيثني عليه أصدقاؤه. أما إذا فشلت، فسيكون محط شفقتهم.

والأمر ينطبق على جميع طبقات المجتمع، باستثناء أصحاب العقارات الكبيرة أو رجال الأعمال الكبار. إذ يوظفون أمين صندوق، بيد أنه رهن لإشارة سيدة المنزل، وحين تحدد ما تحتاجه من مال، فإن كلمتها نافذة. وليس لأمين الصندوق أن يحتج إلا بالتلميح المتبوع باعتذارات كثيرة، كأن يقول «إن سيدتي الموقرة على وشك تجاوز حسابها». وغالبًا ما تتقبل ذلك، فالمرأة اليابانية، شأنها شأن أي امرئ في منصب مسؤول، تسعى لتأدية وظيفتها على أكمل وجه. فقدت العادات القديمة مركزيتها عامًا بعد عام، ولكن على الرغم من ذلك، لا يزال الناس يتأثرون بشكل كبير بتلك الأنظمة التي كانت في السابق شاملة ومقبولة على نطاق واسع، ولا يزال يُنظر إلى أي خروج عنها بسلبية.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

اختلفت المعايير بين بلدي والبلد الذي احتضنني اختلافًا كبيرا في بعض النواحي، وكان حبي لكلا الأرضين صادقا للغاية، لدرجة أنه في بعض الأحيان راودني إحساس غريب، حيث شعرت وكأني أقف على سحابة في الفضاء، وأحدق إلى عالمين مختلفين بنظرات تقييمية. في البداية كنت أميل باستمرار، إلى أن أفسر كل أمر غريب يعن كل يوم أمام عيني المندهشتين بمفاهيمي اليابانية؛ فقد لاح لي أن لا أحد يعرف أصل أو أهمية أي عادة من العادات المتبعة هنا، ولا سبب اتباعها. بينما كان الأمر مختلفاً تمامًا من حيث أتيت، ففي اليابان هناك سبب لكل حركة في آداب السلوك، وهناك سبب لكل موضة لباس، -بل، ولكل فعل تافه تقريبًا في الحياة-، أما هنا فبدت لامبالاة الأمريكيين تلك فريدة جدًا.

باتت الأم منبعًا لا ينضب من المعلومات لي، لكنني لجمت جماح أسئلتي الكثيرة عنها، إذ أن فضولي كان كثيرًا ما يتعلق بأشياء غريبة وتافهة وغير مهمة، مثل السبب وراء بقاء السيدات بقبعاتهن في الكنيسة في حين يخلعها الرجال؛ وما فائدة الصحون الصينية التي رأيتها معلقة على جدران بعض البيوت الجميلة؟ ولماذا يؤخذ الضيوف إلى غرفة النوم وخصوصيتها ويطلب منهم وضع قبعاتهم ومعاطفهم على السرير - وهو مكان يشير إلى النوم أو المرض؛ لماذا يجري الناس مكالماتهم الاجتماعية مساءً - وقت الراحة في اليابان؛ ما سبب كل تلك السخافة وذلك الفرح في عيد الهالوين وأيام كذبة إبريل، وكيف نشئت العادة الغريبة، وهي وضع الهدايا في الجوارب، الجوارب! الأقل مكانة من بين كل قطع الملابس. بدا لي الأمر أكثر غرابة حين لم أجد أي تلميح أو إشارة إلى هذه العادات في حديث الناس ولا الكتب ولا الصحف. أما في اليابان، فالتقاليد والفولكلور ورمزيتها تعتبر أولوية دومًا. تجد أثرها على ما يرتديه الناس في الطرقات؛ والعلامات التجارية المنتشرة على ستائر مداخل المحلات التجارية؛ وعلى زخارف الخزف الصيني؛ وهتاف الباعة المتجولين وقبعات الجنود والتنورة ذات الثنيات للتلميذات، كلها ترتبط بمعانٍ وأسباب في القصص الشعبية المشهورة. حتى المنشفة الصغيرة ذات اللونين الأزرق والأبيض التي يشدها رجال الجينريكشا حول رؤوسهم، وصناديق طعام العمال المكونة من طبقات، كلها تحمل نقوشًا تشير لقصيدة قديمة أو شيء من الفولكلور، مألوفة لكل

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

طفل ياباني كما يألف الأطفال الأمريكيين ألحان مازر جوز.

تحدثت إليّ إحدى السيدات في عصر يوم من الأيام، في حفل ضيافة صغير وعبرت بسرور عن مدى صحة انتعال صندل مثل صندلي للقدم، ثم أشارت بامتعاض إلى موضة الكعب العالي ومقدمته المدببة التي كانت رائجة آنذاك.

فسألتها: «ولماذا تنتعل هذه الأشكال؟ «وكيف بدأ استخدامها؟»

فأجابت: «أوه، بلا سبب. مجرد موضة؛ مثل... حسنًا، مثل طي لباسك على اليد اليسرى».

قلت: «ولكن هناك سبب لذلك، إذ لا يطوى الكيمونو من اليمين إلا على الميت».

أثار ذلك اهتمامها، وتناقشنا حول خصوصية اليابانيين الذين يبجلون دائمًا اليسار فوق اليمين في كل شيء، بدءًا من العرش الإمبراطوري وحتى ربط العقد. ثم، لمست الجزء الخلفي من نطاقي بخفة،

وسألتني: «هل تمانعين أن تخبريني ما الغرض من هذه الأنشوطة؟ هل هي لحمل الأطفال؟»

فقلت: «لا، إنه نطاق، مجرد زينة. أما الطفل فيُحمل في وشاح يشبه الأرجوحة يتأرجح من أكتاف المربية»

قالت: «إن خامة نطاقك جميلة جدًا. هل لي أن أسأل لماذا قمت بطيه على هيئة وسادة مسطحة بدلاً من نشره، لتبرز الرسومات؟»

نظرًا لأنها بدت مهتمة حقًا، فقد شرحت لها عن طيب خاطر الأنماط المختلفة لربط النطاق، وأنها تختلف باختلاف رتبة كل شخص وعمره ومهنته؛ واختلاف المناسبات. ثم سألتني: «لماذا يستهلك الكثير من القماش؟» لقد أسعدني ذلك السؤال، فبالنسبة لليابانيين، فإن الأهمية الرمزية لأي شيء عادة ما تكون لها الأسبقية على جماله المادي(36). أخبرتها بأن عرضه اثنتا عشرة بوصة وطوله اثنتا عشر قدمًا ولهذا المقياس سبب ومعنى، وشرحت لها كيف أنه يرمز إلى الكثير من الأساطير الشرقية

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

القديمة ومعتقدات التنجيم.

قالت وهي تستدير مغادرةً: «هذا مثير جدًا للاهتمام، خاصة فيما يتعلق بدلالات الأبراج وما إلى ذلك؛ ولكن ما الفائدة من طي كل هذا الديباج الرائع. ألا ترين بنفسك، أيتها السيدة الصغيرة؟» وابتسمت بجذل وهي تضيف: «أليس إثمًا شراء كل هذه الأمتار من القماش الجميل وإهداره بلا فائدة؟» ثم غادرت مبتعدة تجر خلفها على الأرض حاشِيَةً طويلةً من المخمل باهظ الثمن.

أشعرني أثاث بيت أمي في البداية أنني في متحف، فقد كان مصنوعًا من خشب متين جميل وبعضًا من أجزائه كانت محفورة؛ ولكن حين زرت البيوت الأخرى، لم أجد لا البساطة ولا الاعتيادية في أي منها. بل ذكّرتني بالمخازن، فقد كانت مكتظة للغاية، ليس فقط بالكراسي والطاولات والصور، بل أيضًا بعدد من الأشياء الصغيرة - تماثيل صغيرة، ومزهريات فارغة، وأصداف، وصور فوتوغرافية مؤطرة، بالإضافة إلى تحف نادرة وغالية؛ وكلها كانت مبعثرة في الأرجاء بلا نظام أو انسجام، على عكس القواعد اليابانية.

مرت شهور عديدة قبل أن أتمكن من التغلب على ما تملكني من إحساس بأن ذلك الاكتظاظ كان مجرد مناسبة مؤقتة، وسرعان ما ستعاد كل الأشياء إلى المستودع. كانت غالبية تلك القطع الأثرية جميلة، خلا أن بعضها كان على صورة حذاء، أو أخمص القدم. يبدو أنه كان شكلا رائجًا، وإلا فإن عيني النافرة منه باتت ترصده دائمًا، فلقد رأيته في كل منزل دخلته، في ثقالة ورق، أو مزهرية، أو أشياء صغيرة أخرى. ذات مرة رأيت حاملاً لأعواد الأسنان على صورة حذاء خشبي صغير. وجدت الأمر غير مستساغ بالمرة، بسبب التحيز الذي امتد لأجيال في اليابان حيث تعتبر القدم الجزء الأقل احترامًا من الجسم. فمهما بلغت الهدية من جمال أو كلفة لن تحمل أي قيمة إن كانت على شكل حذاء. لاحظت أيضًا أن التحف اليابانية رائجة جدًا، وتوضع حتى في أماكن غير مناسبة على الإطلاق. على سبيل المثال، صناديق الطعام وأوعية الأرز برزت على طاولات الاستقبال، وعلقت لفائف الصور الرخيصة على الجدران الأنيقة، واستخدمت صنوج المعابد كأجراس لطاولات غرف الطعام،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحراس السيوف(37) كأوزان لتثبيت الورق، وعلب الحبر للمناديل، وصناديق البريد للقفازات، وكؤوس الزفاف لصواني الدبابيس، وحتى أني رأيت مباصق صغيرة من الخيزران استخدمت لحمل الزهور.

لقد تعلم عقلي المكابر في نهاية المطاف، وإلى حد ما، أن يفصل الشيء عما يحيط به؛ بعدها وحسب صار بوسعي رؤية القيمة الفنية للأشياء من منظور الأمريكيين. كما أنني اكتسبت عادة، وهي أني كلما رأيت الأشياء اليابانية هنا تتحول إلى أمور طريفة، وهو نتاج قلة معرفة باليابان كما هو جلي، حاولت أن أتذكر سخافة مماثلة لتعامل اليابانيين مع الأشياء الأجنبية. ولم أفشل أبدًا في مقابلة النماذج فكل نموذج هنا قابله نموذج هناك. أجبرني سؤال بريء من سيدة شابة ذات مرة على تذكر أمر مشابه، فقد أخبرتني، بنبرة مشككة، أنها سمعت مرة، في محاضرة عن اليابان، أن بعض السيدات اليابانيات اللاتي يرتدين ملابس أنيقة غالبا ما يضعن حول أكتافهن مفارش الطاولات العادية والرخيصة من قماش الشنيل كوشاح. لم يسعني إلا أن أضحك وأُقِرُّ لها بأنها كانت موضة شائعة بالفعل قبل بضع سنوات. فقد كانت السلع المستوردة نادرة وباهظة الثمن، وحيث أننا لا نستخدم أبدًا أغطية الطاولات، فما شككنا في كونها شالات جميلة. لم تواتني الشجاعة لأخبرها أنني ارتديتها أيضًا، ولكنني أخبرتها بأمر حصل في منزلنا في ناجاوكا حين كنت طفلة.

مرة عند عودة والدي من إحدى زياراته إلى العاصمة، أحضر لكل من إيشي وكين منشفة تركية كبيرة بحواف ملونة وأهداب سميكة، فامتلأت قلوبهن بالفخر، ذهبن لأداء شعائر المعبد وهن يضعن المناشف حول أكتافهن. لا تزال صورتهن ماثلة أمامي وهن يخرجن من البوابة متباهيات، والمناشف البيضاء تغطي أفضل ما لديهن من ملابس وتتدلى أهدابها الجديدة الصلبة على أكمامهن اليابانية الطويلة. ذلك مشهد سيضحكني الآن بلا شك، ولكن يومها كنت مفتونة به؛ وبدا أمرًا طبيعيًا تمامًا أن يكون موضع حسد جميع الناظرين.

كانت مشاهدتي لتنافر تنسيق تحف إحدى السيدات، هو التحدي المحبط الذي واجهته بلا داع لعدة أشهر في محاولاتي لرؤية الأشياء اليابانية من خلال العيون

الأمريكية. خلال زيارتي للسيدة هويت، وهي صاحبة منزل بالغ الجمال، انجذبت عيني إلى منحوتة رائعة، تُعرف في اليابان باسم «يد الحفيد»، ولكنها تُعرف في أغلب الأحيان في أمريكا باسم «حك ظهري». كانت معلقه بخيط حريري من أعلى خزانة خشب الأبنوس، وبجانبها، علقت بلا مبالاة على نفس الحبل، مسبحة من الخرز البلوري والمرجاني. كانت مصفوفة الأصابع العاجية الصغيرة منحوتة بشكل رائع، وكانت المسبحة مصنوعة من المرجان الوردي النادر والبلور النقي؛ ولكن ضاع كل ذلك الجمال من وجهة نظري الشرقية، إذ أفسده ذلك التنسيق الغريب. كان الأمر أشبه بوضع الكتاب المقدس جنبًا لجنب مع فرشاة الأسنان على منضدة الصالون. لا أثلب ذائقة المضيفة. كان ذوقها الرفيع واضحًا في الأمور الفنية بلا شك، وفي أمريكا كانت تلك المنحوتات موضوعًا فنيًا وحسب. وهكذا فإن أماكنها صحيحة. ذلك ما أدركته، بيد أني، دأبت على تجنب النظر إلى تلك الخزانة المصنوعة من خشب الأبنوس كلما دلفت إلى تلك الغرفة. ولم تواتني الشجاعة لإخبار صاحبة البيت عن ارتياعي في زيارتي الأولى لمنزلها إلا بعد مضي عامين وقد توثقت عرى الصداقة بيني وبينها. ولا زلنا نضحك على ذلك إلى الآن، وكلما تذكرت أن المسبحة و «يد الحفيد» لم تعودا معلقتين جنبًا إلى جنب؛ استوطن قلبي الرضا.

أزيل شيء آخر من منزل السيدة هويت في نفس اللحظة التي فرقت فيها بين المسبحة و «يد الحفيد». أعني صورة فوتوغرافية ملونة كبيرة لمشهد في اليابان، ولم تكن مطبوعة عتيقة. بل كانت صورة جميلة، ذات ترتيب أنيق وألوان دقيقة، وقد وضعتها مضيفتي في مكان بارز. لم تر عيناها الجهولتان سوى الجمال الفني، لكن قلبي اعتراه الخجل وأثقله. إذ لم تجسد تلك الصورة سوى إحدى محظيات مومسات طوكيو المشهورات وقد التقطت عند باب منزلها المهني. لم تكن لِتُقْتَنَى في أي منزل ياباني محترم.

سألت نفسي باستغراب «أوه، لماذا يبيع اليابانيون مثل تلك الأشياء؟»، لكن سرعان ما رددت بسؤال محير آخر، «لماذا يرغب بها الأميركيون ويشترونها».

ذهبت يوماً بصحبة إحدى الصديقات إلى المدينة للتسوق. جذبت انتباهي فتاة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صغيرة أثناء مرورنا بالسيارة كانت تجلس في الجهة المقابلة للشارع، وتأكل شيئًا ما. بينما يستحيل أن نرى أطفالاً يأكلون في الشارع، أو في مكان عام في اليابان. ولم أعلم حينها أن الحال في أمريكا يختلف، وليس كما الحال عندنا فلا نأكل أبداً إلا على المائدة. كنت أنا وصديقتي منشغلتين بالحديث، لذلك غفلت عن الطفلة لفترة، ولكن حينما ألقيت نظرة عليها مرة أخرى بالصدفة، فوجئت بأنها ما تزال تأكل. بعد ذلك عاودت النظر إليها مرتين أو ثلاث مرات، التفتت إلى صديقتي قائلة: «أتساءل ما الذي تأكله هذه الطفلة». أجابتني صديقتي: «لا تأكل شيئًا البتة إنما تمضغ العلكة». عاودت النظر إلى الطفلة. كانت تجلس بفتور، بدى عليها التعب والإرهاق، ترتخي يداها على حجرها، وتمتد قدماها حول حقيبتها بوضعية صعبة ومحرجة. وبينما تفرست وجهها المتعب، تذكرت فجأة شيئًا ما حدث لي أثناء رحلتي في القطار وهو يعبر القارة الأمريكية. فسألت صديقتي: «هل تظنيها تشكو من شيء؟»

فردت: « لا، لا أعتقد ذلك. لم السؤال؟!»

أجبتها: «أعتقد أنني تناولت مثل ذلك الدواء في القطار».

قالت صديقتي وهي تضحك:

«أوه، لا! العلكة ليست دواءً. إنها نوع من الشمع، للمضغ وحسب»

فسألت: «لماذا تفعل ذلك».

قالت: «أوه، معظم الأطفال في صفها يمضغون العلكة، وهو أمر لا يمت للرقي بصلة. ولا أسمح لأطفالي حتى بلمسه».

سكت ولم أضف شيئًا، لكنني فهمت حينها حادثة حدثت لي في القطار. حيث أصابني غثيان السيارة فضايقني، أعطتني عندها السيدة هولمز كتلة صغيرة مسطحة من الدواء العطري الذي قالت إنه سيعالج الغثيان. وضعته في فمي ومضغته لفترة طويلة، لكنني لم أستطع ابتلاعه. تعبت من المضغ بعد فترة من الوقت، لكن السيدة هولمز كانت ما تزال تأكل دواءها، لذلك، استنتجت أنه لا بد وأن يكون دواءً يتمتع بميزة رائعة، لأنه لا يذوب، ولففته بعناية في قطعة من المناديل

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الورقية البيضاء ووضعته داخل علبة المرآة الصغيرة، التي كنت أحملها في نطاقي يومها.

لا علم لدي بأصل هذه العادة الغريبة، لكنني تيقنت بأنه ما من شيء غريب صادفته في أمريكا، إلا ووجدت مثيلًا له في اليابان. إذ ذكرني مضغ العلكة بنفخ الهودزوكي، وهي عادة شائعة بين بعض الأطفال اليابانيين؛ وفتيات المقاهي ونساء الطبقة المتواضعة. الهودزوكي يتكون من حبات توت حمراء صغيرة ذات قشر ناعم وقوي. اللب طري للغاية ويمكن عصره للخارج بالطريقة الملائمة تاركًا القشرة غير المكسورة على شكل فانوس دائري صغير. ليس لتلك الكرة المرنة الصغيرة طعم، لكن الأطفال يستمتعون بوضعها في أفواههم وإصدار «موسيقى الفم» عن طريق النفخ بلطف في الغلاف المجوف، فيتناهى للسمع كالنقيق الخافت البعيد لضفادع البركة. لا يصدر نفخ الهودزوكي موسيقى عذبة، ولا يعتبر عادة حسنة، لكنه نظيف وغير ضار. أسوأ ما قد يوصف به ما تنعته به المربيات حين يؤنبن الصغار: «اخرج هذا الشيء المزعج من فمك، سيورِّمُ شفتيك لتغدو بشعة».

---

(36). الرمزية جزء لا يتجزأ من الثقافة والفن الياباني. يعتقد أن كل كائن له معنى أعمق يتجاوز مظهره المادي. على سبيل المثال، يؤكد المفهوم الياباني لـ "wabi-sabi" على جمال النقص والزوال. وبالمثل، فإن العديد من المخلوقات الأسطورية والحيوانات والعناصر الطبيعية لها معان محددة في الفن الياباني.

(37). Tsuba قطعة تثبت بين نصل السيف وقبضته لحماية يد المستخدم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفكير

تأرجحت في الزاوية الواسعة حيث تلتقي الشرفتان الأمامية والجانبية أرجوحتِي الشبكية، تظللها شجرة تفاح كبيرة، اعتدت أن أضع عليها وسادة كبيرة وأجلس على الطريقة اليابانية أثناء القراءة، ولم أتمكن من التعود على الاستلقاء فيها أبدًا، مثلما كانت تفعل أمي أحيانًا. أحببت أن أتخيلني في عربة كاجو مفتوحة -هادئة وغير متأرجحة- بينما كنت أترقب مرورًا خاطفًا للعربات والفرق الريفية، التي كانت تمر أحيانًا على الطريق خلف الأشجار دائمة الخضرة والجدار الحجري، وكان بوسعي من هناك، وعبر مساحة صغيرة من اللون الأخضر، من الفجوة التي أحدثها سياج الزهور الليلكية بجوار الجسر المتحرك، رؤية منزل أقرب جيراننا. لم يكن لدينا الكثير من الجيران القريبين، لأن ضاحيتنا كانت واسعة شاسعة، ومنازلها متباعدة. كل منزل منها يقع في وسط مساحة كبيرة خاصة، معشبة ومشجرة. وفصل بين مرج وآخر بسكة ضيقة مرصوفة بالحصى أو طريق للعربات.

أحببت تلك المنازل الخالية من الأسوار. لم أر في اليابان أبدا أي منزل لم يحوط بجدران من الحجر أو الجص. حتى أكواخ القرية المتواضعة حوطت بأسوار من خشب أو خيزران. كانت إحدى تخيلات طفولتي الغريبة، هي تصور مدى روعة سقوط جميع الأسوار بغتة، وانكشاف الحدائق المخفية فجأة لكل عابر. شعرت هنا في بيتي الأمريكي أن أمنية طفولتي قد تحققت. لم تكن تحيطها أي أسوار وكانت الأزهار والعشب مشاعاً للجميع، ينظرون إليه ويستمتعون به. ثم انساق فكري نحو حدائق اليابان حيث الجمال مكنون للنخبة.

كنت أفكر بكل ذلك في تلك الظهيرة الرائقة، جالسة أخيط في الأرجوحة، وأمي تربط نبات مجد الصباح القرمزي الذي غطى جزءا من الشرفة كبردة خضراء.

قلت فجأة، وقد خطر ببالي خاطر جديد: «أمي، هل خطر لك يومًا أن المرأة اليابانية في زنزانة ومفتاح زنزانتها في جيبها؛ ولكنها لا تفتح الباب لأنه فعل مخالف للحشمة؟»

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ردت الأم متفاجئة: «لا! لم سؤالك؟!، بم تفكرين يا إيتسو؟»

قلت: «خطر لي هذا الخاطر في ذلك اليوم الذي ذهبت فيه لأول مرة، لتناول شاي بعد الظهر. هل تذكرين؟»

قالت أمي مبتسمة: «بالتأكيد أتذكر، لقد بدوتِ كزهرة يانعة وأنت تسيرين في الطريق مع الآنسة هيلين». وأضافت: «حضر الجميع وكنت أنت «حسناء الحفلة»؛ ثم جلستِ على عتبة الشرفة وعلقتِ بهدوء بأن الناس هنا يشبهون مروجهم تمامًا. لم أفهم أبدًا ما عنيته بذلك».

فقلت: «لن أنسى ذلك اليوم أبدًا. طول وقت استعدادي للذهاب، ظللت أتخيل كيف ستبدو السيدات، جالسات يتحدثن في صالة السيدة أندرسون بفساتينهن الجميلة وشعرهن المموج، ويتبادلن أطراف الحديث بسرور كما اعتدن في اللقاءات. لكنهن لم يجلسن بتاتًا حينها. بدا الأمر وكأنهن في الطرقات، حيث ظللن يعتمرن قبعاتهن ويضعن قفازاتهن، ووقفن جماعات أو تجولن في الغرف المكتظة، وكن يتحدثن جميعهن في ذات الوقت. جعلني طنين الأصوات مشوشة لدرجة أن أصبت بالدوار، إلا أن الوضع لم يخل من متعة ولم يكن بذلك السوء، ورغم غرابة الأسئلة التي تلقيتها من الحضور كان الجميع ودودًا ومبتهجًا».

سألتني أمي: «هل كان الضجيج والحماس ما أتعبك إلى هذا الحد؟». فرددت: «أوه، لا، لقد استمتعت به، كان صخبًا بهيجًا. أعجبني كل شيء».

طلبت مني الآنسة هيلين أن أخبرها عن حفلات استقبال السيدات في اليابان ونحن عائدتان إلى المنزل. استطعت أن استرجع في ذهني كيف اعتاد الجميع الاحتفال بالذكرى السنوية في منزلي في ناجاوكا؛ تجلس والدتي بهيبة ووقار، والسيدات حولها بملابس الحفلات، يمضين وقتهن مستمتعات بلا صخب، وحين يتحدثن عن مشاعرهن يخفين أكثر مما يظهرن، يتبادلن الابتسامات والانحناءات وبعض الإيماءات؛ فليس من حسن الخلق في اليابان الضحك بصوت عالٍ أو كثرة التحرك في تجمع رسمي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

علّقت أمي: «جميل ومريح».

بكيت وجلست مستقيمة وقد جاشت عواطفي وقلت: «لكن ذلك مغاير للطبيعة.!» كم انشغل بالي بالتفكير منذ ذلك الحين إننا نتمسك بالتقاليد حد التطرف، وهي تخنق الروح منا. أنا لا أحتمل أن أنعم بكل هذه السعادة هنا - بينما تستسلم أولئك النسوة الصابرات بصمت في منازلهن الساكنة. إن حياتنا في اليابان - حياة الرجال والنساء على حد سواء - تشبه أشجارنا المقيدة، وحدائقنا المغلقة، و....»

توقفت فجأة. ثم أضفت بتؤدة: «غدوت أكثر صراحةً وأكثر شبهًا بالأمريكيين. ذلك مخالف لما عُلّمتهُ».

قالت أمي بلطف: «أنت ترومين هدم الأسوار بغتةً يا عزيزتي. إن أزهار اليابان تفتحت في حديقة ظليلة، وقد يغتال ضوء الشمس الساطع الباغت جمالها ويحولها إلى حشائش ضارة خشنة. ما زال الوقت صباحًا، ستترعرع الأزهار في النور، وبحلول الظهيرة ستكون كل الأسيجة قد سقطت. لا تتعجلي». انحنت بعدها أمي فوق الأرجوحة الشبكية، وقبلتني بهدوء على جبيني للمرة الأولى.

ذهبت ذات مرة مع بعض صديقاتي لمشاهدة (تاجر البندقية). وبعد انتهاء المسرحية، التي كانت في فترة ما بعد الظهر، ذهبنا إلى مكان ما لتناول الشاي. تحمست السيدات جميعهن في مدح الممثلة العظيمة، لكنني كنت عاجزة عن الكلام، لأن عصر ذلك اليوم شهد أحد أكبر خيبات الأمل في حياتي. تلهفت جداً، لرؤية ممثلة غربية ذات شهرة عالمية لأول مرة، وتشكلت في ذهني صورة لدكتور قانون شاب متواضع، يسير عبر المسرح برزانة ووقار وبحركة مسرحية بطيئة يقدم المونولوج البديع. توقعت دون وعي مني، بطبيعة الحال النموذج الياباني.

إلا أن المشهد صدمني. اندفعت إلى المسرح شخصية طويلة ترتدي ثوبًا قرمزيًا وقبعة، لا تناسب جرأتها وعفويتها سوى بالطبقات الدنيا في اليابان، ذكرني ثوبها بزي مهرج ياباني. وتحدثت بورشيا بصوت عالٍ وحثيث لا يليق بسيدة أنيقة ومثقفة، حتى لو كانت متنكرة. والإيماءات على وجه الخصوص، الإيماءات الذكورية القوية! لم تترك فيّ أثرًا، سوى المفاجأة الصادمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما مشهد ضوء القمر الجميل، حيث تلتقي جيسيكا بحبيبها، وكذلك الفصل الأخير، حيث يتعرف كل زوج على زوجته، طفح بالكثير من القبلات وأظهر فجاجة غير مقبولة. وتمنيت لو لم أحضر.

في خضم أحداث العرض، التفتت نحوي إحدى السيدات، التي كانت تراقبني بفضول خلال المشهد الأخير وسألتني:

«هل لديكم مشاهد حب على المسرح الياباني؟»

«أوه، نعم»، أجبت. «يُظهر مسرحنا الحياة كما هي، واليابانيون لا يختلفون عن الآخرين بتاتًا».

قالت مبتسمة: «لكن وجهك أيتها السيدة الصغيرة تضرج خجلاً وبدا لي وكأنك لم ترَي عشاقًا من قبل».

بذلت قصارى جهدي لأوضح أن الإيماءات العاطفية الصارخة القوية لا تتوافق مع الذوق والكرامة، وهو درس تعلمناه على مدى أجيال، ذلك لا يعني أننا نروم قمع عواطفنا؛ إنما لا يليق إظهارها في الأماكن العامة. ولهذا السبب، فإن مشاهد الحب على مسرحنا عادة ما تكون خافتة وهادئة لدرجة أنها قد لا ترضي الجمهور الأمريكي إطلاقاً، إلا أن الشعب الياباني الذي يمكنه إدراك تلك المشاعر المخبوءة، يتأثر بالأداء الراقي لممثلينا تأثرًا بالغًا».

ثم سألتني تلك السيدة الشابة: «ماذا يفعل العشاق حين تستبد بهم العواطف؟»

فأجبتها: «يدير كل منهم ظهره للآخر»

ردت: «يديرون ظهرهم لبعضهم البعض! يا إلهي!»

تعجبت تلك السيدة أشد العجب. وفي اللحظة التالية التفتت نحوي مرة أخرى. وتساءلت: «هل صحيح حقًا أن اليابانيين لا يتبادلون القبل، حتى بين الزوج وزوجته؟»

أجبتها: «يتبادلون الركوع والانحناء، كما تعلمين. تلك طريقتنا للتعبير عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشاعرنا».

صاحت السيدة الشابة: «هل تعنين أن والدتك لم تقبلك أبدًا!.. كيف ودعتك حينما أتيت إلى أمريكا؟»

فأجبتها: «انحنت فقط، ثم قالت لي برقة بالغة: لتكن رحلتك آمنة يا ابنتي».

لم يكن ما قضيته من وقت هنا يكفي حينها أن أفهم التعبير الغريب الذي ارتسم على وجوه السيدات، ولا لحظة الصمت التي أعقبت ذلك قبل أن يتحول الكلام إلى أمور أخرى.

لا يقتصر الانحناء على ثني الجسم فحسب؛ بل له جانبه الروحي كذلك. وفي العادة لا ينحني المرء بالطريقة ذاتها، للأب، والأخت الصغرى، والصديق، والخادم، والطفل. إن انحناءة والدتي الطويلة الوقورة، ووداعها لي بصوتها الرقيق لا يخلو من تعبير عن المحبة الصادقة. لقد شعرت بكل خفقة من خفقات قلبها، بل إن جميع الحاضرين لمسوا مثلي عمق مشاعرها المخبوءة.

اليابانيون ليسوا استعراضيين. وقد دأبوا على ترسيخ قمع المشاعر الفياضة في ذهن وحياة كل طفل ياباني ينتمي للطبقة العليا بحرص، حتى السنوات الأخيرة. أما الآن فالناس ينعمون بحرية أكبر بكثير من ذي قبل، ولكن تأثير الماضي لا ينفك يظهر في كل مكان، في الفن، والأدب، وفي عادات الحياة اليومية. ورغم تعامل الناس بالمودة والبشاشة فيما بينهم، إلا أن هناك نوعاً من التشدد في آداب السلوك يفضي إلى كبح جماح كل عاطفة جياشة، ويلقي بأغلاله على طقوس الميلاد والموت، وعلى كل شيء بينهما: العمل واللعب والأكل والنوم والمشي، والجري، والضحك، والبكاء. ألجمت كل حركة بأغلال التهذيب وذلك اختياراً من المرء؛ فترى الفتاة الجذلة تكتم ضحكتها خلف كمها. وترى الطفل متألمًا يحبس دمعه ويصرخ قائلاً: «أنا لا أبكي!» وحتى الأم الثكلى ستبتسم حين تعلمك أن طفلها يحتضر. وحينما تعترف لك الخادمة القلقة بكسرها قطعة خزف ثمينة ستبتسم. كل ذلك يحير الأجنبي غاية الحيرة. بيد أنه ليس سوى دأب للتخفي. لأن إظهار المرء مشاعره ليس سوى وقاحة.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما يقيس الشعب الأمريكي درجة المودة بين الأزواج اليابانيين من خلال السلوك الظاهر لكل منهما تجاه الآخر، فإنه يخطئ خطأً فادحاً. فتعبير الرجل عن استحسانه لزوجته أو أطفاله ليس سوى سلوك مشين، والحال نفسه إن امتدح نفسه بأي شكل من الأشكال؛ أما الزوجة فغاية ما تفخر به هو تصرفها وفقًا لقواعد الآداب الصارمة، التي تعلي من فضيلتَي الكرامة والتواضع اللتين تعكسان درجة عالية من وجاهة المنزل كونها سيدته. ثمة أمر آخر قد يفسر بعض السجايا الغريبة، إذ تَحِلُّ الصفات بدلًا من الضمائر في اللغة اليابانية. فصفة مثل «خاصتي، أو لي» من الصفات التي تحمل معنى التواضع أو الصَغار، أما الصفة «خاصتك، أو لك» فهي تحمل معنى المدح. حين يقدم الزوج زوجته سيقول بتواضع: «هلا تكرمت وألقيت نظرة على زوجتي الحمقاء»، وهو يعني ببساطة: «أود أن أعرفك بزوجتي». وحين يتحدث الأب عن أولاده سيصفهم بتواضع مثل: «هذا الولد الجاهل» أو «الابنة الجاهلة» بينما يفيض قلبه فخرًا وحنانًا.

لن أنسى أبدًا المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً وامرأةً يتبادلان القبل. كنت في القطار حينما أتيت مسافرة من اليابان. شغلت سيدة شابة مقعدا قريباً مني، وهي ترتدي ملابس أنيقة للغاية وتتمتع بأخلاق مهذبة وتبدو خجولة بعض الشيء. كانت متزوجة حديثًا، وعائدة إلى منزلها من رحلتها الأولى لرؤية والديها. لقد لفتتني تصرفاتها المستقلة والمتواضعة، وأزمعت محاولة تقليدها. لاحظت في صباح أحد الأيام أنها ترتدي ملابس مميزة، وكان واضحًا لي أنها وصلت إلى نهاية رحلتها. وحين بدأ تباطؤ القطار، ظلت ترنو من النافذة بفارغ الصبر. ولم يكد القطار يتوقف حتى دخل شاب وألقى ذراعيه حول تلك الفتاة المتواضعة اللطيفة وقبلها مرات عديدة. ولم تمانع، لكنها احمرت خجلاً وقهقهت وهما يسيران معًا. أعجز عن التعبير عما اعتراني من مشاعر، لكن لا يسعني إلا أن أتذكر ما قالته لي والدتي قبل مغادرتي إلى أمريكا: «لقد سمعت، يا ابنتي، أن أولئك الأجانب معتادين على أن يلعق بعضهم البعض مثل الكلاب».

كان قلب أمي مليئا بالتعجب وليس بالانتقاد. أكرر تعليقاتها لأبين كيف تبدو العادات غير المألوفة لعيون شخص غريب. لقد علمتني سنوات إقامتي في هذا البلد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن الأسلوب الأمريكي للتعبير عما في القلب من مشاعر له جانبه الروحي، شأنه شأن الانحناء. أفهم الآن أن القبلة قد تعني العطف، أو الامتنان، أو الصداقة، أو الحب؛ وكل قبلة ليست سوى همسة مقدسة من القلب إلى القلب.

كان ماتسو يعز أمنا معزة بالغة، وفي كثير من الأحيان، حينما كان يتلقى شحنة جديدة من البضائع من اليابان، كان يختار شيئًا متميزاً بجماله أو فائدته لها. أهداها ذات مرة صندوقًا صغيرًا مطليًا بالورنيش يشبه علبة طبية قديمة كان القدماء يعلقونها في نطاقهم. ولما فتحتهُ اكتشفت أنه صندوق مقسم إلى قسمين لوضع أوراق اللعب، على الرغم من أن هيئته الخارجية تتضمن خطوطاً تشبه الفواصل الموجودة في علبة الأدوية، إلا أن الطلاء كان رديئًا ولم يصقل بإتقان، بيد أن فكرة إنشاء صندوق لحفظ شيء ممتع كانت بارعة. صندوق لحمل وسيلة للمتعة محاكاةً لشيء يحمل علاجًا للألم.

قلتُ: «من هم الأمريكيون في الأصل! لم أكن أعلم أن ذلك الطلاء كان يُصنع هنا». قلب ماتسو الصندوق الصغير، فرأيت في الأسفل ملصقًا مكتوب عليه: «صنع في اليابان». بعد بضعة أيام، ذهبت إلى متجر ماتسو وأراني رفوفًا كاملة من أشياء كلها تحمل كلمات يابانية -والتي كان من شأن منظرها أن يستفز أهل اليابان بتساؤل حائر حول ما يمكن أن تكون عليه المصنوعات الأوروبية الغريبة- وقد كتب عليها كلها «صنع في اليابان». قال ماتسو: صممها أمريكيون، بأشكال مناسبة للاستخدام في هذا البلد، ومن ثم صنِعت حسب الطلب في المصانع اليابانية وشحنت مباشرة إلى أمريكا، ولم تخرج في اليابان خارج المصنع بتاتًا. أزعجني ذلك، لكن ماتسو هز كتفيه، وقال: «طالما أن الأميركيين يرغبون بها، ويصممونها، ويطلبونها، وترضي ذائقتهم، فسيستوردها التجار».

قلت: «لكنها ليست أشياء يابانية».

فأجاب: «لا. لكن الأشياء اليابانية الحقيقية لا أحد يشتريها. يعتقد الناس أنها هشة وسريعة التلف». ثم أضاف ببطء: «الحل الوحيد هو التعليم؛ ولا بد أن يبدأ من هنا».

سهرت لوقت متأخر تلك الليلة أفكر. أن عدد الأشخاص الذين يقدرون الفن قليل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولا ريب، مقارنة بالجماهير التي تتخير المزهريات الضخمة بلونيها الأخضر والذهبي، والصناديق المصقولة الرخيصة، ومهووسون معجبون بصور لنساء مبتسمات يضعن الزهور في شعرهن. تنهدتْ متسائلة، ولكن ماذا يمكن لليابان أن تتوقع من العالم إن خفضت معاييرها الإبداعية؟ كل ما تملكه، أو ما هي عليه، يأتي من مُثلها الفنية والأدبية، الطموح، والإتقان، والمجاملة تتمثل كلها في أدبها وفنها».

أعرف عاملاً كان يتقاضى أجره بحسب العمل المنجز، وليس بالساعة، بادر ذات مرة ليعمل بملء إرادته نصف يوم زائد من أيام عمله بلا أجر، مما سيقتضيه أن يعوضه بعدها برفع الأحمال الثقيلة، فعل ذلك لأجل تعديل أحجار المشي ببضع بوصات في الحديقة وحسب. يومها بعد أن أنهى عمله ورضي بنتيجة ما أنجزه، مسح العرق عن وجهه، ثم أخرج غليونه الصغير وجلس القرفصاء، ليهدر المزيد من الوقت بلا طائل، لمجرد التحديق في الحجر المعاد ضبطه بسرور ومتعة، والرضا كان يستوطن كل خط في وجهه المسن الطيب.

وبينما انشغل بالي بأمر الرجل العجوز، تساءلت عما إذا كان الأمر يستحق أن يستبدل المرء شغفه ومتعته بما يصنع، أيّا كان المقابل. مر بفكري، البستاني والعامل والمعلم ورجل الدولة. الجميع بلا فرق، إن الحط من كبرياء المرء -أن يفلت منه دوام أغلى ما لديه بعد أن شغفه- هو انطفاء لوهج روح الإنسان أو الأمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيران

توقعت أن أتعلم الكثير عندما أتيت إلى أمريكا، أما ما لم يخطر ببالي فهو أنني سأتعلم شيئا عن اليابان. ومع ذلك فإن أسئلة جيراننا وملاحظاتهم أفضت بي نحو وجهات نظر جديدة تجاه وطني. كانت أعز صديقاتي ابنة رجل دولة متقاعد، يُعرف بالجنرال، يسكن على الجانب الآخر من الوادي الصغير شديد الانحدار الذي يفصل أرضنا عن منزله. كان جانبنا محاطًا بسياج من زهور الليلك الأرجوانية، يقطعه جسر ريفي متحرك، يقابل الطريق المؤدي إلى البئر. جلست على عتبة الجسر المظللة عصر يوم من أيام الخريف، أنتظر ساعي البريد وأنا أحمل في حضني طردًا عليه عدة طوابع. إذ اعتادت عربته الصغيرة الغريبة أن تمر في تلك الساعة تقريبًا، وهي تتراءى كعربة كاجو مرتفعة وصلدة بأبوابها الجانبية المفتوحة، حرصت حينها على الإسراع لإخراج مجموعتي من القطن الأبيض المطرز والشرائط ذات الأنماط والألوان المختلفة، وهو أثمن ما يمكنني إرساله إلى اليابان كهدايا. وفجأة سمعت صوتًا مرحًا خلفي يغني بصوت عالٍ:

«افتح فمك واغمض عينيك

وسأمنحك شيئًا يصيّرك حكيمًا».

التفت وإذا بمنظر فتان. كانت صديقتي ذات العينين البراقتين، ترتدي ثوبًا أبيض وقبعة كبيرة مزركشة، واقفة على الجسر، ممسكة في راحتي يديها المقببتين بثلاث أو أربع ورقات عنب مثبتة ببعضها بالأشواك. كدست على ذلك الطبق الريفي عناقيد عنب أرجوانية لذيذة. فصحتُ : «أوه، كم هي جميلة، هذه هي طريقة اليابانيين في تقديم الفاكهة».

قالت وهي تضع العنب على الدرج وتحرر مجموعة كبيرة من زنابق النمر طويلة الساق من تحت ذراعها: «وهذه طريقتهم في حمل الزهور. لماذا يحمل اليابانيون الزهور دائمًا رأسًا على عقب؟»

ضحكت وقلت: «لقد استغربت غاية الاستغراب، حينما رأيت الجميع يحملون

الزهور من قممها موجهةً للأعلى، في أول أيامي هنا. لما تفعلون أنتم ذلك؟»

قالت: «لماذا؟ لماذا! حتى يظهر جمالها أكثر؛ وهي تنمو هكذا، أليس كذلك؟»

بيد أني لم أفكر من قبل قط في أن أحدًا ما قد يهتم بمظهر الزهور التي يحملها. إذ نميل نحن اليابانيون إلى اعتبار الشيء غير مرئي حتى يتخذ مكانه الصحيح.

قلت: «ليس من عادة اليابانيين حمل الزهور إلا إلى المعابد أو القبور وحسب. ولا يرسلون الزهور كهدايا، ولا يضعونها على ملابسهم بتاتا. أما زهور المنازل فيشترونها من بائعي الزهور الذين يطرقون الأبواب حاملين سلالا تتدلى من دعامات قصب على أكتافهم».

تساءلت الآنسة هيلين: «لماذا؟»

«لأنها تذبل وتندثر، لذا فإن إرسالها إلى صديق مريض يكون فألًا سيئًا للغاية».

ردت الآنسة هيلين: «أوه، كم من الفرح يضيع على المرضى المساكين في مستشفيات اليابان، وهي أرض الزهور!»

بهتُّ وصمتت للحظة، ولكن قاطعني سؤالها: «حين وصلت، رأيتك تجلسين هنا بهدوء شديد، وتلك الحزمة الكبيرة في حضنك، بم كنت تفكرين؟ لقد بدوت كبائعة متجولة صغيرة وجميلة وفاتنة».

أجبتها: «لكن أفكاري أبعد ما تكون عن أفكار بائع متجول، فبينما كنت جالسةً هنا أشاهد النهاية المتدلية لسلسلة الجسر، تذكرت قصة عاشق ياباني منذ دهور بعيدة، اجتاز جسرًا متحركًا تسعة وتسعين مرة ليفوز بمحبوبته، وفي المرة المئة، هبت عاصفة ثلجية عمياء، وإذ لم يكن بوسعه رؤية أن الجسر كان مرفوعًا، فإنه سقط في الخندق ومات».

صرخت الآنسة هيلين: «يا للمأساة! وماذا فعلت السيدة المسكينة؟»

قلت: «كان الخطأ خطؤها، فقد كانت متعجرفة وطماعة، وحين واتتها فرصة لكسب قلب مسؤول كبير في البلاط، غيرت رأيها بشأن حبيبها وأصدرت تعليمات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمرافقيها بعدم إنزال الجسر في اليوم الذي يتوقع فيه أن يعود منتصراً»

«أوَ تعنين أن تلك المخلوقة القاسية خططت لإرساله لحتفه؟»

قلت: «لقد كانت متقلبة المزاج، لكنها ليست شريرة. ظننت أنه حين يجد الجسر مرفوعًا، سيعرف إجابتها ويقفل راجعًا، لكن العاصفة تسببت في هلاكه»

قالت الآنسة هيلين: «حسنًا، حتى فتياتنا هنا متقلبات ومزاجيات للغاية أحيانًا، الرب أعلم، لكن لا يمكن لأي امرأة أمريكية أن تفعل شيئًا كهذا على الإطلاق. وهي قاتلة بحكم الواقع».

لقد صدمت بنظرتها الواقعية لقصتي الرومانسية، بادرت بالإضافة بأن السيدة كوماتشي أثقلها الندم فغدت راهبة وقضت حياتها تحج من معبد إلى معبد ناذرة صلواتها للموتى. وفي النهاية فقدت بعضاً من صوابها، وعاشت حتى مماتها متسولة، متنقلة بين القرويين المتواضعين على سفوح جبل فوجي. واختتمت كلامي قائلة: «علّق الكهنة مصيرها لتصبح عبرة لكل العذارى متقلبات الأهواء».

أخذت الآنسة هيلين نفساً عميقاً، وقالت: «حسناً، لقد دفعت ثمناً باهظاً لحماقتها ولا ريب، ألا تعتقدين ذلك»؟

قلت وقد اندهشت بعض الشيء من سؤالها: «لماذا.. حسنًا، ربما. ولكننا تعلمنا أنه إذا فقدت المرأة وداعتها واحتشامها، لدرجة أن يصبح سهلًا عليها أن تنظر إلى تضرع محبها المخلص بالسخرية وعدم الاحترام، فإنها لن تكون بعدها امرأة جديرة بالاحترام كذلك».

فبادرت الآنسة هيلين بسؤالها: «لنفترض أن رجلاً هجر فتاة، كيف تكون عاقبته؟ ألن يعود رجلاً جديراً بالاحترام أيضًا؟»

حرت ولم أعرف جوابًا. لقد تمسكت على نحو غريزي بما لقنته في طفولتي، أن الرجل هو الوصي والمرشد والمرأة هي المعينة التي تحترم نفسها، والمطيعة بلا انتقاد. بعدها كثيرًا ما أجرينا أنا والآنسة هيلين حوارات صادقة. بيد أن أسئلتها وملاحظاتها، كانت تفاجئني وتزعجني أحيانًا. لطالما اعتبرت العديد من عاداتنا أمرًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مفروغًا منه، وقبلت بكل أعراف أسلافنا دون أي تفكير سوى أنها كانت وما تزال كذلك، ولما شرعتُ أسائل نفسي عن أشياء لم تبد يوما إلا بسيطة وصحيحة، لأنها تتوافق مع كل ما سنّه حكامنا الحكماء، شعرت بالحيرة والرعب.

كنت أقول لنفسي: «أخشى أنني أغدو شديدة الجسارة، أشبه بالرجال، ولكن لماذا وهبني الرب عقلًا إلا لِأُعمِلَهُ، وإلا فما المغزى منه؟» أخفيت أعمق مشاعري طوال فترة صباي وها هو الأمر يتكرر الآن. لن تتوانى والدتي الأمريكية عن تفهم الأمر، ولكنني لم أدر؛ لذا، عجلت لقمع كل إشارة ظاهرة، واكتشفت طريقي لوحدي، بحثًا عن المُثل العليا - ليس لنفسي، بل لليابان.

عندما عرفت والد الآنسة هيلين كان في التسعين من عمره بدا رجلاً رائعًا، طويل القامة، بأكتاف عريضة قليلة الانحناء، بارز الملامح بشعر رمادي داكن كثيف وحاجبين كثين، بيد أنه لطيف ويتمتع بروح الدعابة عندما يتحدث. لقد اعتبرته بمثابة موسوعة للتاريخ الأمريكي. لطالما أحببت دراسة التاريخ، في صغري وفي المدرسة، لكنني لم أتعلم سوى أقل القليل عن دور أمريكا في العالم؛ وكنت أجلس مع الجنرال وزوجته المريضة لساعات طويلة، أستمع إليه وهو يروي قصصًا عن الحياة الأمريكية المبكرة. وإذ عرف عن اهتمامي بحوادث التاريخ الشخصي، فقد أخبرني ذات مرة أن والده اشترى أراضيه الشاسعة من زعيم هندي مقابل كرسي واحد، ومسدس، وعلبة تبغ؛ وكان منزل الأم الكبير في يوم من الأيام قرية هندية مليئة بخيام من لحاء الأشجار، بيعت مقابل ستة كراسي مطبخ. لاحت لي تلك الأحداث وكأنها حدثت في عصور ما قبل التاريخ؛ لأنني لم أعرف قط أي امرئ لا يعود تاريخ وطنه إلى ماض تليد.

مثل الجنرال بلاده كدبلوماسي في أوروبا عندما كانت أمريكا دولة فتية، وشارك هو وزوجته الشابة الجميلة في الحياة الاجتماعية الأجنبية في باريس وبعد ذلك في واشنطن. جاءت أول لمحة لي عن الحياة الأمريكية في الخارج من خلال كلمات هذه السيدة الكريمة، وأدركت من خلال تجاربها، مشكلة تحدث في اليابان، وهي كم أن الأمريكيين يعجزون عن فهم اليابانيين، فتعاطفت معهم، بعدما كنت لفترة طويلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أظن أن اليابانيين وحدهم من كانوا يبذلون جهدا لفهم الأمريكيين الذين كانوا بينهم.

كانت كلمة «عريق» تحظى باحترامي منذ صغري وحتى لقائي بالجنرال. كنت مدركة أن شجرة عائلة إيناجاكي متجذرة في تاريخ عمره قرون، وأن أقدم القبور في ناجاوكا إنما كانت موجودة في مقبرة عائلتنا. وكنت على يقين من ضرورة اتباع نفس العادات التي اتبعها أسلافنا لمئات السنين وكنتِ فخورة بأنها كانت تقاليد وعادات سلالة من بين أقدم السلالات في العالم.

بيد أني ما أن تعرفت على الجنرال وسمعت حديثه عن التطور الباهر الذي شهدته أمة عمر تاريخها أحدث بكثير من تاريخ شجرة عائلتي، حتى فقدت كلمة «عريق» شيئاً من قيمتها عندي، بل إن حياة الجنرال نفسه -سنوات حياة رجل واحد وحسب- مثلت تقدمًا هائلا في التنمية الوطنية لدرجة أنني كنت أنظر إليه أحيانًا بما يشبه الرهبة، وتساءلت ما مقدار القيمة الحقيقية التي يجب أن نعلقها على العصور القديمة. قلت في بعض الأحيان لنفسي: «ألا يكون من الأمثل ألا نلتفت إلى الماضي بمثل هذا التعظيم والتمجيد؛ وعوضًا عن ذلك، نتطلع إلى مستقبل عظيم. فالأول يحملنا على الاستكانة برضا؛ والثاني يحثنا للعمل الطموح».

في إحدى الأمسيات، رافقتنا الآنسة هيلين عبر الجسر المتحرك بعد انتهاء زيارتنا أنا وماتسو للجنرال. تركنا ماتسو لينضم إلى أمي في الشرفة، وجلسنا أنا والآنسة هيلين على عتبة الجسر لنتحدث، كعادتنا.

قالت الآنسة هيلين: «حينما قص علينا والدي تلك القصة عن مولي بيتشر(38)، تساءلت هل خطرت النساء اليابانيات لحظتها ببالك».

سألتها: «لماذا؟»

فأجابت مترددة: «حسنًا، لقد سمعتك تزعمين مرات عدة أن النساء الأمريكيات يشبهن النساء اليابانيات ومولي بيتشر لا يمكن أن تكون كذلك».

فصحت: «أوه، أنت جاهلة بالتاريخ الياباني، فاليابان لا تخلو من نساء باسلات».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت الآنسة هيلين بسرعة: «نعم، بالطبع، تظهر في كل بلد، نساء باسلات لا يتوانين عن التضحية النبيلة إن استدعت الحاجة. إنما هن استثناء. في حين يصف المسافرون والكتب، المرأة اليابانية بأنها هادئة، ومعسولة الكلام، ولطيفة، ووديعة. وتلك صورة أبعد ما تكون عن النساء الأمريكيات».

قلت: «تختلف التربية، لكني موقنة من التشابه الكبير بينهن».

قالت الآنسة هيلين: «حسنًا، ربما حين نتعود الإفصاح عن مكنونات مشاعرنا بدل كتمها». وأضافت وهي تنهض ذاهبة: «لكنني لا أعتقد أن الرجال اليابانيين يوافقونك. فالليلة، عندما ذكرت الكتاب الذي كنت أقرأه عن اليابان، وكيف شعرت أن المؤلف كان على حق عندما كتب: «بسبب تواضعهن ورقتهن، تهيمن السيدات اليابانيات على العالم»، ابتسم زوجك وأجاب: «شكرًا لك»، كأنه متفق.

قلت بجدية: «يا آنسة هيلين، على الرغم من أن نساءنا يُصوّرن على أنهن لطيفات ووديعات، وعلى الرغم من أن الرجال اليابانيين لن ينفوا ذلك، إلا أنهن في الحقيقة، يخفين البراكين تحت كل تلك الوداعة واللطافة».

ضحكت الآنسة هيلين. وقالت: «لم ألتق في حياتي بأي امرأة يابانية سواك، إلا في المعرض، وليس بوسعي تخيلك كالبركان. ومع ذلك، سأسلم بثقافتك الواسعة. فقد كان لكم مولي بيتشرز بين نسائكم، ولديكم امرأة لعوب أعني تلك السيدة، ما كان اسمها؟، التي قصصت عليّ قصتها قبل بضعة أيام: كانت لعوبا تروم الانتقام! والآن تقولين إنك تملكين براكين. ها قد تبين أن نساء بلادك ذوات المظهر المحتشم يمتلكن إمكانيات مذهلة. سأتحداك في زيارتي المقبلة، أن تخبريني عن امرأة يابانية مدافعة عن حقوق المرأة اليابانية».

قلت وأنا أضحك بدوري: «ذلك أمر هين فالمرأة التي تحظى بحقوقها كاملة لا تطالب بها، لأنها تمتلكها. وإذا كنت تعنين الحق في القيام بأعمال الرجال، فبوسعي إعطائك نموذجا ببساطة. لدينا جزيرة تزاول فيها النساء أعمال الرجال، من زراعة الأرز إلى سن القوانين».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«وماذا يفعل الرجال؟»

«يطبخون، ويعتنون بالمنزل، و بالأطفال، ويغسلون الفرش».

صاحت الآنسة هيلين: «أنت تمزحين!»، وجلست مرة أخرى. لكنني كنت جادة، وأعلمتها عن هاتشيجو، وهي جزيرة صغيرة لا تبعد عن ساحل اليابان سوى مئة ميل، نساء تلك الجزيرة، طويلات ومليحات ورشيقات، يطوين شعورهن الجميلة فوق قمة رأسهن على صورة عقدة غريبة. ويرتدين أردية طويلة فضفاضة، يربطنها بحزام مشدود يربطنه من الأمام، ويعملن في حقول الأرز، ويصنعن الزيت من بذور الكامِلِيَة، ويغزلن وينسجن حريرًا أصفرَ مميزًا، يحملنه في حزم على رؤوسهن فوق الجبال، وفي الوقت نفسه يقدن ثيرانًا صغيرة، ليست أكبر من الكلاب بكثير، يحملنها بلفائف الحرير ليرسلنها إلى البر الرئيسي للبيع. وبالإضافة إلى كل هذا، فإنهن وضعن أفضل القوانين وحرصن على تنفيذها بأنسب السبل. وفي تلك الأثناء، كان الرجال يحملون أطفالهم على ظهورهم، ويقضون المهام أو يتوقفون في الشارع يثرثرون ويتمايلون على أنغام التهويدات؛ أما الصبيان الصغار فيغسلون البطاطا الحلوة، ويقطعون الخضار، ويطهون العشاء؛ أو يغمرون الملابس في الماء ويفركونها ويعصرونها على حافة النهر، مرتدين مآزر كبيرة ومثنيين أكمامهم للخلف.

نشأ هذا الوضع الفريد قبل عدة قرون، إلى وقت اضطر فيه الأزواج والأبناء للذهاب إلى جزيرة أخرى على بعد حوالي 40 ميلاً، لصيد الأسماك، حيث بات الصيد شحيحًا بالقرب من هاتشيجو. وحينها ثبت أن الحرير يعود بربح أكبر من الصيد، فعاد الرجال إلى الجزيرة، لكن السلطة كانت في أيدي نساء مقتدرات لم يفلتن قبضتهن عنها مطلقًا.

أخبرت الآنسة هيلين بكل ذلك، وختمت كلامي بالقول: «تأملي حقيقة أنه في ظل وجود هؤلاء الحاكمات، نَعِمَ الرجال والنساء على حد سواء بالصحة والسعادة؛ أما الحياة الاجتماعية فقد كانت أكثر صرامة من الناحية الأخلاقية مما هي عليه في أي مجتمع آخر يتمتع بذات مستوى الذكاء».

قالت الآنسة هيلين: «الأحرى بكِ أن تسعَي للانضمام إلى حزب (حق المساواة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التصويت)، وتقدمين تلك الحكاية على منصة المحاضرات فهي تشتمل على قائمة بالقيم الأخلاقية التي يمكن أن تلهم القرّاء وربما تحشد الدعم للقضية، حسنًا».. ثم نهضت مجددًا لتغادر قائلة: «نساؤك هؤلاء مخلوقات لا يمكن التنبؤ بأفعالهن. لقد غدوت أكثر اقتناعًا من السابق بأن النساء الأمريكيات لسن مثل اليابانيات. فنحن الأمريكيات حديثنا وانشغالنا بالشؤون العامة يحدث جلبة، لدرجة أن أي فعل نقوم به هو مرتقب وغير مفاجئ، لكن أن تنعتق إحدى فتياتكم من طبيعتها المتحفظة والخجولة فجأة وتشرع بشجاعة وحزم في مسعاها، مثل رفع الجسور المتحركة وما إليه من أفعال، فهذا يتناقض تماما مع تصوراتنا عنكم. ومن ثم فإن سماع أن الأمر لا يقتصر على ذلك، بل يتعداه إلى العمل بهدوء وكفاءة بصورة جماعية، كما هو شأن أولئك النسوة في الجزيرة، لهو أمر محير للغاية».

ثم هتفت وهي تعبر الجسر: «على الرغم من أنك أجمل سيدة صغيرة تمشي بالصندل على الإطلاق، إلا أنك لم تقنعيني، ومن المؤسف ألا تكون المرأة الأمريكية مثل المرأة اليابانية».

كنت على وشك التوجه نحو الشرفة وكلمات المجاملة السخيفة من صديقتي المغالية في التحيز لا تزال ترن في أذني، حين تناهى إلى مسمعي صوتها مرة أخرى قادمًا من الجسر في حلكة الظلام: «أوه، نسيت أمر السيدة نيوتن!! استسلمت، فمثلها مثل المرأة اليابانية!، طابت ليلتك». تبسمتُ وأنا أواصل سيري نحو الشرفة فقد تذكرت شيئًا أخبرتني به الأم عن السيدة نيوتن في وقت سابق من ذلك الصباح. والسيدة نيوتن كانت أقرب جيراننا، تسكن في الجانب المقابل لمنزل الآنسة (هيلين). وكنت أعرفها عز المعرفة. كانت امرأة لطيفة ذات صوت هادئ وسلوك متواضع تحب الطيور وابتنت لها مساكن صغيرة على أشجارها. لقد فهمت لماذا قالت الآنسة هيلين إنها تشبه النساء اليابانيات، إنما لم أعتقد إطلاقاً بأنها كذلك. كانت أفكارها معقولة وواقعية للغاية؛ لدرجة أنها تقبلت اهتمام زوجها المفرط بها دون اعتراض، إذ اعتاد أن يحمل عنها عباءتها ومظلتها. وذات مرة، رأيته داخل العربة، ينحني ليربط لها حزام حذائها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما أخبرتني به أمي ذلك الصباح هو أنه قبل أيام قليلة، كانت السيدة نيوتن تخيط بجوار النافذة، حينما سمعت زقزقة صاخبة وشاهدت ثعبانًا كبيرًا يزحف على جذع شجرة نحو صندوق الطيور الوادع في غصن منخفض. رمت ما بيدها، وهرعت إلى جارور كان زوجها يحتفظ فيه بمسدس، وأطلقت النار عبر النافذة المفتوحة، مباشرة على رأس الثعبان، وأنقذت طيورها الصغيرة.

قلت لأمي: «كيف استطاعت فعل ذلك؟ لم يخطر أبدًا ببالي أن السيدة نيوتن برقتها ورهفها ستجرؤ على لمس مسدس. هي تخاف من كل كلب في الشارع، وإن حادثتها على حين غرة، فستحمر وجنتاها خجلًا. كيف أصابته، بأية حال؟».

فردت: «بوسع السيدة نيوتن أن تفعل ما لا تتوقعينه فقد قضت جزءًا كبيرًا من سنوات زواجها الأولى في مزرعة في الغرب بمفردها. وفي ليلة من الليالي العاصفة، وفي غياب زوجها، تمنطقت بذات المسدس وسارت لستة أميال عبر الظلام يحيط بها الخطر، لمساعدة عامل جريح».

تذكرت صوت السيدة نيوتن الناعم وأسلوبها اللطيف والخجول. وقلت لنفسي: «على كلٍ، هي امرأة تشبه اليابانيات حقاً»!

---

(38). مولي بيتشر هو لقب يطلق على امرأة مجهولة الهوية قاتلت في حرب الاستقلال الأمريكية (1775 – 1783).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خبرات جديدة

مرت الشهور والأسابيع، وبمرورها ازداد اقتران الحاضر بالماضي في ذهني، دون وعي مني؛ ففي كل يوم كان يتضح إدراكي أن أمريكا تشبه اليابان شبهًا بالغًا. ونتيجة لذلك فإن بيئتي الجديدة انصهرت مع ذكرياتي القديمة بانصرام الزمن، وصرت أشعر أن حياتي كانت على وجه التقريب، تياراً مستمراً دون انقطاع من الطفولة حتى الوقت الحاضر.

وحين كانت أجراس الكنائس تدق داعية: «تذكروا أن تشكروا ربكم على النعم التي تتمتعون بها كل يوم» تناهت إلى سمعي معها دمدمة المعبد: «أقدموا لتجدوا الحماية والأمان، هنا».

وذكرني الأطفال الذين ملأوا الشوارع في الساعة الثامنة والنصف صباحًا بالضحك والصراخ حاملين حمولة ثقيلة من الكتب، بجماعات الأولاد الذين يرتدون الزي الموحد والفتيات اللاتي يرتدين التنانير ذات الثنيات بشعرهن الأسود اللامع، يخفقون بقباقيبهم الخشبية، ويحملون كتبهم الملفوفة بعناية في مربعات القماش المزخرف.

ولا تختلف أجواء عيد الحب برسماته الرقيقة لفرسان ركع وقلوب مشتعلة، متشابكة بأطواق براعم ورد وكلمات تودد متأججة، معبرة عن طيب المشاعر، عن احتفالنا بيوم النسيج(39)، حين تزين أعواد الخيزران المائسة بأكاليل من الشرائط والأوشحة الجميلة، وتعلق عليها قصائد دريّة لابتهالات تتضرع بأن تشرق الشمس، كي يتسنى للراعي وزوجته النساجة اللقاء في اليوم الموعود على ضفاف النهر السماوي الذي يدعوه الأمريكيون بدرب التبانة.

أما يوم الزينة(40)، بجنوده المحاربين، وخطبه الوطنية، والمقابر المزينة بالأعلام الصغيرة والأزهار المنثورة، فهو يماثل احتفالنا بتكريم شوكونشا(41) المكرس للقتلى من جنودنا، وفيه تسير الحشود طوال اليوم عابرة القوس الحجري الكبير، لينحني حشد بهدوء وتصفق جموعه تصفيقا خافتًا؛ ثم تبتعد لتفسح الطريق

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أمام حشود أخرى.

ومثل الرابع من يوليو، حيث ترفرف فيه الرايات، وتقرع الطبول، وتطلق الصواريخ في السماء، كانت عطلتنا التي يرفرف فيها علم اليابان تحت أغصان الكرز المتقاطعة تكريمًا لأول امبراطور يعتلي عرش اليابان قبل خمسة وعشرين قرناً. وقد كان رجلًا ضخمًا ملتحيا يرتدي ملابس فضفاضة، مربوطة عند معصميه وكاحليه بأغصان الكروم، ويضع قلادة طويلة متأرجحة من أحجار كريمة ذات شكل منجلي وهي تعد اليوم أحد كنوز العرش الثلاثة.

ويشابه عيد الهالوين، بفوانيسه البشعة وساحراته ودعاباته العديدة، مهرجان الحصاد في اليابان، يومها كان يعمد إلى اليقطين فينحت ببراعة ليكون أشكالاً جميلة تمثل حدائق ظليلة ذات زهور وفوانيس؛ وحينها تلعب ألعاب الأشباح ويكوم اليقطين عند بوابات العذارى ذوات الوجه المستدير؛ ويتم السطو على بساتين البخلاء، لتترك الغنائم من ثم للفقراء عند القبور.

ويماثل عيد الشكر، وهو يوم الإياب إلى الدار، والتحلق حول الديك الرومي والفطيرة، بسعادة وغبطة، تجمعنا الياباني السنوي، الذي تجتمع فيه البنات والأبناء المتزوجون وأطفالهم حول وليمة من الأرز الأحمر والسمك الكامل، يثرثرون بسعادة أثناء تناولهم الطعام، بينما تشرع أبواب الركن المقدس على مصراعيها وترنو أرواح الأسلاف الطيبة إلى الحاضرين.

في حين أن عيد الميلاد، حيث تزدان الشوارع بالجموع المرحة المتعجلة المحملة بالرزم، وتتلألأ أشجاره وهداياه الكثيرة، وذكراه المقدسة عن نجم مشع وأم وطفلها، يماثل احتفالنا في السبعة الأيام الأولى من العام الجديد، ولكن مع اختلاف يكمن في الفرق بين نغمات الأرجن الناعمة للحن القديم، والأهزوجة الإيقاعية البسيطة لطفل سعيد.

في الأيام الأولى لرأس السنة، علق فوق كل باب في شوارعنا المزدحمة حبل من قش الأرز الخشن، وفوق أشجار الصنوبر التي تنمو على الجانبين، وضحكات الأطفال تتردد في الأجواء مع رنين أجراس صغيرة مخفية في أحذيتهم؛ وصوت تاب-تاب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرح لكرات الريشة المتطايرة، والتحايا السعيدة بين الأصدقاء وهم يتبادلون الإنحناء، وثمة كعكات موتشي السميكة المستديرة في كل منزل؛ ولكل رضيع عيد ميلاد خاص، ولكل عذراء وشاح جديد، في حين يلعب الأولاد والبنات ببطاقات الشِّعرِ معًا. أوه، لقد كانت فترة رأس السنة الجديدة في اليابان فترة سعيدة! يتخفف الناس في مثل تلك الأوقات من تبعاتهم، فقد انسلخت الشرنقة القديمة، وتحررت الفراشة، وبدأت دورة العالم من جديد.

مثل أول حضور لي في عيد من أعياد الميلاد في أمريكا خيبة لآمالي. فقد دعتنا إحدى الصديقات لتناول العشاء في منزلها ومشاهدة شجرتها بعد عودتنا من حضور قداس عيد الميلاد. وبما أن لديها أطفالًا، فقد تصورت أن المشهد سيكون خليطًا من المرح والمتعة والجمال، مع رتوش أساسية من الوقار والهيبة.

لكن يبدو أني قد بالغت غاية المبالغة في توقعي لتأثير رمزية ذلك اليوم؛ إذ بدا لي كل ما حولي مزيجًا غريبًا من الروحانية والمادية لدرجة أنني شعرت بالضياع. فالنجمة على شجرة عيد الميلاد كانت جميلة، والإيمان بالعطاء والإيثار أمر رائع، لكن لم يذكر أيًا منهما خلا في الكنيسة؛ وتحت النجمة مباشرةً عُلق إكليل من الفشار والتوت البري، الذي نأكله. في الواقع، باستثناء متعة تقديم الهدايا وتلقيها، بدا أن معظم الأشياء في ذلك اليوم إنما دارت حول تقديم أنواع معينة من الطعام إضافة إلى العادة العديمة الذوق والغريبة المتمثلة في تعليق الجوارب في مكان بارز والتي ترتدى في أسفل جزء من الجسم، لحمل الهدايا من ألعاب ومجوهرات وحتى الحلوى والفواكه، وإنه ليشق على اليابانيين فهم تلك العادة.

ذهبت أنا وأمي لزيارة الآنسة هيلين في ذلك المساء. وهناك، في صالونها الواسع الهادئ، المفروش بسجادة ثلجية كبيرة، وقفت شجرتها - كبيرة ومعطرة برائحة الصنوبر، تتلألأ بالأضواء وتتدلى عليها زينة ملونة. كانت رائعة!، على الرغم من ضخامتها، إلا أنها ذكّرتني- كما قد تثير ناطحة سحاب أمريكية ذكرى معبد صغير- بغصن شجرة يلوح وكأنه من حكاية خيالية، وذلك في مهرجان الشرنقة، حيث زين الغصن بعدد لا يحصى من كرات متماثلة منفوخة من السكر والتي مثلت كل رمز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من رموز ذلك اليوم، وتمايلت بلطف مع النسيم. كان والدا الآنسة هيلين حاضرين أيضًا، وتحدثنا عن تقاليد العطلات في أمريكا واليابان. وفي وقت لاحق، غنت فتاة صغيرة وصبي من الجيران ترانيم عيد الميلاد، وغمر الفرح قلبي. لقد كان عيد الميلاد المثالي الذي لطالما حلمت به.

شهدنا أول تساقط للثلج في صباح اليوم التالي لعيد الميلاد ولم يكن سوى غبار خفيف من رقائق ريشية جافة، لا يشبه أبدًا غزارة وكثافة سقوط ثلج إيتشيجو الرطب والسميك، لهو أشبه بطبقات من القطن الثقيل أكثر من خيط الحرير الخفيف. كانت السماء تمطر طوال اليوم، وتتكاثف مع حلول الغسق، وعندما استيقظنا في صباح اليوم التالي، كان العالم أبيض.

يقع كوخ السائق عند المنعطف حيث يلتقي درب دارنا بالطريق العام الواسع. كان لديه ثلاثة أطفال استأذنوا أمي يومًا أن يصنعوا رجل ثلج في حديقتنا الخلفية. وافقت الأم، وعندها حدثت الأشياء المدهشة! دحرج الأطفال الثلج مكونين كرة كبيرة، ثم كوموا كرة أخرى فوقها، ووضعوا أعلاها كرة أصغر. وبعدها، شكلوا بالتربيت والتمسيد بأيديهم المقفزة بالقفازات الحمر، وجهًا بملامح خشنة، وبقطع لامعة من الفحم الصلب، أضافوا لرجلهم زوجًا من العيون اللامعة وصفًا من الأزرار في المقدمة. وبقبعة والدهم القديمة وأنبوب غليون من مكان ما أنهوا عملهم، وبات أمامهم تمثال أخرق بشع ذكرني بـ داروما ساما، وهو القديس الهندي الذي جشمه إخلاصه قدميه. لم أتوقع قط أن أرى قديسًا بوذيًا في أمريكا، لكنني تلقيت ذاك التشابه بحماس، وسليت الأطفال بسرد حكاية عن طاحن الأرز السعيد الذي ترك مدقته جانبًا ليصبح مؤسسًا لديانة جديدة، وطلب أن تحول صورته إلى ألعاب ترفيهية تستخدمها أيدي الأطفال وتهواها قلوبهم. بعدئذ، لاحظت وجود داموراسا ما في أماكن أخرى غير باحتنا البيضاء. ولدهشتي، بدا أن الشخصية الصغيرة المتقرفصة الملتحفة برداء قرمزي كانت مألوفة، رغم أن لا أحد يعرف عنه شيئًا لا خلفيته ولا اسمه. طوال حياتي كنت معتادة على رؤية داروما ساما على شكل لعبة مصممة لأصابع الأطفال الخرقاء. لكنني صدمت حين اكتشفت في إحدى الأمسيات في حفلة بطاقات أن الشخصية الحمراء الصغيرة قد حولت إلى جائزة ترضية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت لماتسو: «يا له من اختيار غريب لجائزة لعبة الورق. لماذا اختاروا داروما ساما؟»

أجاب ماتسو: «لا ليس غريبًا أبدًا، بل اختيار ممتاز. هو رجل يمثل التوازن الحقيقي، مهما تعثر في لحظة ما فإنه يعود لوضعه الصحيح، يعد بمثابة جائزة ترضية ممتازة. إنه يعني: «انهض وإن تعثرت. ألا ترين؟»»

في اليابان، نتعامل دائمًا مع داروما ساما بازدراء، لكنه نوع من الازدراء الحنون؛ وكانت مشاعري مختلطة عندما عدت إلى المنزل مع ماتسو من الحفلة. أخيرًا، عندما اقتربت من البوابة الحديدية، أخذت نفسًا عميقًا، وبإحساس سخيف بالولاء والحماية يعصر قلبي، فاجأت ماتسو بقولي: «تمنيت لو أني أنا من فزت بتلك الجائزة أو أنت!».

كان من غير المعتاد أن يبقى الثلج على الأرض لفترة أطول من بضعة أيام، لكن أمي أعلنت ضاحكة أنه من الجلي أن آلهة الطقس الأمريكية قد خططت لحمايتي من الحنين إلى الوطن. على أية حال، استمر تساقط الثلوج، وبدأنا نرى الزلاجات تمر وهي مركبات خفيفة تشبه العربات، مليئة بسيدات ضاحكات يرتدين الفراء وأوشحة مرحة ترفرف خلفهن أثناء تزلجهن. تمثل المنظر لي وكأنه مشهد مسرحي. كم يختلف المشهد عن ثلوج إيتشيجو العميقة، التي يجر فوقها رجال ينتعلون أحذية الثلوج زلاجاتٍ ثقيلة - صممت للعمل وليس للعب وهم يهتفون، أثناء جرهم لها، بنغمات ثابتة وإيقاعية «إن يارا-يا! إن يارا-يا!».

كم اشتقت لنقاء سماء إيتشيجو الصافية وسفوح جبالها الثلجية، لأنه لم تمض سوى أيام قليلة حتى نهب الهواء الملوث بالفحم بياض ثلجنا الناصع، لكن سعادة الأطفال لم يعكر صفوها شيء. فانتصب في كل حديقة داروما ساما، وغصت الشوارع بالأولاد الذين كانوا يتراشقون بكرات الثلج. شاهدت يومًا من نافذتي حربًا ثلجية شرسة، حيث هجم عدد من المغيرين الأشداء على قلة من البواسل المراوغين خلف برميلين ولوح تكدست الثلوج تحته. وما أن أعلن المحاصرون الهدنة وهرعوا نحو الزاوية للحصول على تعزيزات، حتى فتحت نافذتي وصفقت بأعلى ما أستطيع.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كان الأولاد ينعمون باللعب، ولكن حين لاحظت آثار أقدامهم الموحلة في الثلج واللون الدخاني للكرات، عادت بي الذاكرة إلى حكايات إيشي عن معارك الثلج التي دارت في فناء القصر القديم في ناجاوكا خلال سنوات أمي الأولى هناك. في تلك الأيام، تبنت منازل الدايميو حتى في مدن القلاع الصغيرة عادات السادات والسيدات في بلاط الشوجون، وإن بدرجة أقل من الفخامة والتبذير.

عندما يتأخر فصل الشتاء، تتساقط الثلوج الأولى رقيقة وجافة. وفي صباح اليوم التالي لتساقط الثلوج، حينما يكون الهواء طافحا بأشعة شمس إيتشيجو الباردة، وتتألق الأرض بياضًا، يضع الرجال سيوفهم جانبًا، ويركضون برشاقة وقد ثنوا تنانيرهم على الجانبين نحو الساحة الكبيرة المفتوحة. وسرعان ما تنضم إليهم النساء، وقد لففن حواشي أثوابهن الجميلة فوق تنانيرهن القرمزية وطوين أكمامهن الطويلة المشرقة للأعلى وثبتنها بشرائط زاهية. عاريات الرؤوس بمشابك شعر لها هسهسة. ولم ينتعل أحد منهم أحذية خشبية أو حتى صنادل، لأن ذلك من شأنه أن يفسد نقاء الثلج، فاستعاضوا عنها بالجوارب البيضاء، ثم ينضم الجميع إلى معركة كرات الثلج، ويعم الضحك والمرح الأجواء، ويمتلأ الهواء بالكرات المتطايرة والمتحطمة فترى الأيادي ذات الأكمام الزاهية ترتفع لتقذفها وترى الرؤوس بشعورها السوداء المعفرة بالثلج تراوغ لتتفاداها. وغالبًا ما كان خدمنا القدامى يخبرونني عن تلك المشاهد المرحة، وكانت بايا، أكبرهم سنًا، تهز رأسها بوقار من جانب إلى آخر وتتنهد آسفة على أن يقتصر استمتاع إيتسو-بو على تسلق تلال الثلج المتكونة في الجبل أو الشارع، والسباق مع أختها بأحذية الثلج أثناء ذهابهن من وإلى المدرسة.

لم يشارك أطفال جيراني الأمريكيين في سباقات أحذية الثلج، لكنهم استمتعوا بالتزلج على الجليد. كانت ضاحيتنا عبارة عن ضاحية جبلية، لذا فلم تخل أي حديقة في الحي من منحدر واحد متعرج على الأقل؛ لكن الثلج كان خفيفًا، ولم يكن أحد يود إلحاق الضرر بالعشب، وقد نظفت الأرصفة ومنع التزلج في الشوارع قطعا. اكتشف الأولاد الأكبر حجمًا بعض المنحدرات الطويلة واحتكروها، تاركين الأطفال الصغار ينتظرون ويراقبون، حتى يشفق عليهم أحيانًا أخ أكبر أو صديق لطيف ويسمح لهم بالركوب.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في يوم من الأيام، رأيت عددًا من الفتيات الصغيرات يحملن زلاجتين حمراوين يقفن بجوار بواباتنا الحديدية وينظرن بحزن إلى المنحدر الطويل لحديقتنا الجانبية.

قلت لأمي: «سيفسد مظهر المكان بأكمله إذا سمح لهم بعمل مسار بُنيٍّ هناك». أجابت والدتي: «ليس المظهر ما يقلقني يا إيتسو. من المحتمل ألا يتضرر العشب حتى على طول المسار الذي ستقطعه أولئك الصغيرات؛ لكن الأمر خطير للغاية. سيصطدمن لا محالة بمساري الحصى وينتهي بهن الطريق فجأة عند قمة الجدار الحجري، فالأسوار ليست عالية، وقد تقفز بهن الزلاجات إلى الممشى الخارجي، حيث ينخفض بأربعة أقدام للأسفل. لا يتوجب عليّ المخاطرة بذلك»

في عصر ذلك اليوم، بينما كنا أنا وأمي نمشي لحضور اجتماع نادي السيدات، مررنا بمنزل الدكتور ميلر. كانت حديقته صغيرة، لكنها كانت واحدة من أجمل الحدائق في منطقتنا وأحسنها. ثمة ربوة تنبثق من الطريق وتمتد في منحدر مستقيم شديد الانحدار وتنتهي بمساحة منبسطة. تجمع ما لا يقل عن اثني عشر طفلًا، من بينهم المجموعة الصغيرة اليائسة، صاحبة الزلاجتين الحمراوين اللتين رأيتهما في الصباح، وقد شُقَّ مسار طويل وسلس بالفعل هناك، حيث كانت تنزل عليه في كل لحظة مزلجة محملة بمجموعة صاخبة من الكائنات الصغيرة. وعلى طريق مرتفع بجانب المسار، كان هناك صف من الأطفال متوردي الخدود والأنوف، الذين كانوا يلهثون وهم يجرون زلاجاتهم ويتصارخون - لا لسبب سوى ابتهاجهم بأجمل الأوقات طرًا.

خصص ذلك التلُّ للصغار، يوما بعد آخر طالما استمرت الثلوج بالتساقط، فترى البعض يتزحلقُ على المنحدر السلس، وبعضهم الآخر يكافح للصعود من جديد عبر المسار الوعر. التمعت الضحكات في عيونهم، والسعادة في قلوبهم، وفي أعمق أعماقهم تنامت، بذور نكران الذات والحب والتقوى التي غرسها عمل كريم لرجل استطاع أن يرى من منظور طفل.

لاح لي كما لو أن والدي هو من قام بذلك العمل الطيب. وبعدها، لم أر دكتور ميلر قط، حتى لو مصادفة في الشارع، إلا وأمعنت النظر لأرى إن أمكنني رؤية روح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والدي خلف وجهه الجميل، الوقور، الفطن. لم أره، لكني متيقنة من وجوده، ومن أن تلكما الروحين الجميلتين ستكونان صديقتين يومًا ما على الجانب الآخر من نهر ساندزو.

أقمنا أنا وماتسو احتفالنا الصغير في شهر يناير. بدأت الرسائل من اليابان تصل بشكل متكرر لعدة أسابيع، وبين فينة وأخرى سلمنا ساعي البريد طردًا ملفوفًا بورق مزيت ومختومًا بالختم البيضاوي لمقر إقامة العم أوتاني، أو بالختم المربع الكبير لإيناجاكي.

احتوت إحدى تلك العبوات على وشاح رقيق من القطن الأبيض الناعم، ضُرجت أطرافه باللون الأحمر، بالإضافة إلى لقالق صغيرة من عجينة الأرز، أحدهما أبيض والآخر أحمر، هما رموز التهنئة.

أرسلت والدتي تلك الهدايا لـ «حفل الخمسة أشهر»، وهو احتفال خاص يحتفل به الآباء والأمهات المنتظرين مولودًا. أمي المراعية، المحبة، البعيدة! طفرت الدموع من عيني حينما شرحت كل ذلك لوالدتي الأمريكية العزيزة، التي سألتني، في سعيها اللطيف للاحتفال المقدس، عن كيفية تحضير كل شيء وفقًا للعادات اليابانية.

لا يحضر هذا الحدث مع الزوج والزوجة سوى السيدات من العائلتين، يجلس الزوج الشاب بجوار عروسه، ويمرر الوشاح من اليسار إلى اليمين من خلال أكمام ثوبه، ثم يوضع حول الزوجة بالشكل المناسب. ومن لحظتها تنادى بـ «السيدة المعتزلة»، ويغدو نظامها الغذائي، وتمارينها الرياضية، وترفيهها، وقراءتها، كلها تندرج تحت ما يُعرف باسم «التعليم للمستقبل»، وتستخدم الكرات الملونة الخفيفة من خيوط الحرير المتعددة الألوان السائدة في المتاجر الأمريكية في الأساس لمثل هذه المناسبات.

وصلتني مع الوشاح بطاقة سحرية، بطاقة تعويذة من صديقتي الطيبة إيشي. وتجشمت في سبيل الحصول عليها، رحلة حج لمدة يومين، إلى معبد كيشيبو-جين - «شيطان قلب الأم»- وكانت موقنة تمام اليقين أن قصاصة الورق برموزها الغامضة، ستحميني من كل شر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفقًا لأسطورة قديمة، عاشت في زمن بوذا أم لعدد من الأطفال، وكانت فقيرة جدًا لدرجة أنها لم تجد ما تطعم به أبناءها، أحست ببؤسها وعجزها البالغ وهي تراهم يتضورون جوعًا، ثم تكثفت معاناتها حتى حولت قلبها الأمومي إلى قلب شيطاني، فباتت تجوب البلاد كل ليلة لسرقة الأطفال الصغار، حيث إنها بطريقة غريبة تنتمي إلى تقاليد الشياطين تنقل غذاءهم منهم، إلى أطفالها. اقترن اسمها بالرعب في العالم. كان بوذا الحكيم عارفًا بأن الأمهات مهما بلغ عدد أطفالهن إلا أنهن يحببن الأصغر دومًا بحنان بالغ، فعمد إلى طفلها الصغير وأخفاه في وعائه للتسول. أصاب الأم حزن وكرب فقد كانت تسمع صوت طفلها ولا تجده.

قال بوذا ذو القلب الرحيم وهو يعيد الرضيعة إلى ذراعيها: «اسمعي، لديك ألف طفل بينما ليس لمعظم النساء سوى عشرة؛ بيد أنك تحزنين بمرارة على فقدان واحد منهم. عليك أن تنظري لقلوب الآخرين المتوجعة بعين التعاطف الذي تشعرين به تجاه نفسك». احتضنت الأم طفلها إلى صدرها شاكرة، ورأت بين يديه الصغيرتين رمانة، وعرفت أنها الفاكهة المعجزة التي بوسع نظارتها الدائمة أن تغذي العالم. أبرأ الندم والامتنان قلبها، وتعهدت بأن تصبح راعية محبة للأطفال الصغار إلى الأبد، ولهذا السبب فإن إلهة المذبح في جميع معابد كيشيبو هي امرأة ذات وجه شيطاني محاطة بالأطفال وتقف وسط ستائر وزخارف الرمان.

داهمتني تلك الذكريات بينما كنت جالسة أخيط الملابس الصغيرة الرقيقة، وفي كل قطعة منها كنت أنفث دعاءً أن يكون طفلي صبيا. أردت أن يكون لي ابن، ليس فقط لأن كل أسرة يابانية تتمنى أن يحمل اسم العائلة ابن من صلبها حتى لا تلجأ للتبني، ولكن أيضا لدافع أناني، وهو أن عائلتي وعائلة ماتسو سوف تفخران بي أكثر إن أصبحت أمًا لصبي. لم نكن أنا وماتسو نؤمن بالفكرة السائدة بأن النساء أدنى مرتبة من الرجال؛ لكن بما أن القانون والعرف كانا على حالهما، فقد ظلت مسألة العجز عن إنجاب صبي مسألة مقلقة للغاية -بل، كارثة- وحتى التهاني كانت تخرج بيسر وسهولة أكبر من الشفاه حين يكون المولود الأول صبيًا.

بيد أن إنجاب الفتيات الصغيرات كان دائما موضع ترحيب في المنازل اليابانية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بل، كان أمرًا يدعو للحزن إن رزقوا بصبيان دون صبية - وهي كارثة تأتي في المرتبة الثانية بعد مسألة عدم إنجاب الصبي.

سنت قوانين أحوال العائلة مع وضع العادات في الاعتبار، والتي استندت إلى معتقدات قديمة، صحيح أن تلك المعتقدات كانت حكيمة وصالحة في وقتها، بيد أنه ومع مرور الوقت، يتغير العالم ويؤثر كل عصر فيما بعده. في مثل هذه الأوقات، يمكن أن يكون التقدم بطيئًا وصعبًا، مما قد يكون محبطًا لأصحاب الفكر المتقدم، إلا أن عليهم بلطف وحصافة أن يتفهموا ويتأقلموا مع أولئك الذين يكافحون من أجل مواكبة التغييرات، بدلاً من انتقادهم بشراسة. إلا إذا تعارض الأمر مع مبادئهم. فنحن جميعًا نحرز تقدمًا، حتى لو كان بطيئًا، فاليابانيون هم تلاميذ الطبيعة، والطبيعة صبورة.

عندما حل الربيع، غصت النبتة المتسلقة ذات الزهور القرمزية بالبراعم الصغيرة، مشكلة بردة مزركشة كثة على أحد جوانب شرفتنا وذلك بفضل لمسة أمي السحرية على الزهور. حين ذهبت لتوديع ماتسو في صباح أحد الأيام، وبينما كنت أتساءل عن الوقت الذي ستتفتح فيه الزهور الصغيرة، أقبلت إليّ أمي.

قلث: «انظري لتلك البراعم المكتظة. في يوم قريب، ستتحول هذه التعريشة إلى جمال مترف. كم نضيّع من المتعة نحن اليابانيون بسبب الخرافات! فنحن لا نلتفت لجمال الورد بسبب أشواكه».

ابتسمت أمي وقالت: «وكم من البهجة تسبغ عليكم تلك العادات، كالأبيات التي ألقيتها بالأمس على مسمعي، إذ قلتِ:

«ينبجس من وحل طيني رأس ثلجي لزهرة لوتس مقدسة بنقاء وجمال وشموخ، تزجي إلهاما وعظة».

«هل من وسم آخر لزهرة أخرى؟»

أجبت بسرعة: «والبرقوق المتواضع الذي يزهر على أغصان تلبدت بالثلوج هو زهرة الزفاف، لأنه يمثل البسالة والتحمل».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألت الأم: «وماذا عن زهرة الكرز؟».

أجبتها متعجلة: «أوه، تلك لها معنى مهم»

«تمثل الكرزة الحثيثة الوقوع، التي لا تحيا سوى يومًا واحدًا وحسب و تذوي قبل أوانها، الروح الجسورة لفتى الساموراي، المتأهب أبدًا، بعزم الشباب الغض ليفتدي سيده»

«أحسنت!»، هتفت أمي وهي تصفق بيديها.

«يا لها من مسابقة شعرية حقيقية، وإن كانت من الدرجة الثانية، نخوضها أنا وإياك.

هل لديك المزيد من الأبيات عن الزهور؟»

«أوه، نعم، مجد الصباح»!

وسرعان ما رددت باليابانية: «زهرة تهب ابتسامات التحايا والإجلال لإلهة الشمس في بواكير الصباح الندية».

يا أمي، ما نفعله أنا وإياك الآن يذكرني باليابان! كثيرًا ما يجتمع اليابانيون مع أصدقائهم لكتابة الشعر. يتلاقون معًا خلال مهرجان مشاهدة الزهور، حينها يكتبون القصائد ويعلقونها على الأغصان المزهرة، أو في حفلة تأمل القمر، حيث يجلسون في ضوء القمر ويؤلفون القصائد. ثمة بقعة واحدة في سهل من حقول الأرز ينسكب ضوء القمر عليها، ومن ناحية الجبل يمكن رؤية الانعكاس الفضي في كل حقل على حده. يا للجمال! ثم يعود الجميع إلى بيوتهم تحفهم الطمأنينة والسكينة، وتلتمع في أذهانهم أفكار جديدة».

«آه»! صرخت أمي وهي تتوجه متعجلة نحو المدخل، وأضافت وهي تلتفت إلى الخلف وترنو إليّ من فوق كتفها: «ذكرتني أشعارك بشيء!» ودلفت إلى المنزل واختفت.

فقد تذكّرت بعضًا من بذور مجد الصباح، أرسلتها إليها إحدى صديقاتها حين علمت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن ثمة سيدة يابانية تعيش معها.

قالت أمي وهي مقبلة وبيدها مجرفة: «أوشكت أن أنساها. جُمعت هذه البذور من المعترشة التي زرعتها صديقتي من بذور أُحضِرت من اليابان. وقالت لي إن أزهارها بديعة، حيث يبلغ عرضها أربع وخمس بوصات. أين نغرسها؟ علينا اختيار مكان مناسب لهذه البذور الصغيرة التي تعود لأصل ياباني».

هتفت: «أنا أعرف المكان بالتحديد»! وغمرتني السعادة، وقدتُ أمي إلى بئرنا القديمة، وأخبرتها بأسطورة الفتاة التي ذهبت إلى البئر لإحضار الماء، فوجدت ساق النبتة المعترشة يلتف حول مقبض الدلو، وآثرت أن تعود بلا ماء على أن تضر بالنبتة.

فرحت أمي، وزرعت البذور حول حافة البئر بينما كنت أدندن بهدوء، مراراً وتكراراً، القصيدة القديمة:

«معلاق مجد الصباح قيّد قلبي،

فليكن،

سأطلب الماء من جاري».

راقبنا المتسلقة ببالغ التوق وهي تمد أذرعها القوية وتتسلق بثبات نحو الأعلى. ورددت أمي مرارًا وتكرارًا: «لن يتَنَاءَى تفتح الأزهار عن قدوم الطفل». لاحظت ذات صباح من نافذتي، أمي وكلارا يقفان بجوار البئر. كانتا تبادلان الحديث بحماس وهن ينظرن إلى المعترشة. اندفعت إلى الطابق السفلي وعبرت العشب. ثمة أزهار متفتحة، لكنها باهتة، وضعيفة بحجم صغير، ولا تشبه بتاتًا الأزهار الملكية التي يعتز بها اليابانيون. ثم تذكرت ما قرأته، عن أن الزهور اليابانية لا تحب الأراضي الأخرى فتذبل سريعًا خلال عام وتتلاشى تدريجيًا. انقبض قلبي بخوف وهمي، وتذكرت رغبتي الأنانية ودعواتي بأن أرزق بصبي، وأقسمت أن أكون راضية ممتنة أيًا رزقت صبيا أو صبية، المهم ألا يتأثر طفلي بشيء مما تأثرت به تلك الزهور.

ثم، رزقت بطفلة جميلة وقوية وبخير حال. منسجمة في طفولتها الجميلة مع عادات أمريكا واليابان. نسيت رغبتي بإنجاب ابن، وأدرك ماتسو أن البنات كن دومًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المفضلات لديه على الأولاد بعد أن رأى ابنته الصغيرة لأول مرة. وسواء أكان لتعويذة كيشيبو-جين الورقية فائدة أم لا، فإن تذكار محبتها ذلك، نزل بردًا وسلامًا على قلبي خلال تلك الأسابيع الأولى حينما استبد بي الشوق إلى حبها وحكمتها. بيد أنها لم تكن لتتواءم أبدًا مع حياتنا الأمريكية، فربما كان خيرا ألا تكون هنا.

فلم يكن لتستفيد طفلتي النشيطة بتاتا من الأساليب اللطيفة التي تتبعها مربية يابانية وهي تقضي الساعات تغني لطفلة مستلقية على ظهرها مطمورة في قطع الكريب والديباج ويأرجحُ بها في أرجوحة حريرية. فسرعان ما تعلمت الصراخ بسعادة والإمساك برأس والدها بطريقة نزقة وهو يقذفها عالياً بين ذراعيه القويتين.

قررنا أن نمنح طفلتنا كل الحرية المتوازنة الممنوحة لطفلة أمريكية، إنما رغبنا أن تحمل اسما يابانيًا. إن معنى اسم ماتسو هو (الصنوبر) وهو رمز القوة، بينما معنى اسمي (حقل الأرز) وهو رمز المنفعة. «لذلك،» قال ماتسو: «إن طفلتنا مزيج من القوة والمنفعة فعلاً، ولكن لابد لها من الجمال أيضا» لذا، دعينا نمنحها اسم أمنا الأمريكية الطيبة، والذي يعني (زهرة) «والذي إذا أضفنا إليه التتمة بالطريقة التقليدية».. صحت بسرور: «فإن معناه سيصبح (حقول أجنبية) أو (أرض غريبة)». هتف ماتسو وهو يصفق بيديه: هنانو «زهرة في أرض غريبة! غاية الكمال». وافقت أمي عليه، وأقر.

---

(39). تاناباتا: مهرجان ياباني. يحتفل بلقاء الآلهة أوريهيمي وهيكوبوشي، ووفقًا للأسطورة فإن درب التبانة تفصل بين هؤلاء العشاق، ولا يُسمح لهم باللقاء إلا مرة واحدة في العام. وهو اليوم السابع من الشهر القمري السابع في التقويم القمري الشمسي.

(40). "يوم الديكور" احتفل بهذه المناسبة لأول مرة بعد ثلاث سنوات من نهاية الحرب الأهلية. في 5 مايو 1868، حيث كانت تزين خلاله مقابر الحرب الأهلية بأزهار الربيع. أصبح هذا الحدث تقليدًا سنويًا، وتغير اسمه بمرور الزمن، حيث خاضت الولايات المتحدة الأمريكية حروبًا أخرى. حاليا اسمه الرسمي "يوم الذكرى" وهو يوم عطلة في الولايات المتحدة الأمريكية.

(41). Shōkonsha (東京招魂社)، "ضريح استدعاء الأرواح، اختير بأمر من الإمبراطور

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ميجي. أنشئ الضريح عام 1869، في أعقاب حرب بوشين، لتكريم أرواح الذين ماتوا وهم يقاتلون من أجل الإمبراطور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زهرة في أرض غريبة

كانت حياتي كلها تتمحور حول تلك المخلوقة البشرية الصغيرة، ولأشهر بعد ولادتها. أينما حللت، وأيّا من جاء لزيارتي، سيتحول الحديث ليغدو عنها بلا شك؛ ولم تحمل خطاباتي إلى والدتي سوى أخبارها مثل أن تفيد بأن الطفلة قد اكتسبت بضع أوقيات، أو أنها بدأت بالمناغاة، أو ظهرت لها غمازات حين تبتسم. لا بد أن والدتي أدركت وجود بذرة حب أناني مفرط في انغماسي ذاك. لأني تلقيت منها ذات يوم مجموعة من الكتب البوذية المصورة التي كانت في مكتبة والدي ذات يوم. كم بدت مألوفة وعزيزة تلك الكتب! لم تشتمل على أي قصص -صور وحسب- ولكن حين قلبت صفحاتها، تناهى لسمعي صوت جدتي الجليلة الناعم وتمثلت لي الحكايات القديمة جلية أمام عيني، مثلما كانت في أيام طفولتي.

كانت أمي قد علّمت بعض الصفحات بنقطة من اللون القرمزي على إحداها. ثمة مشهد من (جبل الرماح)، وهي حكاية عن تلميذ بوذا الأثير الذي أصابه الأسى والحزن المرير على فقدان أمه الغالية لدرجة أن أشفق عليه معلمه، فمارس قواه المقدسة لأخذ تلميذه الحزين إلى مكان يتمكن فيه من رؤية أمه. ذعر الابن حينما رأى والدته الغالية تتسلق بشق الأنفس طريقاً جبليًا مرصوفاً برماح حادة.

صاح قائلا: «يا معلمي الطيب، لقد جئت بي إلى جحيم التلال السبع. لمَ توجد أمي هنا؟ وهي ليست ممن ارتكب أي شر طوال حياتها». أجاب بوذا بحزن: «ولكن حدث أن راودتها نية شريرة، فحينما كنتَ طفلًا، كان كل اهتمامها منصبا عليك وحدك، وفي أحد الأيام رأت فأر الحقل الصغير يلعب بسعادة، فتاقت نفسها بشدة للحصول على ذيله الرمادي الناعم لتجعله حبلًا لربط معطفك، فاعتبرت رغبتها تلك جريمة قتل». أغلقت الكتاب وتبسمت، لأنني فهمت فوراً التحذير الصامت الذي وجهته لي والدتي الرقيقة القلقة؛ بيد أن قلبي امتلأ امتنانًا ومحبةً، وحينها وليت وجهي شطر اليابان وتعهدت بأن حبي لطفلتي سيجعلني أكثر مراعاة وتعاطفاً مع بقية العالم.

من أوائل الذين تواصلوا مع طفلتي، مينتي خادمة الغسيل السوداء المخلصة. لقد كانت تغسل ملابس أمي لسنوات، وحينما أتيت، قبلت القيام بغسل ملابسي الغريبة

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتحمل عبء إضافي بطبيعتها السمحة. لم تذكر بتاتًا شيئًا عن اختلاف ملابسي أو غرابتها، إنما لمحتها عدة مرات وهي تتفحصها بعناية، وخاصة جواربي البيضاء. وكانت مصنوعة من القطن أو الحرير، ولها إصبع مفصول لإصبع القدم الكبير، مثل إبهام القفاز. صعدت مرة إلى الطابق العلوي لرؤية الطفلة، ووجدت المربية تضع الطفلة الصغيرة في حجرها، فجلست مينتي إلى جانبها تناغي الطفلة وتلاعبها، بطريقة أمومية.

بعد برهة رفعت بصرها للأعلى وقالت: «هل يمكنني رؤية قدميها؟»

ردت المربية: «بالتأكيد»، ورفعت فستان الطفلة الطويل وأخذت القدمين الورديتين الصغيرتين في يدها.

«يا إلهي!» صاحت مينتي بنبرة تنم عن اندهاش شديد، «إذاً هي مثلنا!»

ردت الممرضة المصدومة: «بالطبع، ماذا ظننتِ؟»

قالت مينتي بنبرة من الرهبة: «لماذا!، لأن الجوارب مزدوجة، فظننت أنهم أناس بأقدام ذات إصبعين». عندما أخبرت المربية زوجي، صاح بمرح قائلًا: «حسنًا، لقد ردت مينتي الضربات عن العرق الأوروبي بأكمله وسجلت تعادلًا مع اليابان».

وقعت المربية في حيرة، لكنني فهمت ما عناه تمامًا. قبل سنين حين كنت طفلة، شاع اعتقاد عام بين الناس في اليابان بأن للأوروبيين أقدام كحوافر الخيل لأنهم ينتعلون الاحذية الجلدية بدلاً من الصنادل. ولذلك كان يطلق عليهم حينها «ذوو إصبع القدم الواحدة».

لم نكن أنا وأمي على معرفة بالنظريات الحديثة لرعاية الأطفال، لذا كنت أغني لهنانو وأهدهدها لتنام. لا أعرف أهوَ تأثير ما يحيطني من جو أجنبي، أم لا، لكني رأيت عفويًا أن أغني «اصمت، يا عزيزي!» بدلًا من التهويدة اليابانية العتيقة التي اعتادت إيشي على ترنيمها وهي تتمايل بي ذهابًا وإيابًا وأنا متكئة على ظهرها براحة، والتي تقول كلماتها:

«نم يا حبيبي نم

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نم يا حبيبي نم

أين ذهبت مربيتك

سافرت للبعيد

عبر التلال والوديان

إلى بيت الجدة

ستأتي قريبًا وتجلب لك

سمكًا وأرزًا أحمرَ، سمكًا وأرزًا أحمرَ».

ومع ذلك، فليست البيئة الأجنبية هي السبب وراء ترنم هنانو بالدعاء بمجرد تدثرها في سريرها الصغير ليلاً، بمجرد ما بدأت أول نطقها. بل إلى أهزوجة غنائية قصيرة، حفظتها عن ظهر قلب دون أن يخطر ببالي أن يومًا ما بعد أعوام، سألقنها طفلتي الصغيرة، بلسان أجنبي. وجدتها في مجلد صغير من الورق المقوى الملفوف بشرائط حريرية تلقيته في يوم لا ينسى بعنوان (حكايات البحار الغربية). كانت كلماتها تقول:

«ناوِ على النوم الآن

أبتهل إليك ربي أن تحفظ نفسي

إن مت قبل أن أصبح

أرجوك أن تنجّي روحي»

لدينا قول مأثور في اليابان: «إن أصابع الطفل وحدها قادرة على ربط عقدة تجمع شمل عائلتين معًا». وبما أن الزواج الياباني لا يعتبر مسألة فردية، فتلك مقولة لا تنطبق عليّ وَماتسو أبدًا، ولكن في يوم من الأيام تغير الحال بتأثير قوة غامضة أدخلت عنصرًا كان له تأثير كبير على حياتي وحياة زوجي. لطالما كان ماتسو رجلًا شديد الاهتمام بعمله، لدرجة أني موقنة أنه قبل قدوم طفلتنا، لم يكن في حياته

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ما يمكن أن يحتل المرتبة الأولى قبل عمله. ورغم أننا صديقان حميمان، إلا أننا قلما تحادثنا بحرية مع بعضنا البعض بعيدًا عن الآخرين. في الواقع، لم يكن لدينا موضوع مشترك للحديث؛ إذ كان منشغلًا بخططه الخاصة، وكنت منشغلة ببيتي وأصدقائي الجدد. بيد أن ما إن رزقنا بابنتنا، حتى تغيرت الأحوال، فأصبح بيننا أمر مشترك يدور حديثنا حوله، ولأول مرة بدأت أشعر بأنني على دراية بزوجي.

لكن ظل ينتابني إحساس، في أعماق نفسي، بأن الطفلة طفلتي. لم أقتف أي شبه لها بماتسو. ولم أرغب بذلك. لا أقصد أنني معترضة على تشبيهها به، لكنني لم أفكر أبدًا بأنها تنتسب واقعيًا إلى أي إنسان سواي وعائلتي.

وفي يوم من الأيام، توقفت لبضع لحظات عند محل زوجي حين كنت في المدينة. وجدته مشغولاً فانتظرته في مكتبه الذي كان في حالة عارمة من الفوضى، وفي فتحة صغيرة على يمين المكتب، لاح لي صندوق صغير مطلي فاستغربت وجوده في مكتب مزدحم بالفوضى، كان متقن الصنع ببراعة ويحمل شعارًا نادرًا ما يُرى خارج المتاحف. رفعت غطاءه، فبرزت لعيني المذهولتين، ثلاثة أشياء غريبة: دوامة من الورق الأخضر، وبعض قطع صغيرة من الطين التي شكلتها أصابع ابنتنا بأشكال بسيطة، وبالون فارغ من الهواء. وقفت بلا حراك، ودقات قلبي تتسارع؛ ثم استدرت مبتعدة، شعرت كما لو أنني ألقيت نظرة متطفلة على قلب شخص لا أعرفه. في تلك اللحظة، أدركت أن هناك من له الحق بطفلتي، شخص لا يقل رقة وقوة عني، ومع لسعة ندم خفق قلبي بإحساس جديد وغريب تلقاء زوجي.

كانت زيارات صديقتنا العزيزة السيدة ويلسون المنتظمة وعطفها الدائم، من بين الأمور بالغة التأثير على حياة هنانو. ونادرًا ما كانت تزورنا دون أن تحضر الزهور لِأمي، وفي عيد الفصح واحتفالات الذكرى السنوية العائلية تمتلئ صالات استقبالنا بأزهار حديقتها السخية.

ذات يوم، حين كانت هنانو تبلغ من العمر عامًا تقريبًا، لاحظت عربة مألوفة قادمة عبر الممر بينما كانت تجلس في حضن أمي بجوار النافذة. ترجلت السيدة ويلسون من العربة. نظرت إلى الأعلى فشاهدت الطفلة فابتسمت ولوحت بيدها ذات القفاز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأبيض. كان ضوء الشمس ينعكس على هيئتها الوقورة، في ثوبها الناعم ذي اللون الأرجواني الفاتح، ممسكة بالزهر في يدها.

هتفت الطفلة وهي تصفق بيديها فرحة: «أوه، أوه! سيدة الزهرة الجميلة! سيدة الزهرة الجميلة!»

وهكذا انطبع لقب لها في قلب الطفلة، وبتنا نناديها «سيدة الزهرة» منذ ذلك الحين. أتمنى أن تتفتح لها من جديد أزهارًا مضاعفة لما نثرته يداها السخيتان في كل مكان، وأن يتحقق لها ما تحمله من رمز للسعادة والسلام حين تصل إلى الحدائق الجميلة عبر النهر.

لم تكد هنانو تميز والدها كشخص مستقل، حتى صار يشتري لها الألعاب، وما أن بدأت تتهادى محاولة المشي والثرثرة، حتى أصبح يقضي معظم وقت فراغه في اللعب معها، أو يحملها في أرجاء المنزل أو يصحبها لزيارة الجيران.

في عصر يوم أحد، بعد أن خرج ماتسو مصطحبًا معه هنانو لمكان ما، قالت امي: «ما عرفت أبًا أكثر تفانيًا من ماتسو. هل كل الرجال اليابانيين محبون ومؤثرون أبناءهم هكذا؟» أجبتها بتأن: «لماذا، أنا لا أعرف! أليس الرجال الأمريكيون مولعين بأطفالهم؟» أجابت بسرعة: «أوه، نعم، لكن ماتسو يعود إلى المنزل مبكرًا كل مساء ليلعب مع هنانو، وفي ذلك اليوم أغلق محله طوال فترة ما بعد الظهر ليأخذها إلى حديقة الحيوان وحسب».

عادت بي ذاكرتي إلى والدي -والسيد تودا- وآباء آخرين؛ وأدركت أنّ الرجال اليابانيين بصورة مختلفة فجأة، إنهم لا يملكون خيارًا!. فكرت بمرارة: بوسع الرجل الأمريكي أن يبدي مشاعره دون خجل، أما الرجل الياباني فتقيده التقاليد، تغطي وجهه بقناع، وتلجمُ لسانه، وتشلُ أفعاله. مهما اختلج قلب الزوج بالمشاعر حيال زوجته، فليس بوسعه إظهار عواطفه، وحتى احترامه وتقديره لها لا يمكنه إبداؤه علنًا؛ وهي نفسها لا ترغب بذلك، فهو أمر يخالف الأعراف. لن يكون الرجل المحترم على سجيته إلا عندما يكون مع طفل صغير، سواء كان طفله أو طفلا آخر، عندها يكون لديه المنفذ الوحيد الذي تسمح به آداب السلوك، وحتى في تلك الحالة عليه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يحرص على اتباع القواعد. يصبح الأب رفيق ابنه الصغير. يتصارع معه، ويتسابق معه، ويمثل معه مشاهد جرأة الساموراي، بيد أنه يحب ابنته الصغيرة حبًا بالغًا، وينبسط بمداعباتها الرقيقة بشوق مأساوي متعمق في قلبه الحزين.

كان ماتسو أكثر انفتاحًا معي، عما لو كنا نعيش في اليابان، مع احترامنا للتقاليد. وقد استغرق الأمر وقتًا طويلاً قبل أن أدرك مدى اهتمامه العميق بأسرته.

وقد عمدتُ إلى تأخير موعد نوم هنانو، بعد ذلك التعليق من أمي وما أثاره من أفكار، فكانت تستمتع بقضاء وقت أطول مع والدها بعد الساعة التي من المفترض أن ينام فيها الأطفال.

في إحدى الليالي المقمرة نزلت ووجدتهما يتسابقان حول الفناء، يطاردان بعضهما البعض، ويتفاديان العوائق، بينما كانت أمي تراقب من الشرفة، وهي تضحك وتصفق. كانا يلعبان (الظل يمسك الظل). قلت: «اعتدت أن ألعب هذه اللعبة في الليالي المقمرة لما كنت طفلة صغيرة».

فسألت هنانو باندهاش بالغ: «لماذا، هل يوجد قمر في اليابان؟». أجابها والدها: «نعم، هو نفسه، سترينه فوقك في السماء أينما ذهبت لبقية حياتك». فقالت هنانو بارتياح: «إذن سيسير معي، وحين أذهب إلى اليابان، سيتمكن الرب من رؤية جدتي اليابانية».

تبادلنا أنا وماتسو نظرات الحيرة. لقد ربطت هنانو دائمًا القمر بوجه الرب، لكنني عرفت بعد فترة طويلة أن هنانو سمعت امرأة كانت تزور أمي عصر ذلك اليوم تعرب عن أسفها لأن «اليابان الجميلة بلد لا تؤمن بالرب». ورغم أن اقتراح هنانو الغريب فاجأني قليلاً، إلا أنه أسعدها، فامتنعت عن تصحيحه. تنهدت وقلت: «عما قريب سوف تتعلم في هذا البلد الواقعي».

تذكرت متحسرة كيف أنه في اليابان، ونظرًا لأن معظم الناس تميل للتمسك بالأوهام الطفولية حتى سن متقدمة، فإن الصغار يجنبون الكثير من آلام الحيرة؛ ومن ثم فإن الأوهام الخيالية أقل عرضة للتلاشي فجأة. تزخر الحياة اليومية هناك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالفكر الصوفي. تؤمن جموع الناس بالقوى غير المرئية التي تقيم في الأرض والجو إيمانًا بالغًا؛ ولا يمر يوم دون أن يرى الجميع تقريبا إشارات إلى وجود أرواح طيبة. نحن ننظر إلى معظم الآلهة على أنهم رفاق ودودون، ونقوم بالأعمال الأساسية التي ندين لهم بها بإحسان وطمأنينة شاعرين بالامتنان والشكر. وباستثناء الإهانة بسبب الافتقار إلى الأدب، وهو الأمر الذي يثقل كاهل الشخص الياباني، لا يوجد خوف كبير من العقاب على الإهمال.

بينما تذكرنا الأركان المقدسة في بيوتنا بأن أسلافنا يحرسوننا، ونظهر تقديرنا لهم بالبخور والصلاة. فإن إلهة النار هي مدبرة المطبخ المعوانة، التي نشكرها بالنهايات المهفهفة لنسيج القماش المعلق بجانب الموقد في المطبخ. أما إله الأرز الصالح فيطلب منا أن نبقي النار تحت غلاية الأرز نظيفة. وإلهة الماء، التي تبارك الجداول والأنهار، تفرض علينا أن تكون الآبار نظيفة. وآلهة الحظ السبعة -الصناعة والثروة والحكمة والقوة والجمال والسعادة والعمر الطويل- فنراها في كل مكان ونستقبلها دائما بحفاوة. أما الصناعة والثروة فهما الاثنتان اللتان لهما مكانة خاصة لدى التجار، فتجدهما جالستين على رف بارز في كل متجر، حيث ينكسان وجهيهما نحو الأسفل، مما يمنح التاجر تأكيدا مريحا بأن الأصحاب قريبون. كذلك الآلهة البشعة الموجودة بجوار أبواب المعبد ليست بشعة بالنسبة لنا، إنما هي كلاب حراسة شرسة تحمينا من الخطر، ومعنا أيضًا آلهة الهواء -أي آلهة الرعد والرياح والمطر- وهي حارسة لخيرنا. وفوق كل هذه الآلهة الأقل شأنًا، تأتي آلهة الشمس وهي سلف سلالتنا الإمبراطورية، تحيط الأرض بأكملها بنور عطوف ونافع.

هذه الآلهة المتنوعة هي خليط متشابك من الشنتو والبوذية؛ حيث تختلط الديانتان معًا بشكل ضبابي في الدين الشعبي. بوجه عام، ذلك دين لا يقوم على الخوف، وعلى الرغم من أن وصف حال الأرواح الشريرة في الجحيم، كما ورد في الكتابات البوذية القديمة، مرعب حقًا؛ بيد أن للتائب فرصة، إذ يعطى يومان في كل عام للصعود إلى المستوى الأعلى. وهكذا، فحتى طريق التناسخ الحزين والمحير، الذي يهيم المذنبون فيه على وجوههم، يؤدي إلى أمل أخير لليابانيين بعد فترة طويلة من العجز واليأس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبدو أن البوذية، في رحلتها التي استغرقت قرونًا من الهند إلى اليابان، قد أضاعت العديد من عناصر الترويع الأصلية؛ وإلا فهي خفتت وتغيرت جزاء صحبة آلهتنا الشنتوية المرحة والنافعة. لا نخشى أيًا من هذه الأشياء، لأنه حتى الموت في الشنتوية، ليس سوى سحابة عائمة نمر عبرها أثناء سيرنا على ضوء شمس الحياة الأبدية للطبيعة.

لقد كان لقوانيننا التراثية التي وضعها الإنسان قوة أكبر في صياغة حياة الناس وطبعت أثرًا دائمًا على نفوسهم أكثر مما تركته آلهتنا. إن ديننا المعقد يثير اهتمام المثقف، ويعلمه الاستسلام الخالص؛ لكنه لا يرشد الجاهل بحكمة عميقة، ولا يمنح التائهين والحزينين الراحة المباشرة من الأمل والسعادة التي يجدها المؤمن بكاهن الناصرة الفلاح.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

تشيو

حالما أدركت هنانو أن القمر رفيق بوسعها الاعتماد عليه أينما ارتحلت، باتت مهتمة بالغ الاهتمام بحكايات القمر. أرجأت إخبارها عن أسطورة الأرنب الأبيض الذي كتب عليه أن يظل للأبد يطحن عجينة الأرز في وعاء خشبي كبير، وهو ما يرى الأطفال اليابانيون ظله في كل بدر؛ نويت أن أدعها تتناءى تدريجياً عن تصورها المثالي للأسطورة الأمريكية. لكنني أخبرتها عن حفلاتنا التي نتأمل فيها القمر، حين تتجمع العائلات أو مجموعات الأصحاب في مكان مفتوح جميل ويقرضون مدائحهم أوراق كرمة القمر الرائعة، التي تخلق وهج الخريف المعروف بالصيف الهندي في أمريكا(42).

جلست معها ذات مساء على عتبة الردهة الخلفية، نشاهد القمر من خلال الشرفة، كان يبحر في سماء صافية مستديرًا ومشرقًا، وأخبرتها كيف أنه في اليابان، في تلك الليلة بالذات، ستوضع في كل مسكن، من قصر الإمبراطور إلى أكواخ رعاياه المتواضعين، الفواكه والخضروات ذات الشكل المستدير على طاولة صغيرة مرتبة بدقة، تكريما لإلهة القمر، على الشرفة أو في الحديقة حيثما يصل إشراق البدر التمام.

قالت هنانو: «يا للروعة! أتمنى لو حضرت لأرى»، وسمعنا حفيف صحيفة خلفنا.

ثم ناداني ماتسو: «إيتسو، ثمة قصة تروى للصغار حول هذا الاحتفال. أتذكر ذات مرة عندما كنا أنا وأختي الكبرى نشاكس أختنا الصغيرة، التي كانت طفلة خجولة، روت لنا عمتي قصة عن ربة القمر الجميلة، والمطر والريح المشاكسين، اللذين حاولا إفساد فرحتها، في ليلة اكتمال البدر من شهر أغسطس».

صرخت هنانو وهي تصفق بيديها وتجري نحو والدها: «أوه، احكها لي!»

قال ماتسو وهو يلتقط صحيفته مرة أخرى: «أنا لا علم لي بالحكايات، لكن والدتك ستعرفها، قصي عليها تلك الأقصوصة يا إيتسو»، عندها رجعت هنانو إليّ عند عتبة الباب، فحاولت أن أتذكر القصة نصف المنسية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ربة القمر وأعداؤها)

كانت الربة قمر الجميلة تجلس أمام منضدة زينتها في أمسية رائقة من شهر أغسطس. ثم همست لنفسها وهي تستخدم البودرة لتنعيم لونها المشرق:

«لا ينبغي لي أن أخذل أبناء الأرض الليلة، فهم يتطلعون إلى ليلة (الخامس عشر السنية) من كل ليالي العام، ففي هذه الليلة يبلغ جمالي أوج تألقه».

أدارت المرآة قليلًا، ورتبت ياقتها الرقيقة بعناية.

«أي حياة بائسة هذه، ألَّا أفعل شيئًا سوى الابتسام والتظاهر بالبهجة!. بيد أنها الطريقة الوحيدة التي بوسعي أن أهب بها الفرح للعالم»

«سأتألق الليلة بأقصى قدر ممكن من التألق والسطوع». وأضافت: «على كل حال، يسعدني القيام بهذا الواجب، وهذه الليلة على وجه الخصوص!».

ولا عجب أنها ابتسمت بسرور، فقد تزين العالم كله على شرفها. وفي كل مدينة وبلدة، وكل قرية صغيرة، وكل كوخ منعزل على سفح جبل، وكل سرير متواضع لصياد سمك على الساحل، كانت هناك طاولة صغيرة مليئة بالخيرات على سقيفته أو موضوعة أمامه، حيثما تستطيع عينا الربة قمر رؤيته. فطائر الأرز، والكستناء، والبطاطس، والكاكي، والبازلاء، والخوخ، وفي وسطها مزهريتان مستديرتان من الساكي، مثبتتان ومستقيمتان بأوراق مطوية بيضاء. اختير كل شيء بعناية ليكون أقرب ما يكون إلى الشكل الدائري قدر الإمكان، «فالاستدارة» هي رمز الكمال، وفي هذه الليلة لا يستحق أن يُعرض سوى الأحسن من كل شيء على «ربة السماء» الكاملة النقية.

نظرت ربة المطر، وهي جارة ربة القمر، بحسد عبر نوافذها الضبابية إلى مساكن الأرض التي زُينت تكريما لجارتها، ولقطت التوسلات السابحة إلى الأعالي من شفاه الفتيات الصغيرات: «أيها الخفي العظيم! اجعل قلبي نقيا مثل أشعة القمر وحياتي جميلة كجمال ربة القمر المشرقة والمستديرة في السماوات!»

أثناء تنصتها هزت ربة المطر تنانيرها بضراوة لدرجة أن جميع المظلات التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت تزينها انفتحت فجأة، فعمدت إلى شبكها بسرعة لتمنع الماء الذي امتلأت به من الانسكاب. إلا أن وابلًا من القطرات تساقط على الأرض، متلألئًا في ضوء القمر، فتعجب سكان الأرض حين رفعوا بصرهم للأعلى.

قالت ربة المطر وقد استبد بها الغضب:

«لم أر شيئا كهذا منذ أغسطس الماضي . يبدو أنه لم تبق مزهرية على وجه الأرض إلا وملئت بـ (زهور قمر أغسطس)، ولا شرفة ألا وزينت وفرشت بأرقى الوسائد، حتى يتهيأ لكبار السن الأجلاء الجلوس حيث يتجلى لبصرهم بهاء ربة القمر. هذا ليس عدلا!»

واهتزت ثانية، فهطلت قطرات مطر متلألئة بضوء القمر مرة أخرى. حينها أبحر إله الريح مقبلًا، قابضًا بقوة بين يديه جوانب جراب الرياح. لاحظت ربة المطر العبوس الشديد على محياه، فبادرته:

«مساء الخير، كاسي نو كامي سان! تسرني رؤيتك مارًا من هذا الطريق. تبدو وكأنك تنشد فعلاً مفاجئاً».

توقف إله الريح وجلس على سحابة بينما أحكم قبضته على طرفي الجراب وأعرب عن أسفه قائلًا: «لعمري إن كائنات الأرض هذه لهي أغرب المخلوقات! تعيش ربة القمر في عالم السماء، حيثما نعيش نحن أيضاً؛ بيد أنهم لا يفكرون إلا بها! لقد منحوها لقبًا مشرفًا، ولا يمر شهر من السنة إلا ويُحيون حفلًا في اليوم الخامس عشر على شرفها. حتى في اليوم الثالث، حين تخرج من قبوها! يتهللون برؤية وجهها وهي تختلس النظر من وراء الحائط بسعادة غامرة حتى أن المرء ليظن أنهم يتوقعوا أن لن يروها أبداً».

هتفت ربة المطر بحماس: «نعم نعم! وخاصة ليلة منتصف أغسطس هذه! ينظرون بتوجس وقلق دائم خوفًا من ظهوري أو ظهورك، رغم أن أيًا منا لم يُدع أو يرحب به».

صاح إله الريح بازدراء عظيم: «إن في ليلة أغسطس هذه، نعم، في هذه الليلة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بالذات أود أن أظهر لمخلوقات الأرض عجائب قدرتي!»

قالت ربة المطر الماكرة: «سيكون من المتع الرائعة أن تذهب حثيثا وتفسد كل ما عرضوه تكريمًا لربة القمر».

ضحك إله الريح صائحاً: «هوا هوا هوا!»، وغمرته السعادة البالغة وهو يخفف قبضته على أحد طرفي الجراب، فاجتاحت رياح عاصفة السماء بغتة، مما سبب الذعر لسكان الأرض.

كانت ربة القمر تتبسم للعالم بسكينة واطمئنان، ولم يشغل بالها سوى حسن النوايا، حين انسل إله الريح وربة المطر بصمت من خلف الجبال وسافرا مسافة بعيدة حتى يتمكنا من المباغتة من جانب البحر. لكن السيدة قمر لمحتهم، وتوارت خلف الستار حزينة خائبة الأمل، بينما كان خصماها المنتصران يجتاحان العالم.

أثار كلًا من الريح والمطر الحانقين إعصارا هائلًا، واندفع إله الريح دافعًا جرابه الكبير بأطرافه المندلقة، بينما حامت ربة المطر بالقرب منه صارخة: «هطل! - هطل!» فانهمرت سيول المياه من مئات المظلات المفتوحة في تنانيرها!

بيد أنهما سرعان ما باءا بخيبة الأمل! فحتى لو أن سكان الأرض ذوي العيون الحادة لم يلاحظوا السحب الضبابية التي دارت فوق الجبال، فإن الضحكة المكتومة لإله الريح، حين أرخى قبضته عن طرف جرابه لثانية، كانت كافية للتحذير، فأخذ كل منزل أهبة استعداده للعاصفة. اختفت الطاولات الصغيرة الجميلة، وقوبلت الرياح والأمطار العاتية بأبواب خشبية مقفلة، فعوت وصاحت واندفعت ودارت حتى استنفد كل منهما قوته، فقفلا يجران ذيول الخيبة عبر الوادي إلى ديارهما، إله الرياح مزمجراً وربة المطر باكية.

وحين ساد الهدوء من جديد، رفعت ربة القمر الحزينة رأسها. تحسرت قائلة: «لقد أفسدوا عليّ سعادتي! ها قد زالت الزينة من بيوت الأرض الجميلة، وغط الناس في سبات عميق». إنما فجأة تهلل وجهها بالبشر وقالت بثقة: «لكنني سأؤدي واجبي! حتى وإن لم يراقبني أحد، سأشرق بأجمل ابتسامة»، ودفعت الستارة جانباً ونظرت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى العالم. فنالت عذوبتها الرقيقة المعطاءة ما تستحق من إثابة، فقد شرعت كل أبواب دور الأرض على مصراعيها، واجتمع الناس على الشرفات يراقبون وجهها حين أشرق. هتفت الأصوات وتعالت أغاني الترحيب صاعدة للأعلى:

« أوه، أنظروا إلى ربة القمر الجميلة، وهي تبتسم لنا! مجددًا بعد العاصفة، إنها تزداد بهاءً وجمالًا، ويزداد العالم سعادةً وبهجةً!»

قالت هنانو: «يا لها من قصة ذات مغزى رائع، أشعر بشيء من الشفقة تجاه إله الريح وربة المطر، ولكني أحببت ربة القمر. هيا نعد منضدة مثل تلك التي يعدها اليابانيون. ستزودنا كلارا بالأغراض، وضوء القمر يلوح جميلًا على حافة شرفتنا».

رد ماتسو وهو يتجه نحو الدرج: «لدي شيء مناسب تمامًا، انتظروا لحظة».

أحضر صندوقًا خشبيًا صغيرًا ووضعه على الطاولة. كان عبارة عن فونوجراف به تسجيلات على اسطوانات مشمعة ومثبت عليه قرن صغير، حيث بوسعنا أن نسجل أصواتنا عليها. كان ماتسو مزمعًا على الذهاب إلى اليابان في غضون أيام قليلة في رحلة عمل، وقد اختار الفونوجراف كهدية لوالدتي، حتى يحمل إليها صوت حفيدتها الصغيرة. استدعينا أمي، وقضينا جميعًا وقتًا رائعًا نشاهد ماتسو وهو يقوم بإعداد الآلة. ثم أخذ مكانه أمامها، وهنانو في حجره، وأجروا بروفة. لم يتبادر إلى ذهننا أبدًا، أن جدتها المشتاقة لن تفهم كلمة من كلامها إلا بعد أن بدأت بالثرثرة بلغتها الإنجليزية اللطيفة والطفولية.

وهذا جعلنا ندرك مدى اصطباغ صغيرتنا بكل شيء أمريكي داخل عشنا الياباني الصغير، كما لفت انتباهنا إلى أحد التحديات الكبرى التي تواجهها اليابان.

في تلك الليلة قال ماتسو: «ربما لو أن ابنتنا كانت صبيًا سيتوجب علينا أن نأخذ الموضوع بجدية. لا أريد أن أربي ابني في مجتمع، يحرمه، وإن امتلك الموهبة، من شغل أعلى المناصب التي تمنحها بلاد لسكانها».

قلت: «حتى بالنسبة لابنتنا، لا يوجد مكان دائم في هذا البلد. ولا في اليابان إن اقتصر تعليمنا لها على التعليم الأمريكي».

وكانت نتيجة ذاك النقاش، أن عاد ماتسو من اليابان، حاملًا معه مجموعة كاملة من مناهج المدارس، من رياض الأطفال إلى المدرسة الثانوية؛ وأحضر أيضا، الخطوات الخمس للمقالات الخاصة بمهرجان الدمى، ذلك المهرجان تليد جدًا وذو طابع تعليمي. سيحظى أي أمرؤ يتقنه جيدًا بمعرفة كاملة تقريبًا عن الفولكلور الياباني والتاريخ والعادات والمثل العليا. لدى كل فتاة يابانية مجموعة من دمى المهرجان، وعندما تتزوج، تأخذها معها إلى منزلها الجديد. كانت المجموعة التي أحضرها ماتسو إلى هنانو هي مجموعتي، وهي ذات المجموعة التي اعترض أخي على إحضارها معي إلى أمريكا.

عندما وصلت مجموعة الدمى، خرجنا جميعًا إلى الكوخ الخارجي، وبعد أن فتح ويليام الصندوق الخشبي الخشن، قام هو وماتسو برفع صناديق الخشب البيضاء الملساء ذات الأحجام المختلفة بعناية، والتي كان بداخل كل منها دمية. وقعت عيني على حزمة مسطحة طويلة ملفوفة بالكريب الأرجواني تحمل شعار إيناجاكي».

صحت في دهشة: «لماذا أرسلت أمي كومورو كاميبينا؟»، ورفعتُ الحزمة باحترام إلى جبهتي.

قالت أمي: «اعتقدت أن جميع دمى كومورو قد اختفت عدا الدميتين اللتين كنت تلعبين بهما».

أضاف ماتسو: «إن الكاميبينا مختلفة».

قلت بتؤدة: «نعم، الكاميبينا مختلفة، فهي تنتمي إلى العائلة، ولا يجوز بيعها أو التنازل عنها أو التصرف فيها بأي شكل من الأشكال. لا بد أن والدتي احتفظت بها لسنوات، وقد أرسلتها لي الآن».

تأثرت، حين أجبرتُ على إدراك الحقيقة الجلية وهي أنني كنت آخر «القيمين على وجاهة العائلة» في منزل إيناجاكي. إن مجموعة مهرجان الدمى تكون ملكًا للابنة، وليس لسيد المنزل أيّ تحكم في شؤون العائلة.

لن يكتمل أي مشهد فاخر لمهرجان الدمى بدون هاتين الدميتين الطويلتين ذاتا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشكل الغريب. كانتا تصنعان من الورق في الماضي. وفي وقت لاحق، أصبحتا أحيانًا تصنعان من الديباج أو الكريب للعائلات الثرية، ولكن مهما اختلفت مادة صنعها، فقد ظلت تسمى الدمى الورقية، وبقيت تطوى دومًا بنفس الطريقة غير المتقنة كما هو حال تصميماتها البدائية الأصلية. يمكن وضع هذه الدمى في أي مكان مع بقية مجموعة الدمى، باستثناء الرف العلوي المخصص لدمى الإمبراطور والإمبراطورة، وهو المكان الذي يتوجب أن توضع فيه جميع الدمى الأخرى حين تعدُّ للاحتفال.

تعود جذور مهرجان الدمى إلى الأيام الأولى للشنتوية. كان المذنبُ في ذلك الزمن يسعى للتطهر بالاستحمام في نهر. ومع مرور الأزمان وبما تحدثه السلطة أو الثروة من أفكار، أصبح معتادا لدى المترفين والكسالى أن يرسلوا من ينوب عنهم. وفي وقت لاحق، صار مقبولا الاستعاضة بأي جماد على شكل إنسان، وعمدوا إلى صنع صورتين من أي شيء عزيز لديهم وفي متناول يدهم كجزء من ذاتهم. فصنعت من بكرات خشبية صغيرة، أو من الشرانق، أو من حزم من الخيوط بأشكال بسيطة، وهي من أكثر الأشياء قيمة في قرى النسيج؛ واستخدمت حتى الخضار في المناطق الزراعية، حيث تقطع بأشكال بسيطة. وفي العادة تكونان قطعتين، يرمزان للذكر والأنثى، لتمثيل الأسرة بأكملها - رجال ونساء. تدريجيًا، أصبحت الدمى التي تصنع بصور بسيطة من الورق شائعة -وهي سلعة نادرة في ذلك الوقت- وأطلق عليها اسم «كاميبينا» والتي تعني «الدمى الورقية».

مع مرور السنوات حدد يوم معين للتكفير عن كل الخطايا، فكان «يوم الثعبان في أول أيام الربيع»، واختير في وقت تغير جلد التنين لأنه يرمز إلى الانسلاخ من ظلمة خطيئة الشتاء نحو نور وأمل الربيع. وما زال الاحتفال يقام في هذا التاريخ. وفي أيام سلطة الشوجون عندما كان من ضمن تقاليد التقديس للإمبراطور أن لا يُرى، كان هذا المهرجان يمثل زيارة سنوية منه كحاكم غير مرئي ليظهر حرصه الشخصي على رعيته؛ وهكذا عُزِّزَ الولاء للإمبراطور المحبوب الذي تعز رؤيته. وفي العصور الإقطاعية، حين أصبح من واجب الزوجة، في طبقة الساموراي، القيام بواجبات زوجها الغائب، وصار لا بد من ترك الأطفال تحت رعاية مربيات من ذوات الرتب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العالية، غدا المهرجان هو الفرصة الوحيدة للفتيات للتدرب على الواجبات المنزلية التي كانت جزءًا أساسيًا من تعليم كل فتاة يابانية، في تلك العائلات.

حين وصلت مجموعة دمى هنانو، بدأنا في الاحتفال بيوم الثعبان الأول سنويًا، مثلما يفعل اليابانيون. وحينها تقدم التقويم القمري ليكون الاحتفال في الثالث من مارس. قمنا بوضع خمس درجات في الردهة كمنصة، وغطيناها بقطعة قماش حمراء، وعليها رتبنا صورة مصغرة للإمبراطور والإمبراطورة مع سيدات البلاط والموسيقيين والحاضرين المختلفين. وصحب ذلك أثاث الدمى والأدوات المنزلية. وفي آخر الدرجات ثمة طاولات صغيرة احتوت على طعام أعدته هنانو بنفسها، بمساعدة مني، وقدمته لرفاقها في اللعب الذين كانوا موضع ترحيب دائمًا للانضمام إليها. وهكذا أصبح أصدقاء هنانو الأمريكيون الصغار يتطلعون إلى «اليوم الثالث من الشهر الثالث» تمامًا كما كانت الفتيات اليابانيات الصغيرات يتطلعن إليه منذ ما يقرب من ألف عام.

كان أحد هذه الاحتفالات يومًا حافلًا على غير العادة لهنانو وهي التي لم تكن تتجاوز الخمس سنوات يومها. ذلك أنه بالإضافة إلى واجباتها كمضيفة، توجب عليها كذلك الرد على العديد من مكالمات التهنئة الهاتفية، التي أجابت عليها بنفسها فغمرها إحساس بالغ بالأهمية. وقد أحضرت سوزان صديقة هنانو المقربة أختها، وهي فتاة صغيرة ذات ملامح رقيقة وشعر ذهبي، بدأت تتعلم المشي للتو، فأضافت البهجة إلى حفل سوزان. عاملت هنانو الجميع بلطف، لكنها أولت اهتمامًا خاصًا بالطفلة الصغيرة. نظرت إليّ بجدية في ذلك المساء بينما كانت تستعد لصلاة المساء المعتادة وسألتني:

«ماما، هل لي أن أقول للرب ما يحلو لي؟»

أجبت: «نعم يا عزيزتي»، لكنني اندهشت لما رأيتها تنحني وتشبك يديها الصغيرتين وتقول: «مرحبًا يا إلهي»!

مددت يدي لأنبهها، ثم تذكرت أنني علمتها أن تقرن إجلالها لوالدها بإجلالها للرب، وقد كانت ترسل تحيتها لوالدها بتلك الطريقة حينما يكون بعيدًا عن ناظريها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فسحبت يدي بهدوء. ثم أذهلني الصوت الصغير المهيب مرة أخرى، هامسًا: «أتوسل إليك أن ترزقني أختًا صغيرة مثل أخت سوزان».

عقد الموقف لساني، وواصلت هي دعاءها «أستلقي الآن للنوم»(43) حتى أنهته.

وبينما كنت أدثرها في سريرها، سألتها: «لماذا طلبت من الرب أختًا صغيرة، يا هنانو؟»

ردت: «لأن سوزان حصلت على أختها بالدعاء، لقد كررت الدعاء لفترة طويلة، وها قد حصلت عليها».

أصابني شيء من القلق، لأنني علمت أن دعاءها سيستجاب. انقضى مهرجان مارس وولى منذ فترة طويلة، وكاد شهر مايو أن ينقضي، حينما بشرها أبوها بقدوم أختها الصغيرة ذات صباح. واصطحبها لتلقي نظرة على الطفلة. حدجت هنانو أختها تشيو الصغيرة ذات الشعر الأسود والوجه الوردي بعينيها المندهشتين المفتوحتين على اتساعهما. ولم تنبس ببنت شفة، بل اتجهت مباشرة إلى الجدة أسفل الدرج.

وقالت لأمي بنظرة منكسرة: «ما صليت لأجل هذه. أردت طفلة ذات شعر أصفر مثل أخت سوزان الصغيرة».

تصادف وجود كلارا في الغرفة، وقالت ببساطة خادمة أمريكية: «شعر أصفر على طفلة يابانية سيكون منظرها مضحكًا!» وقهقهت ضاحكة.

صرخت هنانو بسخط: «ليست طفلة يابانية. لم أطلب طفلة يابانيةً! لا أبغي طفلة يابانية!»

أخذتها أمي في حجرها وأخبرتها عن مدى اعتزازنا جميعًا بوجود فتاتين يابانيتين صغيرتين في بيتنا، فأدخلت كلماتها قدرًا من العزاء لقلب الصغيرة المحبط.

لاحظت أمي بعد ظهر ذلك اليوم، أن هنانو كانت تجلس لفترة طويلة بهدوء شديد أمام المرآة الكبيرة التي وضعت بين نافذتي الردهة الأماميتين.

سألتها أمي: «إلى ما تنظرين يا عزيزتي؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأجابت هنانو بتؤدة: «أعتقد أنني فتاة يابانية أيضًا. أنا مختلفة عن سوزان و أليس».

طرفت بعينيها مرات عدة بسرعة خاطفة قبل أن تقول: «لكن ماما جميلة»! وبدا أنها استبدلت ولعها بالعيون الزرق والشعر الأصفر بإخلاصها للحب، وأضافت: «سأكون مثلها»! وهبطت من الكرسي.

ليس باستطاعة أي إنسان سبر أغوار طفل، بيد أن هنانو أبدت اهتمامًا بكل ما يختص باليابان منذ ذلك اليوم. كان ماتسو مغرمًا بالاستماع إلى ثرثرتها واللعب معها إلا أنها اعتمدت عليّ في قراءة القصص؛ وهكذا، ليلة بعد ليلة، كنت أحكي عن أبطالنا وأردد لها الأغاني والقصص الشعبية التي كانت جزءًا من حياتي كطفلة. وخير ما في الأمر أنها كانت تحب أن تسمعني أتحدث عن الأطفال الجميلين ذوي الشعر الأسود -كنت أركز على إنهم جميلون - أولئك الذين يصنعون سلاسل من أزهار الكرز أو يتلهون بالألعاب في حديقة بها فانوس حجري وجسر مقوس يمتد فوق بركة تقع وسطها بين الزهور والأشجار الصغيرة. كاد رسم تلك الصور بالكلمات، وغناء تهويدة يابانية حزينة للطفلة في وقت الأصيل، ودندنة هنانو بهدوء بقرب أختها أن يشعرني بالحنين إلى الوطن.

هل كان حبها المفاجئ للأرض التي لم ترها قط وراثة أم أنها كانت نذيرًا؟ ففي نهاية المطاف، يبدو أن الأطفال أحيانًا يتمتعون ببصيرة غريبة.

ففي يوم من الأيام، انصرمت حياتي القديمة المريحة، ولم يتبق لي منها سوى ذكريات -منها ما يسليني ومنها مبعث ندم- أحكم إغلاقها بموجة من الشكوك القلقة والمخيفة لأنه لم يعد لي زوج، ولا أب لأطفالي. فقد فاضت نفس ماتسو بهدوء ودون ألم عابرة إلى العالم المخفي وراء الستر بعد أن ودعنا بتحية سعادة أخيرة تعلوه ابتسامة متعبة.

والآن، لم يبق لي ولأطفالي سوى الوداع ورحلة قاصية أقطعها وحيدة. لم يعد البلد الذي رحب بي ترحيبًا حارًا بحاجة لما يمكنني أن أقدمه، هذا البلد الذي سامح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن طيب خاطر جهلي وأخطائي، البلد الذي ولد فيه أطفالي والذي تلقيت فيه لطفًا أكبر مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات، هذا البلد الرائع والمكتظ والعملي لم يعد يرغب في شيء مني، لقد كان بمثابة وطن واسع ودافئ ومحب لي ولعائلتي، ولكنه مكان لا يصلح سوى لحاضر. ليس واعداً بمصالح لأطفالي وهم يكبرون ولا حاجة له بشيخوختي القادمة، وهل للحياة من معنى إن ظل المرء لا يفتأ يتعلم، ومن ثم لا يفيده ما يتعلمه؟

كانت السنوات الماضية حلماً ابتعدت فيه من أرض الأفكار الشعرية الضبابية عبر متاهة محيرة من الأفعال العملية، وجمعت رؤى ثاقبة على طول الطريق بينما كنت أعوم بيسر، والآن ها أنا أعود إلى أرض الضباب والشعر. متسائلة عما هو آت؟

---

(42). الصيف الهندي هو فترة طقس دافئة وجافة تحدث على غير العادة أحيانًا في فترة الخريف أو بعد بدايات الشتاء في المناطق المعتدلة في نصف الكرة الشمالي.

(43). «أستلقي الآن للنوم» دعاء مسيحي يردده الأطفال قبل النوم من القرن 18.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في اليابان مرة أخرى

بمرور المشهد المضني للأمواج العاصفة المتلاطمة وعودتي مرة أخرى إلى اليابان، وجدت نفسي محاطة ببيئة غريبة تكاد تضاهي الغرابة التي أحسستها حينما هبطت على أرض أمريكا. توجهت على الفور إلى منزل عائلة ماتسو في غرب اليابان، حيث كانت معايير اللباس والآداب والقيم وحتى مصطلحات اللغة مختلفة كلية عن ناجاوكا أو طوكيو. لقد حافظت المقاطعات والطبقات اليابانية على تقاليدها لفترة طويلة حتى أن الرائي لن يشاهد سوى مؤشرات متفرقة بسيطة تشير إلى استسلامها التدريجي لدوافع المساواة في الحياة المعاصرة.

استقبلنا عند وصولنا حشد من أقارب ماتسو، ارتدى جميعهم ملابس رسمية، لأننا أحضرنا الرماد المقدس معنا؛ ومنذ ذلك الحين وحتى انتهاء مراسم تأبين الميت التي استمرت تسعة وأربعين يومًا، عوملت معاملة مبعوث وضيف مكرم. وبعدها لم يكن لي أي شأن، فليس لأرملة الابن أي اعتبار في اليابان، وذلك كان وضعي، كان ماتسو الابن المتبنى للعم أوتاني إلى أن قرر المكوث في أمريكا. راودني قلق بالغ على بناتي الصغيرات؛ لأن الأطفال في اليابان ينتمون إلى الأسرة، ولا ينتمون للوالدين. وبعد وفاة والدها، باتت هنانو، مسؤولة عائلتنا الصغيرة، لكننا لم نكن سوى فرع من العائلة الرئيسية التي كان العم أوتاني على رأسها. لذلك كان أمرًا مفروغا منه ومتوقعًا لدى جميع أقاربي وأقارب ماتسو، أن نقيم أنا وأطفالي تحت رعاية العم أوتاني. كان سيوسع لي مكانًا في بيته الجميل، وسيمدني بالملابس الجميلة، إنما سأغدو بلا سلطة، حتى على بناتي. ربما لن يكون الوضع بالغ السوء في ظروف أخرى؛ وما كان العم أوتاني سيبخل على البنات بأي ميزة يراها مناسبة لهن. لكن رغم طيبته -وهو مَن لم أعرف رجلًا أطيب منه- فإنني لم أستطع أن أتجاوز حقيقة انتمائه إلى طبقة التجار التقليدية التي لا ترى ضرورة لتعليم الفتيات فيما عدا مدرسة القواعد.

كان الوضع صعبا، لأنني من موقعي المتواضع لم أستطع أن أنبس ببنت شفة. ولكن كان لدي أمل واحد: هنانو، ورغم أنها رأس عائلتنا الشرعي، وهي قاصرة؛ إلا أن كوني والدتها والوصية في الوقت الراهن عليها، فهناك بعض السلطة بيدي؛ مكنتني،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من طلب التشاور مع العم أوتاني. شرحت له أن ماتسو أعرب في وصيته عن رغبته في أن تتلقى بناته التعليم الليبرالي الذي خطط لهن في أمريكا، حيث إنه لم يكن لديه ابن. ثم طالبث بجرأة، باسم هنانو ومتقوية بوصية والدها، أن يُسمح لي بالحق في متابعه أمر دراستهن. اندهش العم أوتاني من هذا الطلب الذي لم يسمع به من قبل، لكن بما أن الوضع كان استثنائياً، فقد استدعي على إثره مجلس العائلة حالًا. جرت العادة أنه وحين يتعلق الأمر بأرملة، أن تمثلها أسرتها؛ ولأن أخي لم يتمكن من الحضور، أرسلت أمي مكانه عمي التقدمي من طوكيو، والذي كانت له مشاركات ملحوظة في اجتماعات مجلس عائلتي قبل زواجي. وكان حضور هنانو ضروريًا، بصفتها المسؤول الرسمي لعائلتها، لكن بالطبع كان عليّ أن أتحدث باسمها.

وبما أنها لم تتعلم بعد كيفية ارتداء الزي الياباني بالطريقة الصحيحة، فقد ألبستها أجمل فستان أبيض لديها، مزين بالدانتيل والكشكشة، رتبت وتأكدت أن يكون واسعًا فضفاضًا؛ إذ من الصعب الجلوس براحة على الطريقة اليابانية بالملابس الأمريكية، كما أوضحت لهنانو أن تحريك الجزء السفلي من الجسم أثناء التجمع العائلي -ولو بشكل طفيف- يعتبر ازدراءً لا يغتفر، وأخبرتها كيف أن جدها، عندما كان أصغر منها بسنتين، كان يترأس تجمعات سياسية مهمة قبل الإصلاح. وقلت: أخبرتني جدتي الجليلة أنه كان يجلس دائماً مستقيماً ومحترماً، ويجب أن تكوني مثله.

ثم دخلنا إلى الاجتماع. لم يسعني إلا أن أشعر بالقلق إزاء رد الفعل على طلبي الذي يراه معظم أعضاء المجلس جريئاً، لم أكن سوى أرملة تعتمد على ابنتها، وامرأة ذات مفاهيم متقدمة وغريبة في نظرهم، وكانت السلطة بيدهم، إذا عارضتني ثلاثة أصوات من المجلس ورفضت أفكاري، لن يرفض طلبي فحسب، بل سأفصل عن صغيراتي كليًا. سيتحتم عليهم توفير الرعاية الكريمة لي، سواء أخترتُ أن أبقى في منزلي الحالي أو انتقل إلى مكان آخر، لكن البنات سيبقين مع أهل والدهن؛ ولا يمكن لأي قانون في السماء أو الأرض مهما بلغت قوته في اليابان، منع أهل والدهن من أخذهن. لم تكن لعائلة ماتسو أي نية لاتخاذ أي إجراء ظالم؛ ولم يراودني شك بخلاف ذلك، لكن السلطة كانت في يدهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سادت الجلسة المطولة أفكار راقية ومناقشات جادة، إنما لا تبعث على الحماس. خفضت رأسي واستمعت، ومن حين لآخر ألقيت نظرة على ابنتي الصغيرة ذات العينين القلقتين ونادراً ما فعلت ذلك طوال الجلسة، كانت تجلس في وسط صف من كبار السن الموقرين، باستقامة، غير قادرة على الحركة طوال ساعتين. ثم اهتزت إحدى ساقيها البائستين المتشنجتين، وانكشف فستانها الرقيق فأمسكت بركبتها بسرعة، وشهقت: «أوه»! لم يلتفت واحد بوجهه نحوها، بيد أني مع وخز من الألم في حلقي، انحنيت على الأرض قائلة: «أدعو بتواضع أن يعفو المجلس الموقر عن وقاحة طفلتي التي نشأت في الخارج، وأن يسمح لي ولها بمغادرة الاجتماع الموقر. تمتم العم أوتاني بالإذن دون أن يتحرك. وحين انحنيت للمرة الأخيرة عند الباب الانزلاقي لأعيده إلى مكانه، نقر العم من طوكيو بغليونه على حافة علبة التبغ بجانبه بتؤدة وقال بمهل: «من حسن الحظ أن إيتسو سان تبدو امرأة جديرة بالثقة. لأن تبني طفلتين أمريكيتين صاخبتين في عائلاتنا بأقدامهما غير المدربة، وأثوابهما المنتفخة، وتعليقاتهما المفاجأة، سيكون بلا ريب وضعًا معضلًا لكلا الطرفين». لم أتيقن أبدًا هل كان الباعث على ذاك التعليق، المودة أم القسوة، ولم يكن بوسعي أن أتوقع هل سيحدث تأثيرًا أم لا؛ ولكن بعد ساعة أخرى من المداولات الهادئة والحذرة والجادة والعادلة تمامًا، قرر المجلس أن يمنح موافقته المؤقتة للتجربة، بناءً على وصية ماتسو، بالإضافة إلى حقيقة أن أرملته تبدو شخصيةً جديرةً بالثقة.

في تلك الليلة، قرّبت وسائدي من منامات صغيراتي وتسللت تحت البطانيات، يغشاني شعور الراحة والامتنان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منزلنا في طوكيو

مضت بضعة أسابيع، واستتب بنا الحال أنا وصغيراتي في منزل جميل في طوكيو، وبرفقتنا الطباخة الماهرة سودزو. كان اتفاقي مع عائلة ماتسو ينصّ على أن يقوم أحد أفراد عائلة ماتسو بالاطمئنان علينا بشكل دوري للتأكد من أن كل شيء على ما يرام، وأن استشير المجلس إن طرأ أمرٌ ما، مهما كان بسيطاً، لقد كنت مكبلة بالقيود غير أني راضية.

سبّب وضعي غير الاعتيادي الكثير من القلق بين أفراد عائلتي في ناجاوكا، لذا قررت أمي الانتقال للعيش معنا إذ لا يليق بأرملة شابة أن تعيش بمفردها، ولأن ترتيبات انتقالها تستغرق وقتًا، أرسلت تاكي، التي أصرت بعد ترملها، على العودة إلى والدتي ووطنت نفسها بثبات فردًا من أفراد البيت لأن والدها وأجدادها خدموا عائلتنا. وتولت على الفور العديد من الأدوار بمجرد أن وصلت إلى طوكيو، كمرافقة، ومدبرة منزل، وطباخة، وخياطة ملابس، والقائد العام لنا جميعًا، حتى سودزو.

اكتشفت تاكي أفضل متجر لبيع الأسماك في الحي في أقل من ثلاثة أيام، وفي أقل من أسبوع، كان أي بائع متجول لديه خضار أو فاكهة رديئة يولي هاربًا بعيدًا عن باب بيتنا وسلاله تتأرجح على أكتافه فارًا ببضاعته عن أعين تاكي الثاقبة التي كانت تلمح أول علامات الذبول على بضاعته.

اعتمدت بصورة تامة على حكم تاكي منذ البداية. إلا أني تجشمت بعض العناء معها، إذ لم أكن في نظرها سوى إيتسو-بو ساما الصغيرة، حتى إن كانت تناديني بشفتيها «أوكو ساما» أي السيدة المحترمة - وهو لقب يعكس المكانة والشرف. وحتى بعد أن اكتسبت بعض المعرفة وأصبحت أمًا لطفلتين نشيطتين مدهشتين، ترتديان ملابس غريبة وتتحدثان بصوت عالٍ.

اختلفنا منذ الليلة الأولى. فبعد أن أغلقت تاكي البوابات الخارجية وثبتت الأبواب الأمامية وأبواب المطبخ، سمعتها وهي تحرك الألواح الخشبية الانزلاقية الممتدة على طول الحافة الخارجية للشرفة المطلة على الحديقة. كانت تلك الأبواب للحماية من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطقس العاصف ولإبقائنا آمنين في الليل، ولكن إغلاقها سيحجب عنا الهواء كليا.

ناديت عليها: «لا تغلقي الأمادو بإحكام يا تاكي، اتركي بعض المسافة بينها ليتخللها الهواء فالغرف تحتاج قليلًا من الهواء النقي» صاحت تاكي، وصوتها تعلوه الدهشة: «ما! ما! لقد رحلتي عن دارك قبل أن تحيطي علمًا بشيء!، الهواء الذي لم تشرق عليه آلهة الشمس العظيمة مسموم يا أوكو ساما».

اعترضت قائلة: «لكن يا تاكي، هذا المنزل يشبه المنازل الأجنبية، مزود بغاز للسخانات، لذا فنحن بحاجة إلى الهواء الخارجي، حتى أثناء الليل». تمتمت بعد تردد، وقد غشاها الحزن، قائلة: «ربما يكون هواء البيت الأجنبي المحترم مختلفًا، لكن الأمر يبدو غريبًا، غريبًا. ثم إن الوضع ليس آمنًا في مدينة كبيرة يقطنها اللصوص».

هزت رأسها وخرجت وهي تتمتم متذمرة. ذهبت إلى السرير، متيقنة من أنني قد رسخت سلطتي. بيد أني استيقظت على صوت جلجلة خفيفة متقطعة والتي انتهت حالا بطرقعة مكتومة لصوت المزلاج الخشبي لغلق اللوح الأخير للباب الانزلاقي. تنازعني الغضب والضحك معاً وقلت متفكرة: «حسنًا، لطالما أصرت تاكي على رأيها، حتى مع سجان سجن ناجاوكا. فماذا عساي أتوقع منها!» اضطرت تاكي، حالها حال العديد من نساء الطبقة العاملة اليابانية، إلى تحمل جزء كبير من عبء العيش على أكتافها. فقد كان زوجها رجلاً طيبًا وعاملًا قويًا، لكنه كان يسرف بشرب الساكي، وذلك لا يعني تبديد أمواله وحسب، بل أيضًا دخولًا متكررًا إلى السجن بسبب ديونه. وكلما حدث ذلك، أتت تاكي إلى منزلنا، لتمنحها والدتي عملاً تحرر زوجها بما يعود عليها منه. صحبت تاكي أختي الكبرى في مهمة ذات يوم بعيد، أثناء عملها السابق في بيتنا. وشاهدتا خلف بوابتنا مباشرة رجلين يدنوان. كان أحدهما رجلاً حسن الملبس، وغطي رأسه بقناع السلة المحتم على جميع السجناء ارتداؤه خارج جدران السجن. أخبرتنا أختي أن تاكي ظلت ساكنة، تراقب الرجلين بارتياب، ولم تظهر عليها إمارات المفاجئة حين توقفا. انحنى الضابط وقال ببهجة: «كل ما عليك دفعه الآن ثلاث ينات وحسب، ويصبح حرًا».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاحت تاكي بإلحاح شديد: «أوه، من فضلك، سيدي الضابط، من فضلك ابقيه معكم لبضعة أسابيع وحسب، وسأسدد جميع ديونه لاحقًا. أرجو أن تبقيه معكم لفترة أطول قليلا، رجاءً!»

وقف الزوج المسكين بخنوع، بينما زوجته والضابط يتجادلان، رفضت تاكي بتعنت دفع الثلاث ينات، وغادر الضابط مع السجين ذي الرأس السلة. وقفت تاكي تشايعهم، منتصرة. لكن بعد برهة، سحبت طية ورق من نطاقها، ومسحت عينيها، وتنشجت عدة مرات وقالت: «تعالي، يا سيدتي الصغيرة؛ لقد أضعنا الكثير من الوقت. علينا أن نسرع!».

لم أطلب منها عدم إغلاق باب الشرفة مرة ثانية، إلا أنني بعد عدة أيام طلبت من النجار وضع شريط عريض ومفتوح نحتت عليه زهور السوسن -زهرة الصحة- بين الأفاريز وفوق الألواح. ثم وضع قضبان الحديد على مسافات منتظمة، ممررة عبر أنابيب مجوفة من الخيزران. وهكذا بتنا آمنين من كل خوف. إذ لا يمكن للهواء الضار أن يؤذينا إن مر عبر بتلات الأزهار الصحية، ما يتماشى مع وجهة نظر تاكي الطيبة والمتعصبة.

فاجأتني قدرة الصغيرات على تقبل الظروف والتأقلم في هذه الأرض الغريبة. شغفت هنانو، منذ طفولتها، بكل ما هو جديد، فخلصتُ إلى أن تغير حياتنا باستمرار قد ألهاها عن الحنين إلى الوطن. أما تشيو البالغة من العمر ثلاث سنوات -والتي كانت دائمًا طفلة قانعة- فبدت سعيدة كل السعادة برفقة أختها الدائمة لدرجة أنني لم أتبين احتمال أن يكون لها أفكارها ورغباتها الخاصة. حين حللنا ضيوفًا تَوَقَّعَتْ اختلاف الوضع، إنما بمجرد استقرارنا في المكان الذي أسميته «منزلنا» واكتشافها أن ملابسها مرتبة في الأدراج وألعابها موضوعة في مكان يمكنها الوصول إليه، بدأت تلاحظ الفرق وافتقدت أشياء كثيرة.

قالت ذات يوم: «ماما»، ثم دنت واتكأت على كتفي وأنا جالسة أخيط: «تشيو تريد...» سألتها: «ماذا تريد تشيو؟» فأمسكت بيدي وقادتني بمهل عبر غرفنا الست الصغيرة. فرشت الحصر البيضاء في كل مكان، خلا أرضية المطبخ. في كوةٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صالة الاستقبال علقت لفيفة مصورة، ووضعت زهورا منسقة على منصة مصقولة أسفلها. وثمة بيانو صغير بارز في إحدى الزوايا. كانت غرفتي وغرفة نوم الأطفال بجوار بعضهما البعض خلف الصالة مباشرةً، تفصل بينهما أبواب حريرية انزلاقية. والخزانات ذات الأدراج المصنوعة من الخشب الأبيض بمقابضها الحديدية المزخرفة، متكئة على الجدار الجصي ذي اللون البني، وضع مكتبي ومكتب هنانو، وكلاهما عبارة عن طاولات بيضاء منخفضة مع كتب وحوامل أقلام في الأعلى، بحيث أنه وعندما تدفع الأبواب الورقية الانزلاقية إلى الخلف يصبح بوسعنا أن نرى عبر الشرفة الضيقة حديقتنا الصغيرة الجميلة بشجيراتها المشذّبة جيدًا، ومسارها المنحني المكون من أحجار متدرجة، وبحيرتها الصغيرة التي بها تسع أسماك ذهبية مفعمة بالحياة.

تطل غرفة الطعام على الحديقة أيضًا وتقع بشكل متعامد مع غرفنا، وكانت هي الغرفة الأكثر إشراقًا في المنزل. كانت مدفأة النار الكبيرة ذات الزوايا المربعة بأدراجها الجميلة مصنوعة من خشب البتولا الأبيض وهي عنصر أساسي في كل غرفة طعام في اليابان، أما الخزانات فقد سترت بأبواب انزلاقية مغطاة بنسيج أسمر اللون. توجد وسادة على أحد الجوانب، مهيأة لجلوس السيدة حينما تذهب للتحدث مع الخادمة عن شؤون المنزل، التي تُستدعى من خلف باب آخر أسمر اللون يبدو جزءًا من جدار المطبخ. وفي الخلف مباشرة توجد دورة المياه، وغرفة تاكي وسودزو، ومدخل الخدم. وفي الواجهة هناك المدخل و «مكان خاص للأحذية» في ردهة الاستقبال المؤدية نحو البوابات الخشبية الكبيرة التي توجد في إحداها «عين الباب».

قادتني تشيو من غرفة إلى غرفة، وتوقفت بين فينة وأخرى مشيرةً بشكل عشوائي هنا وهناك مرددةً: «تشيو تريد...»، كانت في حيرة من أمرها لكثرة ما تفتقده، عذّبها خواء دارنا الذي أحببته أنا. كانت تشتاق إلى أسرة أمي -الأمريكية- الكبيرة ذات الستائر، والكراسي بوسائدها الوثيرة، والمرايا العملاقة، والبيانو ذي الشكل المربع الكبير، والسجاد المزهر، والنوافذ المغطاة بالدانتيل، والأسقف العالية، والغرف الواسعة، والرحابة! انفطر فؤادي حينما نظرت إلى وجهها الصغير الحزين.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ولكن عندما جذبتني من كمي ودفنت وجهها في ثنايا ملابسي، وتوسلت قائلة: «أوه، ماما، خذيني إلى منزلنا لرؤية صورة بابا وجدتي! من فضلك، إذا سمحت!» أخذتها بين ذراعي وانهرت على الأرض، واحتضنتها بقوة وأخذت بالبكاء بصوت عالٍ لأول مرة في حياتي.

لا ينبغي لهذا الأمر أن يستمر. متى أضعت روحي المحاربة؟ بأي مدرسة التحقت في طفولتي؟ هل أضعفتني الحرية التي نعمت بها لسنوات في أمريكا بلا قيود؟ هل استنزفت شجاعتي؟ وهل سيشعر والدي الكريم بالخزي مني؟

قلت لها وابتسامتي تغالب دموعي: «تعالي يا ابنتي الصغيرة، لقد أخبرت تشييو ماما ما افتقدته في منزلنا الجديد؛ والآن دور ماما كي ترى تشيو ما لدينا هنا» وهكذا، بدأنا جولتنا من جديد بمرح. دفعت الأبواب الحريرية المنخفضة في الردهة إلى الخلف أسفل نافذة القمر، فانكشف لنا رفّان داخليان رتبت فيهما بعناية كل كتب هنانو وتشيو الجميلة من أمريكا. أشرت إلى اللوحة الرائعة الموجودة فوق الأبواب - لوح عريض ورفيع من الخشب، رقيق وجميل على نحو يثير العجب- نحت شكلها العجيب الذي لا يضاهى سنوات طويلة من الأمواج المتحطمة. أريتها عمود الكوة، وهو مجرد جذع ملتوٍ ومتقشر لشجرة صنوبر من الغابة، ولكنه مصقول بعناية لدرجة أنه تراءى كما لو كان مغطى بالكريستال. أريتها الخشب الداكن الغامق لأرضية الكوة، وقلت لها: «إنه ناعم ولامع مثل مرايا صالة الجدة الواسعة في منزلها»، فانحنت لترى انعكاس وجهها الصغير الحزين، الذي تهلل بابتسامة ملتوية حين رأته. فتحت الباب الصغير لركننا المقدس غير المستخدم في غرفة أخرى، وداخل الجزء الداخلي المنحوت الأنيق كانت ثمة صورة لوالدها، أُطّرت في أمريكا، والتي كان من المقرر أن تعلق فوق البيانو عندما يتمكن النجار من تركيبه. أريتها الخزانات الكبيرة التي تغفو عليها وسائد أسرّتنا طول النهار، التي تجمّعُ في أزهارها الحريرية الحديث والموسيقى والضحك لتنسجه أحلامًا سعيدة تجدها مخبأة في وسادتها ليلاً. فتحت بلطف جبل الرماد الصغير في صندوق النار بغرفة الطعام حتى تتمكن من رؤية الفحم المتوهج بسكون، ينتظر دومًا بدفء وراحة، أي شخص يحتاج رشفة من الشاي. ثم فتحنا الأدراج الصغيرة، درج واحد لكعكات الأرز الصغيرة ذات اللونين

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوردي والأبيض لزائرينا الصغار، وواحد لعيدان تناول الطعام الإضافية، وواحد مخصص لعلبة شاي صغيرة وملعقتها الخشبية العريضة بالقرب منها. أما الدرج التحتاني الكبير الواسع -أواه، يا عزيزتي! يا حبيبتي!- فما من حاجة إليه إطلاقًا. فقد صُنعَ لجدة من الزمن الغابر، والتي كانت تقوم أحيانًا، بعد أن تحكي حكاية خرافية لأحفادها الصغار، بمد يدها لتأخذ غليوناً طويلاً نحيفاً ذا مخلب فضي كوعاء. وبعد ثلاث نفثات، كانت تطرق به على حافة الصندوق -هنا فقط- ثلاث مرات، تطرق، تطرق، تطرق، ثم تعيده إلى مكانه بكيسه الحريري العطري (شم، استنشق! — بوف، بوف! لا يعجب ماما!) وتنتظر مرة أخرى قادمة لتستمتع به في خلوتها أو تأملها، أو ربما ستمر بها جدة عجوز عزيزة أخرى، ثم ستشاركها ثلاث نفثات ثانية، أو ربما تزيدان ثلاث نفثات غيرهن، بينما ترتشفان الشاي وتتحدثان بأصوات لطيفة عن الزمن الغابر.

قلت: «وهنا تضع سودزو قوارب جنيات الطعام، الكل ينتظر تعبئتها بالأطعمة الفاخرة لثلتهم». دفعت أحد الألواح الذي لم يكن شكله شكل باب أبداً للخلف، وألقينا لمحة سريعة على خزانة احتوت على العديد من الأرفف قليلة العمق، التي وضع عليها، أوعية خشبية للحساء مرتبة في خمس مجموعات، وأوعية صينية للأرز، وأطباق بيضاوية للأسماك، وأطباق عميقة للمخللات، والعديد من الأطباق والأكواب والصواني، كل منها شُكِّلَ ليلائم غرضاً متميزاً، وكل زخرفة تحكي قصة عن اليابان القديمة. في الأسفل كانت طاولاتنا المطلية بالورنيش، تبلغ مساحة كل منها قدمًا مربعًا وارتفاعها قدمًا؛ وتراكمت، على مسافة قصيرة، وسائدنا. غنت هنانو عندما أخرجتها سودزو لنجلس عليها حين نتناول الوجبات:

«واحد واثنان وثلاثة لا غير، لي ولها ولكِ! «

واصلنا جولتنا، «والآن حان دور المطبخ، هذا الباب لا ينزلق، ولكنه يفتح عن طريق تحويل مخروط صغير من خشب الصنوبر البرونزي. ارتدي هذه الصنادل يا تشيو؛ لأننا لا ندخل المطبخ بالجوارب وحدها. تتكون نصف أرضية المطبخ من ألواح غامقة وناعمة، كما ترين، والنصف الآخر -منخفض!- من الأسمنت. يوجد موقد الغاز،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبالقرب منه صندوق نار فخاري لغلاية الأرز الكبيرة المنتفخة بسطحها الخشبي الثقيل. لا ينبغي إلقاء أي ورق قمامة أو قصاصات من أي نوع على تلك النار؛ نلقي القش وحده لبدء العمل والفحم لمواصلة العمل، لأنه مخصص لطهي الأرز وحسب - وهو قوام الحياة في اليابان- ويجب أن نحسن استخدامه».

«وها قد جاءت تاكي؛ وسترينا شيئًا، يا تشيو الصغيرة، سيحمسك للركض إلى الصندوق الكبير الذي يضوع برائحة الكافور، مثل رائحة الغابة القريبة من منزل العم أوتاني، وستُخرج لك طوق الفرو الذي أعطته لك جدتك يوم عيد الميلاد الماضي. انظري!» أدخلت تاكي إصبعين بين فتحتين صغيرتين في أحد الألواح المشدودة للأرضية ورفعتهما؛ ثم آخر، وآخر. ثمة صندوق مربع واسع وخفيف من الخشب الأبيض، وعلى مقربة من يد تاكي، كان هناك قبو صغير به كتلة من الجليد، مقطعة بشكل بدائي وموزعة على الرفوف، وأطباق خشبية بها أسماك، وخضروات، وبيض، وفاكهة.

قلت: «هذا ما تؤول إليه تلك الرزمة الجليدية التي يجلبها الرجل في سرج القش على ظهره كل صباح. وهناك حوض تاكي الخشبي، الذي يرتفع عاليًا عن الجزء الأسمنتي من الأرضية، مثل طاولة ذات أرجل صنعت من أنابيب المياه».

ننعطف الآن يمينًا. نخطو معاً بضع خطوات على طول الردهة الصغيرة الضيقة حتى نصل إلى الحمام. وهذا حوض الاستحمام الخشبي الأبيض المستدير، بالغ العمق بحيث أنه حتى إن ركعت ماما داخله سيصل الماء إلى ذقنها. هناك صنبوران للماء فوقه، وصفّ صغير من مصابيح الغاز في أسفله. وهنا ثلاثة أرفف صغيرة لكيس النخالة والكوب وفرشاة الأسنان، وكل رف منها مزود بشماعة منحوتة أسفله للمناشف؛ وفي الزاوية سلة كبيرة من الخيزران لغسيل الملابس ولفة خرطوم لسقي الحديقة. «أوه، إنه منزل صغير شائق، تشيو؛ إنه مثل مسرح عملاق، حيث تكون ماما في المنزل دوماً لتلعب معك، حين تذهب هنانو إلى المدرسة».

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

توافه تراجيدية

لقد كان العثور على مدرسة مناسبة لتشييو على الفور بمثابة ضربة حظ. فقد أقام بالقرب من منزلنا معلم موهوب مهتم بالطرق الحديثة لتعليم الأطفال الصغار. أدار هو وزوجته روضة أطفال نموذجية صغيرة في منزلهما، وقد حظيت بشرف إرسال ابنتي الصغيرة إليها، لم تكن تشيو تتحدث اليابانية، ولكن لحسن الحظ كان هناك طفلان لمبشر أمريكي في الفصل يجيدان اللغة اليابانية، وهكذا أصبح الأمريكيان الصغيران المولودان في اليابان مترجمين فوريين لطيفين لليابانية الصغيرة المولودة في أمريكا؛ وبذا تشكل ما يشبه المزيج الأممي الذي أدى، من جانب واحد على الأقل، إلى ذكرى ود وامتنان مدى الحياة.

بيد أن المشكلة تمثلت في العثور على مدرسة لهنانو، أثرت تجربتي الدراسية السعيدة في طوكيو على اختيار مدرسة لها؛ ومع ذلك، خلصت بعد دراسة متأنية إلى أنه، حتى وإن كانت أجواء المدارس التبشيرية متفوقة بلا شك، إلا أنها لم تكن قادرة على منافسة المدارس الحكومية في جانب المنح الدراسية. ونتيجة لذلك، اخترت مدرسة عامة عرف مديرها بأنه واحد من أفضل المديرين في طوكيو، ولحسن الحظ، لم تكن بعيدةً عن منزلنا. كنت أعرف أن عائلة ماتسو ستوافق عليها.

رغم أن معرفة هنانو باللغة اليابانية كانت محدودة، إلا أن فهمها للتاريخ والأدب والتقاليد اليابانية كان يضاهي فهم أترابها. لذا كانت متقدمة جدًا بالنسبة لمستوى المدرسة الابتدائية.

بيد أن مسألة دخول هنانو للمدرسة شكلت حيرة للإدارة المدرسية، فلم تحسم أمرها بشأن ما يجب التصرف به حيالها. لأن اللوائح اليابانية لم تكن مرنة. وما برحت المؤسسات الرسمية عن تتبع خط جامد، وغالبًا ما يتعاظم الكبرياء الإقطاعي القديم في المسؤول الحكومي البسيط إضافة إلى إخلاصه الصارم حد التطرف، لدرجة أن زحزحته خارج خطه الجامد يغدو أمراً بالغ الصعوبة.

وقد انفطر قلبي حزنًا وأنا أسمع مرارًا وتكرارًا، أنه لا يوجد مكان لهنانو في أي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صف، لكني لم أدع لنفسي مجالًا للفشل! وثابرت بصبر، معتبرة أن اعتراف اليابان بأطفالها المولودين في الخارج وفرضها تعليماً إلزامياً، يؤكد أن هناك حلاً ممكناً.

وعلى أية حال فقد أحاطت بي المتاعب وشعرت كما لو أن شرنقة البيروقراطية تلتف حول طفلتي يومًا بعد آخر. ثم أخيرًا تم قبولها في الصف الثالث ومنحت الإذن بالجلوس في الجزء الخلفي من غرفة الصف، متفرجة صامتة تصحب دفترًا.

لن أنسى أبدًا الأيام الأولى لهنانو في المدرسة. كانت هنانو بطبيعتها ذكية وسريعة الملاحظة، وعلى دراية بقصص الصف الثالث. لكن لم تكن لديها أدنى معرفة بالرموز التعبيرية للحروف اليابانية، ولم تستطع أن تفهم إلا النزر اليسير من شرح المعلم. شهدت مرة تلو الأخرى إشراقة اليقظة والاهتمام ترتسم على محياها، ثم لا تلبث أن تحل محلها نظرات الحيرة والارتباك، ثم تغرق شيئًا فشيئًا في يأس أجوف.

تحول منزلنا إلى حجرة دراسية في كل مساء، حيث أراجع لها جميع دروسها، وأترجم وأشرح لها باللغة الإنجليزية. وحتى خارج ساعات المذاكرة، ففي أثناء تناولنا للطعام، كنا نلعب ألعابًا تقتصر فيها الكلمات على الألفاظ الشائعة الاستخدام، وكلما سمعت تاكي تساوم الباعة عند باب المطبخ، تهرع هنانو إليها على الفور. لكنني أعتقد أن أكثر ما أعانها على تطوير لغتها هو ملعب المدرسة. حيث غذا المرح فضولها. فقد شاركت في كل الأنشطة، الجري وألعاب التخمين، ودردشت باللغة الإنجليزية، بينما تفاعل معها زملاؤها باللغة اليابانية، وقضوا معًا وقتًا رائعًا، ومن خلال كل ذلك تكونت لدى هنانو حصيلة كبيرة من مفردات استظهرتها واتضحت لها معانيها بلا تفسير.

تحريت الصدق في التقارير التي أبعثها إلى العم أوتاني، واستمتعت بزيارات أفراد العائلة والتي كانت «استقصائية» في مجملها؛ لكن إلزامهم لي بالتماس نصيحة المجلس قبل إجراء أي تغيير في خطتي، مهما كان تافهًا، كان في كثير من الأحيان أمرًا شاقًا بلا داع. بل ويصل إلى حد السخافة، أن أطلب رأيهم الرسمي بشأن أي من المقررين الدراسيين يناسب هنانو، في حين أن أيًا من أعضاء المجلس لا يعلم عن أدائها الأكاديمي السابق ولا يريد معرفة شيء عنه. معتقدين أن كلتا الدراستين

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الموصي بهما لا داعي لهما من الأساس وأنها مجرد إهدار لوقت الفتاة. لكنني كنت واعية لأدق التفاصيل، ومع مرور الوقت أصبحت زيارات الأقارب الاستطلاعية تلك أقل توترًا وأكثر ودية وفي الغالب تلقيت الرد على استشاراتي بأن أتصرف بما أراه مناسبًا.

عندما وصلت هنانو إلى المرحلة التي بدأت فيها التعرف على الحروف في لافتات الشوارع والإصغاء بذكاء إلى المحادثات التي تدور حولها، كففت عن زياراتي للمدرسة ووجهت اهتمامي إلى واجباتها المنزلية، وقد واجهتني العديد من المآزق. ورغم تفاهة بعضها، إلا أنها، مثل لدغات البعوض اللاذعة، شديدة الإزعاج.

لم أر بأسًا في استمرار ارتداء بناتي للملابس الأمريكية إذ كانت لديهما كمية وافرة منها، إضافة إلى أن الأسر التقدمية دعت إلى استخدامها على مستوى الأطفال، باستثناء المناسبات الرسمية. وحين زادت برودة الطقس، ألبستهن ملابس داخلية ثقيلة وجوارب صوفية؛ لأن الفصول الدراسية رغم حجمها الكبير إلا أنها لم تزود سوى بصندوقين لإشعال الفحم للتدفئة. ورغم حرصي البالغ، عادت تشيو ذات مرة إلى الدار مصابة بنزلة برد. وكان صباح اليوم التالي صباحًا رطبًا باردًا. لم يكن بوسعي حرمانها من أعظم متعة لها، لكنني أيضًا لم أستطع المخاطرة بإصابتها بالبرد مرة أخرى. ماذا أفعل؟ فجأة، خطرت لي فكرة شريرة، إذ كان لديها معطف من الصوف الناعم يغطي فستانها بالكامل. ألبستها إياه، وزررته جيدًا، وطلبت منها ألا تخلعه، ثم تركتها تذهب.

بعدها جلست لأحاسب نفسي. حين يدخل المرء المكان في اليابان، يتوجب عليه أن يخلع قبعته وحذاءه ومعطفه. لذا يعتبر ارتداء تشيو لمعطفها داخل غرفة الصف إساءة لا تغتفر شأنها شأن البقاء بالقبعة. بيد أني علمت أن المعلمة لن تنظر إلى المعطف الأحمر الجميل ذي الأكمام وياقة الدانتيل، سوى أنه فستان من الفساتين الأجنبية التي اعتادت تشيو على لبسها. وأظنني راهنت على جهل المعلمة حين اقترفت هذا الأمر المخادع! وتذكرت كيشيبو جين متسائلة هل خلا قلب أم قط من جنين شيطان بين حناياه؟

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنهدت بعدها، ونهضت واقفة على قدمي مستعدة للخروج. اقتربت من المرآة لأرتب شعري، توقفت، وارتسمت ضحكة يشوبها خجل على وجهي، أعاقني تردد وهمي للحظة خوفًا من أن أرى في انعكاس وجهي، أثرًا من خداعٍ في داخلي.

توجهت مباشرة إلى أقرب متجر واشتريت الهايفو وهو ثوب منزلي فضفاض، ولكنه أنيق وملائم للشتاء، مبطن بالحرير المصنوع من الخيوط المستخلصة من الشرانق الفارغة. وهو من أخف الأقمشة وأكثرها دفئًا في اليابان. وفي صباح اليوم التالي ذهبت تشيو مبتهجة إلى مدرستها مرتدية الهايفو فوق فستانها الأمريكي، بعد أن قضينا يومنا كله أنا وتاكي وسودزو في الخياطة. دفعتني تلك الحادثة إلى اتخاذ قرار بتبديل ملابس صغيراتي الأمريكية بالملابس اليابانية.

وهناك حادثة أخرى، أقل مأساوية، في شريط ذكرياتي عن التأقلم والمرونة. من المعتاد عند ركوب الجينريكشا أن يتقدم الشخص المبجل أولاً. لذا يجب على الطفل أن يقدم والديه. لكن قلبي لم يطمئن لذلك، فما الذي يضمن لي عدم حدوث شيء غير متوقع لصغيراتي المفعمات بالنشاط؛ لذا عمدت دائمًا إلى جمعهن معًا في جينريكشا واحدة أمامي مباشرةً. وفي يوم من الأيام، وبينما كنا على طريق مكتظ، رأيت هنانو تلتفت إلى الوراء وتلوح لي بإلحاح بالغ؛ تكاد تنهض واقفة من لهفتها أن تريني طاولة صغيرة وكرسيين من الخيزران معروضات في نافذة أحد المتاجر. توسلت الطفلتان لأشتريهن. إلا أنني رأيت أنه من الحماقة أن نأخذهن إلى منزلنا الجميل؛ فالأثاث الأجنبي سيبدو غريبًا في الغرفة اليابانية، بالإضافة إلى أن أرجل الكراسي ستفسد الحصائر الرقيقة، بيد أن نظرات التوق الشديد في عيون الطفلتين جعلتني أرضخ لطلبهما، وطلبت أن تثبت شرائح رقيقة من الخشب في أسفل أرجل الكراسي لإنشاء قاعدة حماية لأرضيتنا، وكان من المفترض أن تسلم لنا في اليوم التالي.

ذهبت للتسوق في وقت مبكر من صباح اليوم التالي وعدت إلى المنزل عند الظهر. تفاجأت حين عدت ووجدت طاولة الخيزران في وسط الصالون وعلى كل جانب تجلس ابنتاي، هنانو جالسة على جانب وتشيو على الجانب الآخر! جالستان وحسب،

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

دون ألعاب ولا كتب. وأخبرتني سودزو بإنهن ظللن على تلك الحالة مدة ساعة، وتبادلن أماكنهن عدة مرات، ساكنتين بلا حراك أو يتهامسان.

سألتهن: «ماذا تفعلن يا بنات وأنتما جالستان بسكون هكذا؟»

ردت هنانو: «أوه، لا شيء، مستمتعتان بالجلوس وحسب!».

بعد لحظة قالت تشييو: «كانت كراسي الجدة ناعمة، أما هذا الكرسي فله مقابض على الحافة. هنانو دعينا نتبادل الأماكن».

حدثت بعد ذلك مشكلة أغطية النوم. إن مصدر فخر ربات البيوت اليابانيات لا يكمن في امتلاك فرش نوم أنيقة وجميلة فحسب، بل يجب أن تكون ملائمة أيضاً، لذا أرسلت لنا أمي مع تاكي كمية من الحرير والكتان لفراش الطفلتين. استوحي تصميم فراش هنانو من الزهرة المسماة على اسمها، «زهور الفصول الأربعة»، وهي عبارة عن تشكيلات من الزهور متعددة الألوان مبعثرة بطلاقة على خلفية وردية غامقة. أما فراش تشيو فصمم أيضًا على اسمها والذي يعني «الحياة الطويلة»، سرب من طيور اللقلق البيضاء تحلق في سماء زرقاء ملبدة بغيوم عائمة.

واظبت تاكي وسودزو عدة أيام على خياطة المنامات بلا كلل، لذلك أخبرتهن في ذلك المساء، بعد أن انتهين من الخياطة، ورتبت سودزو المنامات جنبًا إلى جنب، أنه بإمكانهما الخروج إلى المعرض المفتوح الذي يقام بالقرب منا، على أرض المعبد، وسأصطحب بنفسي الطفلتين إلى الفراش. ولكن أثناء مساعدتي للبنات في تبديل ملابسهن، حضرت لزيارتي بعض الصديقات، فتركت الفتاتين لتستعدا للنوم بمفردهن. وظلت صديقاتي معي إلى وقت متأخر. سمعت تاكي وسودزو تدخلان، وبعد وقت قصير حدث اضطراب في غرفة الأطفال. علا صوت هنانو بوضوح قائلة باللغة الإنجليزية: «لا يحق لك! توقفي! هذا ليس عدلاً!» أعقبه صوت غمغمة خافتة باللغة اليابانية وتذمر مثقل بالنعاس وهرولة خفيفة ثم صوت يهمس بهدوء: «عذرًا على إزعاجك، ليلة سعيدة!»

أسرعت إلى غرفة البنتين بمجرد أن ذهبت ضيفاتي، كانتا نائمتين بهدوء. انتظرت

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

سودزو حتى تغلق البوابة وتدخل، ثم أخبرتني بما حدث: اختلست تاكي المخلصة النظر إلى غرفة الطفلتين لتطمئن عليهن بعد عودتها، ويا للفوضى التي وجدتها!، كانت «الزهرة في الأرض الغريبة» نائمة بين طيور اللقلق الطائرة، بينما تستقر «صبية الحياة الطويلة» بسلام بين أزهار الفصول الأربعة المتناثرة. وها قد حضرت تاكي المنظمة والمرتبة طول حياتها لتنقذ «العالم من الفوضى»، فلم تتردد لحظة واحدة وسحبت الأغطية بحماقة، وحملت هنانو بين ذراعيها القويتين، وبعد ذلك، أوقفت الطفلة المذهولة في وضع مستو، وأمسكت بشتيو ووضعتها في منامة هنانو، وهي تتمتم باستمرار: «يا لكن من فتيات جاهلات! فتيات جاهلات! دون أن تعير أي اهتمام لاحتجاجات هنانو الساخطة التي مفادها أنهما قد غيّراها عمدًا، بالمبادلة وحسب. ألقتها على ظهرها في الفراش، وبدلت الأغطية، ثم انحنت بأدب وهمست «تصبحن على خير»، وأغلقت الأبواب بهدوء وانسحبت بلطف كما لو أنها خشيت أن توقظ طفلاً نائماً.

أمعنت التفكير وأنا أضحك مستلقية على فراشي: «لم تتغير تاكي عما كانت عليه من قبل، يجب على كل من يعتقد أن المرأة اليابانية بالغة اللطافة أن يوسع آفاق معرفته».

لكن المسألة الوحيدة التي لم تضحكني قط، هي اللمحة الخاطفة التي بينت لي الجزء الخفي من حياة أطفالي. أظهرت هنانو على الدوام شجاعة في تحمل المشاكل البسيطة التي لا يمكن تجنبها بصمت، وبدت مشغولة للغاية ومندمجة بحياتها الجديدة، حتى أنني لم أتبين الحنين الكامن في أعماق قلبها إلى دارها القديمة. كان لحديقتنا مدخلان: أحدهما عبر المنزل والآخر عبر بوابة صغيرة من الخشب على الممشى المؤدي من البوابة الخشبية إلى باب المطبخ. هطلت أمطار مفاجئة وكادت تغمرني ذات يوم، بينما كنت عائدة إلى المنزل. لذا، بدلاً من أن أدخل عبر البوابة الكبيرة، تسللت عبر البوابة الخشبية، واندفعت عبر ممشى الحديقة إلى الشرفة، وسمعت حينها أصوات الأطفال وأنا مسرعة إلى غرفتي، تاركة حذائي على الدرج.

سمعت هنانو تكلم أختها: «هنا على الشرفة في هذا المكان الظليل يكون كرسي

الجدة دائمًا، وتحت تلك الشجرة، كانت الأرجوحة الشبكية التي تغفين فيها وقت قيلولتك، وحيث أوشك بابا ذات مرة أن يجلس عليك. وهنا الدرجات الحجرية الكبيرة حيث اعتدنا أن نحتفل بالرابع من يوليو بإطلاق المفرقعات النارية. وهذا موضع البئر. وهنا الجسر المتحرك. وهنا تطعم كلارا الدجاج. رسمت كل شيء لوحدي، مثلما كان يا تشييو، عليك ألا تنسي هذه الأشياء أبدًا ولا تخبري أمي لأنها ستحزن، وهي أعز من بقي لنا، فقدنا البقية يا تشييو، ولا يمكن أن نلتقيهم مجددًا أبدًا، وليس لنا سوى الصبر. لكن لا تنسي كل هذه التفاصيل حيث ستبقى محبتنا إلى الأبد. والآن هيا لنغني».

وقفتا ممسكتين بأيدي بعضهما، وارتفعت أصواتهما الطفولية بوضوح وانسجام: «بلادي، لكِ أغني!(44)» بكيت بصمت وأنا أجول في الغرفة المجاورة وفكرت في أمجاد الصباح المعاد غرسها وتساءلت: «هل من الصواب أن نزرع زهرة صغيرة لا حول لها في حديقة الحب والسعادة، مدركين أنها عما قريب ستُنتزع من تلك الحديقة، لتزرع من جديد، حيث تتقزم، في محيط جديد لم تألفه؟ نعم أعطتها تلك الحديقة الكثير من القوة والإلهام، لكن هل يستحق ذلك تلك التكلفة؟ أواه، هل يستحق؟».

---

(44). "My Country, 'Tis of Thee" أغنية وطنية أمريكية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجدة الجليلة

غنت تشيو بمرح وهي تنقر بقدميها الصغيرتين المجوربتين على السجادة البيضاء، وتبعتني بينما كنت أتحرك في الغرف، واضعة اللمسات الأخيرة هنا وهناك للاستعداد لضيفنا المنتظر.

«جدتي الجليلة قادمة - قادمة!

جدتي الجليلة قادمة اليوم!»

حلّت الجوارب اليابانية ذات الفتحتين للأصابع محل الجوارب الأمريكية، وتنحى اللباس الأمريكي الفضفاض مفسحاً المجال أمام الكيمونو المزين بالزهور ذي البطانة القرمزية والأكمام الواسعة الأنيقة.

أيقنت وأنا أنظر إلى شعر تشيو بقصته المربعة من الأمام والقصيرة من الخلف، بأن اليابانيين أجمل بملابسهم اليابانية. لم تكن بهذا الجمال حين كانت ترتدي الزي الأمريكي، فالملابس اليابانية جذابة أكثر عليها، أوه، ولكني أغبط الأطفال الأمريكيين على انسيابية ملابسهم ومرونتها مما يجعلها مريحة وصحية أكثر. تنهدت، إنما ليس باليد حيلة فقد كنت مكبلة بمحيطي الخارجي. لذا لم يساورني الندم أبدًا على تغيير ملابس بناتي إلى الزي الياباني قبل أن تلقاهم جدتهم.

انشغلنا كثيرًا بعد أن وصلتنا رسالة والدتي التي أخبرتنا فيها بقدومها. انتقلت أنا والصغيرتان للعيش معًا في غرفة واحدة، وقمت بترتيب غرفة صغيرة ومريحة لأمي، كنت أعلم أنها ستجدها ملائمة ومريحة أكثر من أي غرفة أخرى في البيت. أردت أن يشعرها كل ما حولها بالألفة؛ لذلك عمدت إلى تغيير المصابيح الكهربائية المعلقة واستبدلتها بمصابيح أرضية ارتفاعها ثلاثة أقدام مظللة بإطارات مطلية باللون الأسود وبألواح ورقية، تشبه الشمعدانات في بيت ناجاوكا. أعدت سخاناتنا للغاز هنا ببراعة على شكل مواقد برونزية بحيث تبدو كمواقد الفحم. كانت أمي ستتقبل كل ما هو جديد بابتسامة كعادتها في الحياة، لكنني لم أرغب أن «تتقبل» الأشياء وحسب؛ أردت أن أعد لها كل شيء بالصورة المألوفة لديها، حتى تتمكن من الاندماج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسعادة دون عناء.

كنت أستخدم الركن المقدس الفارغ لتخزين الكتب وقبعات الأطفال. ورغم أن تاكي لم تعترض على وضع «الأشياء الشريفة» كما تسميها في الضريح؛ إذ يحترم اليابانيون الكتب باعتبارها «ثمرات الفكر»، والقبعات باعتبارها «تاج الجسد المبجل»، إلا أنها غمرتها السعادة عندما أزلت الأغراض وبدأت في إعداد الكوة الخشبية المنحوتة للمتعلقات الصغيرة التي ستجلبها أمي معها من الركن المقدس الكبير في منزل ناجاوكا.

سألت هنانو: «أين سنضع الركن المقدس الذي ستحضره الجدة الجليلة؟» وقد مرت ببالها الخزانة المذهبة والمطلية في منزل العم أوتاني.

أجبت: «بوسع الجدة الجليلة أن تحمل الأشياء الضرورية لركنها المقدس شأنها شأن المسيحي حين يحمل كتابه المقدس وكتابه للصلاة. وسوف نجدد هذه الكوة الصغيرة وننظفها لها، فجدتك الموقرة تعز أشياءها المقدسة التي كانت معها خلال كل أحزان وأفراح حياتها».

ثم سألت تشيو: «هل إله الجدة الموقرة وإلهنا يعرفان بعضهما البعض في السماء؟».

كنت أميل على الكوة لأزيل بعض الغبار عن الخشب المنحوت، فأجابت هنانو:

«بالطبع يعرفان بعضهما يا تشيو. لقد مر يسوع بأوقات عصيبة مثل بوذا العظيم، ليبلغوا الناس أن الرب يبتغيهم أن يكونوا صالحين وعطوفين و رائعين، تقول ماما دائمًا أن جدتنا الموقرة وجدتنا الأمريكية الغالية نساء صالحات، متشابهات تمامًا». تخلل حديثنا صوت «باتا باتا باتا» المتواصل قادمًا من الغرفة المجاورة، حيث كانت سودزو، التي طوت أكمامها إلى الأعلى ولفت منشفة باللونين الأزرق والأبيض حول شعرها المصفف حديثًا، تنظف الأبواب الورقية بقوة، مستخدمة منفضة الشوجي - مجموعة من قصاصات الأوراق مربوطة في رأس عصا قصيرة. توقف الصوت فجأة ومثلت سودزو أمامي في المدخل. أزالت المنشفة بسرعة ونزعت الشريط الذي كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تربط به أكمامها، وانحنت على الأرض. قائلة: «تعتقد تاكي سان أن ماء الاغتسال الذي يسخنه الغاز سيكون قاسيًا للغاية على جسم السيدة الجليلة الحساس والضعيف. هل أحضر نجارًا؟»

لقد نسيت اعتقادات أهل الريف تلك، فهم يظنون أن على الشخص العجوز أو الضعيف، استخدام الماء المسخن بفحم الخشب وحسب للاستحمام. سارعت سودزو للقيام بالمهمة، وفي غضون ساعتين استُبدِلَ سخان الغاز بفرن فحم صغير واكتملت تجهيزاتنا.

مثلّت تلك الأمسية ذكرى لا تنسى للطفلتين. مضينا جميعًا إلى المحطة لاستقبال أمي، عدا تاكي التي بقيت في البيت للتأكد من جاهزية الوجبة الترحيبية؛ الأرز الأحمر والسمك المشوي كاملًا مع الرأس؛ وبعد أن وصلنا إلى المنزل، وحتى قبل أن يهدأ صخب الترحيب، قامت تاكي بترتيب متعلقات الضريح في مكانها وأضاءت الشموع. وبعدها أحضرت طاولة الركن المقدس الصغيرة المحملة بالطعام، بجوار الأبواب المذهبة المفتوحة على مصراعيها ورائحة البخور النفاذة التي تعبئ الهواء. ثم ألحقتها بطاولاتنا، وحينها جلست مجددا لأتناول وجبتي بجوار والدتي بمعية أرواح الأسلاف الطيبة التي رحبت بي وبمن معي من صحبة سعيدة. بعد ذلك رجعنا إلى صالة الاستقبال وقضينا ساعة فيما أسمته هنانو «حديث التعارف»، قبل أن تعترف أمي بالتعب الذي بان حقًا على وجهها الشاحب، ثم اجتمعنا جميعًا أمام الضريح، وجلست تاكي وسودزو داخل المدخل مباشرةً.

تقاسمني إحساسان متنافران، إحساس بالألفة، وإحساس بالغرابة حين سمعت الترنيمة!، والصوت الهادئ للجرس البرونزي الصغير، وصوت أمي وهي تقرأ الكتب البوذية المقدسة التي طالما سمعتها من شفاه العزيزة التي رحلت منذ فترة طويلة، آه، ها قد حلّت السكينة والطمأنينة، واختفى شعور الوحدة المقلق الذي دام شهورًا، وتسللت إلى روحي طمأنينة لم أشعر بها منذ الأوقات الآمنة التي قضيتها مع عائلتي الصغيرة في منزل والدتنا الأمريكية المحبوبة.

فكرت: «كم أن طرفي العالم يتشابهان». يوجد في كليهما من يؤمن بآلهة كثيرة لا

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تضر ولا تنفع، بيد أنه بلا ريب ستحل اللحظة التي سنوقن فيها جميعًا بوجود قوة واحدة قادرة ورحيمة وعارفة، فوق كل شيء».

كانت الأسابيع التالية مليئة بالدروس الجديدة وغير المتوقعة. كنت أظن أن الإخلاص العائلي والمودة الطبيعية هما المتطلبان الوحيدان الضروريان للجمع بين والدتي وأطفالي. لكنني سرعان ما اكتشفت أنه على الرغم من فيض الإخلاص والمودة، إلا أن المصالح المتبادلة كانت مجرد احتمالات للمستقبل.

أدى مسعاي للجمع بين السالف والحديث في كثير من الأحيان إلى اضطراري للتخلي عنه واتخاذ قرار كامل لصالح أحدهما أو الآخر. بالنسبة للأشياء المادية؛ كان الأمر مجرد متاعب بسيطة؛ لكن الأمر كان محيرا عندما يتعلق بتصادم معتقدات أمي التقليدية مع التعليم المتقدم الذي توفره المدارس المعاصرة. لم تنتقد أمي شيئاً إطلاقًا. بل قابلت جميع المواقف بابتسامة أو ببعض التعليقات الظريفة حول «أساليب الحياة الجديدة»؛ إنما كان جليًا أنها تشكك في المنطق من وراء إهدار جل وقت الفتاتين للتعلم كالصبيان وتخصيص وقت أقل بكثير لتعلم تنسيق الزهور، وتقديم الشاي، وموسيقى الكوتو، وغيرها من الأنشطة الأنثوية التقليدية. أما تمارين الجمباز التي وصفتها الفتاتان بحماس، حيث تتدرب فصول كاملة من الفتيات على أرض المدرسة، ويسرن ويغنين بقوة ونشاط، فهي تتنافى تنافيا بالغًا مع مفهومها عن الوقار.

حاولت أن أشرح لها أن هذه التمارين مفيدة لصحة الطفل ونموه كما يعتقد. وأخبرتها أن الوضع تغير وأن جلوس الفتيات بهيئة مستقيمة ورفع رؤوسهن أثناء المشي ما عادت سمات رجولية؛ وحتى حديث هنانو بسعادة عن الأمور المدرسية أثناء تناولنا وجبات الطعام، والذي بدا لأمي كسلوك الحمالين، إنما هو ثمرة تعليمها المدرسي.

وفي حين نالت سلوكيات تشيو اللطيفة إعجاب أمي من أول وهلة، فإن سلوكيات أختها الحركية والحيوية والصاخبة كانت بمثابة مباغتات وألغاز دائمة. كانت هنانو نشيطة للغاية، وتميل إلى المبادرة بالكلام، ثم إنها لا تنفك ترتكب أمورًا لا تتفق

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وآداب السلوك الصارمة، لدرجة أنني بتُّ في حالة تأهب دائم لترقب وتتبع تصرفاتها المباغتة. لم يمض وقت طويل حتى أدركت بحزن أن الساعات الوحيدة التي أتحرر فيها من القلق كانت بين اللحظات التي ترزم فيها هنانو كتبها المدرسية، وتقفز بقبقابها عند الباب مُلوِّحة بهدوء وداعًا، وحتى لحظات بعد الظهر حينما تدفع الباب هاتفة بمرح، «لقد عدت!» فيتردد صدى صوتها عبر الردهة.

اختلف الوضع وتغير. وخفتت حدة التوتر الصامت شيئًا فشيئًا، لا أعرف متى أو كيف. غدت هنانو أكثر هدوءً في كلامها وألطف في سلوكها، وأصبحت تكثر من الجلوس بجانب تشيو عند مدفأة أمي يستمعان إلى حكاياتها أو يقرآن لها بصوت عالٍ فتصحح لهما. ذات يوم وجدتهما تجلسان بقرب جدتهما تحتضناها كل من جانب، وهي تعلم هنانو كيفية كتابة حروف اسم «الجدة الأمريكية».

أحبت أمي تشيو من أول لحظة، صحيح أن حركاتها العاطفية سببت الذهول لأمي إلى حد ما في البداية، إلا أنه سرعان ما أصبحت الاثنتان رفيقتين متحابتين. ومن الغريب أن يكون الدين أحد أسباب التقارب بينهما. كانت تشيو تعرف طريق المعبد جيدًا لأن روضة الأطفال تقع أمامه مباشرةً، وبما أنني لم أود رؤية أمي تذهب بمفردها، فقد رافقتها تشيو كثيرًا حين تنشغل سودزو. أحبت الطفلة الجلوس في المكان المهيب العظيم والاستماع إلى الترانيم، وأحبت كعك الأرز الذي قدمته لها الكاهنة صبوحة الوجه التي تقدم الشاي لأمي بعد انتهاء الطقوس. في يوم من الأيام، قالت أمي: «تشيو، إنك جد لطيفة إذ ترافقيني إلى المعبد. في المرة القادمة سأرافقك إلى كنيستك. لذلك اصطحبتها تشيو للاستماع إلى قسيسنا، وهو رجل طيب يلقي الموعظة باللغة اليابانية. وكثيرًا ما كانا يذهبان معًا بعد ذلك، مرة إلى المعبد، حيث تقف تشيو برأس منحنٍ بينما تدعك جدتها مسبحتها بين يديها بسكينة وتُتمتم، «نامو أميدا بوتسوا!» ومرة إلى الكنيسة المسيحية، حيث تصغي الجدة إلى الخطبة بانتباه وتنحني في خشوع عندما يبتهل القس، ثم تعودان معًا إلى المنزل يدًا بيد تتحدثان عما سمعتاه في المعبد أو الكنيسة. وذات يوم، حين دخلتا من البوابة، سمعت أمي تقول بلطف: «قد يكون ما قاله حقيقي يا تشيو، إنما لا ينبغي لي أن أذهب إلى مكان أفضل من المكان الذي ذهب إليه زوجي الكريم. حتى لو كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في جحيم البرد المروع(45)، فمن واجبي أن أكون معه. العقيدة المسيحية تناسب الجيل الجديد، مثلك، تشيو الصغيرة، أما أنا فعليّ أن أتبع نهج أسلافي».

تناهى لسمعي صوت تشيو في عصر يوم من الأيام، بينما كنت أخيط في غرفتي، تقول من خلف الأبواب المغلقة: «جدتي الجليلة، متى ستموتين؟» فدفعت الباب الانزلاقي للخلف، ووجدت تشيو تحتضن أمي على نفس المنامة. اعترتني الدهشة، لأنه في أيامنا لم يكن أي طفل يجرؤ على الاقتراب بحميمية من شخص مسن، لكنها كانت بقربها، تشاركها النظر باهتمام إلى مجموعة من الصناديق الصغيرة المطلية بالورنيش المبعثرة على الأرض. وثمة صندوق كبير، ترتب الصناديق الصغيرة داخلة بصورة منظمة. كم أتذكر ذاك الصندوق بجلاء!، كان محفوظًا في درج خزانة حمام والدتي طوال طفولتي، واعتادت أن تخرج تلك الصناديق الصغيرة بين الفينة والأخرى وتنثر بودرة البخور عليها. وهو ما تقوم به الآن. قالت تشيو: «يا ليت لي مثل هذه الصناديق الجميلة لدميتي». ردت أمي: «أوه، لا، يا حفيدتي الصغيرة»، وهي ترفع أحد الصناديق الصغيرة وتهز بلطف فتاتا باهتا ومعوجا كالنشارة : «هذه قصاصات أظافري التي احتفظت بها طوال حياتي».

Telegram:@mbooks90

فهتفت تشيو: «أظافر أصابع يديك وقدميك! يا إلهي! يا له من أمر مضحك!»

«صه، أيتها الحفيدة الصغيرة. أخشى أنك لم تتعلمي احترام تقاليد أسلافك. علينا أن نحافظ على أظافرنا وشعرنا المقصوص حتى نبعث في أجساد مثالية حينما تبدأ رحلتنا الطويلة». ثم أردفت وهي تحدق في الحديقة: «لا ريب أن تلك اللحظة لن تتأخر».

كانت تشيو تحدق بفضول في الصناديق، أما الآن فبان الاهتمام على وجهها واقتربت قليلاً من جدتها وقالت: «وجف قلبي يا جدتي الجليلة. ظننت أن ذلك لن يحدث إلا بعد فترة طويلة جدًا. لقد قلت إنه تحتم عليك دومًا، حتى عندما كنت طفلة صغيرة، أن تضعي البخور في الصناديق لإبقائها جميلة وجاهزة لموتك». داعبت أمي رأس تشيو الصغير ذا الشعر الأسود بيدها المتجعدة بحنو. «نعم، ولكن لن يستغرق الأمر وقتا طويلًا الآن. لقد أنهيت مهمتي في هذه الحياة، ويقوم بوذا

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

الرحيم بإعداد منصتي المليئة بأزهار اللوتس، وأنا متيقنة كل اليقين».

«وهل طلب منك بوذا الرحيم أن تأخذي معك أظافرك القديمة عندما تذهبين إلى منصة اللوتس؟»

«لا؛ فهو لا يأبه لجسدي. إنه يهتم بي وحسب».

«إذن لماذا احتفظت بأظافرك باهتمام بالغ؟» نظرت أمي نحو الركن المقدس المغلق. وقالت: «الركن المقدس، يا تشيو الصغيرة، ليس سوى صندوق حين يكون فارغًا، وجسدي ليس سوى ركن مستعار أعيش داخله. ولكن علينا من باب الإحسان ترك الشيء المستعار بأحسن حالة». ومضت نظرة جادة وعميقة في عيني تشيو لبرهة وقالت:

«لهذا السبب علينا أن نستحم يوميًا ونبقي أسناننا نظيفة دائمًا عزيزتي.! يا إلهي لم أفكر أبدًا في ذلك على أنه أدب مع الرب».

يبدو أن قلقي البالغ بشأن أوجه القصور في آداب سلوك صغيراتي، ومن ثم ارتياحي لتطورهن شيئًا فشيئًا وإن لم أصل لمرحلة الرضا التام بعد، أشغلني عن ملاحظة التأثيرات التي تركتها سنوات إقامتي في أمريكا على سلوكياتي الذاتية، ففي عصر يوم من الأيام وأنا أسير بعجلة على الطريق المؤدي إلى المنزل، عائدة من مهمة طارئة لمحت أمي واقفة أمام المدخل تراقبني، عرفت أنها ستستهجن استعجالي على الطريق، ولا ألومها، فما من منظر أكثر دمامة من امرأة تمشي مسرعة بالزي الياباني.

قابلتني بانحناءة كالمعتاد، ثم قالت بابتسامة لطيفة: «إيتسو-بو، ها قد أصبحت أكثر شبهًا بوالدك المحترم». ضحكت، ولكن وجنتيّ توهجتا وأنا أسير على الطريق بجانبها، متقبلة بصمت التوبيخ الذي أستحقه، لأن ما من امرأة يابانية تحب أن يقال لها إن مشيتها تشبه مشية رجل. قيدت مثل هذه التلميحات التي أسمعها بين وقت وآخر سلوكياتي عن مواكبة عقلي على طريق التقدم؛ وتحت نفس التأثير الصامت، تحولت طفلتاي الأمريكيتان النشيطتان شيئًا فشيئًا إلى فتاتين يابانيتين محترمتين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي غضون عامين، كانتا تتحدثان اليابانية دون لكنة، وترتديان الزي الياباني بشكل متقن لدرجة أنه من يراهن لن يشك في أنهن قضين كل حياتيهما دومًا في اليابان.

خطر ببالي: «أن وجود فتاة ما في نفس المنزل مع جدتها فرصة رائعة لها للتعلم»، وشعرت بالفخر لقدرة هنانو على الارتقاء إلى مستوى توقعات جدتها. انشغلت بأنانية بواجباتي اليومية، واقنعت نفسي بأن بيتنا متناغم للغاية، ونسيت أنه عندما تقع مسألة تحمل عبء الواجبات بين الكبار والصغار، فإن قانون الطبيعة يشير إلى الشباب رأسا. لقد حسبت المكاسب وحسب، ولكن ماذا عن الخسارة؟».

في يوم من أيام موسم تفتح أزهار الكرز، كانت هنانو جالسة على مكتبها المجاور لمكتبي، عندما هب نسيم خفيف على أغصان شجرة كرز بالقرب من الشرفة وانساقت بعض البتلات الوردية الباهتة عبر مكتبها. التقطت واحدة وبعد أن أمسكت بها للحظة، ضغطت عليها بلطف بين أصابعها، ثم ألقتها جانبًا، وجلست تنظر إلى البقعة الرطبة في إصبعها.

سألتها: «فيم تفكرين يا هنانو؟» رفعت بصرها للأعلى بذهول، ثم قالت، بعد برهة: «لقد ضجرت ذات مرة حين كنا في أمريكا وخرجت إلى الحديقة، كان بيتنا يومها يكتظ بالضيوف - لا بد أنه موعد شاي العصر حينها. وتسلقت الركن السابع من شجرة التفاح الكبيرة للوصول إلى قلعتي، ثم تساقطت الأزهار وسقطت بتلة في يدي تركت خلفها بقعة مبللة، تمامًا مثل بتلة الكرز هذه. أوه، ماما، ألن تبذلي كل ما في وسعك لرؤية جدتي مرة أخرى - والشرفة، والأشجار، و..». سقط الرأس الصغير ذو الشعر الأسود على المكتب، ولكن قبل أن أتمكن من مواساتها، رفعت رأسها مرة أخرى وقالت: «لا بأس. أنا أحب اليابان الآن، ولكن مرت عليَ أوقات، اشتعل فيها فؤادي حنينًا، وتملكتني رغبة بالجري. وذات مرة، حين كنتم غائبين عن المنزل، تسلقت شجرة الصنوبر الشائكة بجوار الشرفة، مرة واحدة وحسب. غير أني بخير الآن لا بأس. أحب المكان هنا».

تذكرت كيف كانت حينها، تمر عليها أوقات تكثر فيها من الركض في الفناء، وأكمامها تخفق بفعل الريح وقبقابها يقعقع فوق أحجار الممشى، وكيف أنني، جاهلة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بما يعتريها وغافلة عن التعاطف معها، أخذتها إلى غرفتي وألقيت عليها محاضرة عن حسن السلوك. لكن كل ذلك كان قبل وقت طويل. ثم تعلمت أن تتحدث وتضحك بهدوء، وأن تمشي على الحصر برزانة، وأن تجلس بسكينة وانتباه وبرأس منحنٍ حين تكون في حضرة الكبار وهم يتحدثون. قبل بضعة أيام فقط، قالت أمي: «تظهر هنانو إمكانيات واعدة. إنها تكبر وتزداد أدبًا وكياسة».

استغرقني التفكير أثناء جلوسي هناك وتساءلت هل مازالت هنانو سعيدة حقًا. يمكنني القطع أنها ليست تعيسة، إنما تغيرت. خفت البريق في عينيها، وانفرجت شفتاها قليلاً، وفقد حديثها حيويته وبهجته وغدا ثقيلًا خافت النبرة. نعم لبقة ومهذبة، بلا شك. ولكن أين اختفت سرعة استجابتها حين أناديها؟ أين شغفها الكبير بالتعلم والملاحظة والعمل؟ لقد تغيرت ابنتي الأمريكية الصغيرة المليئة بالحيوية والنشاط.

غمرني شعور بالعجز ونظرت إلى مكتبها وشعرت بالارتياح؛ لأن لوعة الحنين إلى الوطن قد زالت عنها. وها هي قد عادت لتنهمك في مذاكرتها. عدت بعد ساعة إلى غرفتها، فوجدتها راكعة بجانب درج مفتوح حيث وضعت ملابسها الأمريكية. دافنة وجهها بين ثنايا بدلتها القديمة التي سحبتها من الدرج. انسللت مبتعدة ناحية الحديقة. لم أنتبه وتعثرت فوق وعاء لنبتة صنوبر مقزمة، كان الوعاء متشققًا بسبب ضيقه على الجذور المحبوسة، وتسببت أنا بتحطيمه فانكشفت الجذور متجمعة معًا في عقدة ملتوية.

«يا ويحي، إن شأن هذه النبتة كشأن «هنانو المسكينة!» سوف يضيقون عليها الخناق مرة أخرى غدًا، ولن تتمتع تلك الصنوبرة ولا هنانو بالحرية أبدًا!».

---

(45). (Naraka) هو مصطلح هندوسي وبوذي، بمعنى «الجحيم» أو «المطهر» وثمة جحيم ساخنة وأخرى باردة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زيارة أختي

لم تعد أمي على ما يرام في ذلك الصيف. أمست نوبات الربو التي تعاني منها مؤخرًا أكثر تكرارًا وحدّة. فكتبت إلى أختي الكبرى، التي تعيش بالقرب من منزلنا القديم، أطلب منها القدوم إلى طوكيو، فزيارتها ستدخل السرور على قلب أمي، ليس لرؤية ابنتها وحسب، ولكن أيضًا لسماع أخبار جيرانها وصحبها القدامى. جاءت في غضون أسابيع قليلة، وكان مجيئها نعمة حقيقية لنا جميعًا. لقد كانت بمثابة سلوى لأمي، ومستشارة حكيمة لي، وموسوعة عن تاريخ العائلة المشوق لبناتي؛ إذ ليس أحب إليها من أمر كحبها لسرد حكايات بيتنا التي جرت في زمن طفولتها.

كنا نجتمع معًا كل يوم تقريباً من ذلك الصيف في الغرفة الكبيرة التي تفتح على الشرفة حين تغرب الشمس خلف السقف القرميدي لمنزل جارنا المرتفع، فتزحف ظلال باردة على حديقتنا. نصل واحدًا تلو الآخر، وكل منا يرتدي أخف أردية الكتان، وقد خرجنا للتو من حمام ساخن. تجلس أمي بهيئة مستقيمة وأنيقة على وسادتها الحريرية، بينما تجلس أختي، التي كانت أكثر عفوية، على الحصير البارد النظيف، وترمي الوسادة جانبًا. كانت سيدة جميلة. أستعيد صورتها الآن وكأنها أمامي، حين تجلس في مكانها بهدوء، وأثر من تموج في شعرها اللامع المقصوص، ووجهها الساحر الذي لا تبرحه ابتسامتها الرقيقة. بينما تجلس الطفلتان بين أختي وأمي، وتنشغل أصابع هنانو دائمة النشاط بصنع أكياس القماش الملونة من بقايا الحرير أو دمية ورقية لتشيو، التي تجلس ويداها الصغيرتان الجميلتان الخاملتان مطويتان على حجرها وتحدق في أختها بإعجاب.

اعتدنا على الجلوس ساعة لمناقشة أحداث اليوم الصغيرة، مثل الانجازات والاخفاقات في المدرسة، والمواقف اليومية المنزلية، وما يستجد من شائعات في الحي. بيد أنه، سريعا ما تحيد تلك المناقشات في النهاية عن الموضوع بأن يقول قائل ما شيئًا من قبيل: «أوه، يبدو أنه موضوع مشوق! هلا قصصتِ علينا خبره، من فضلك!»

«ها، نعم، تذكرت. أخبري الطفلتان عنه، من فضلك».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذات ظهر يوم أحد، ذكرت والدتي مسألة أن الكاهن قد اتصل بها ذلك اليوم لإقامة طقس من طقوس المعبد تعقده عائلتنا سنويًا يسمى «لأجل المجهولين»،

فتساءلت هنانو: لماذا سمي «للمجهولين؟ كم توحي هذه الكلمة بالوحشة!».

أجابت الأم: «إنها قصة حزينة، قصة بدأت منذ ما يقرب من ثلاث مئة عام ولم تنته بعد».

سألت فجأة، وقد تجلت لي ذكرى مشوشة للباب المغلق الذي لم يُفتح البتة: «ما علاقة تلك الحجرة الصغيرة في نهاية الردهة بقصة كيكونو؟ لم تجر أحداث القصة في ذلك المنزل، أليس كذلك؟»

أجابت أختي: «لا؛ لكن تلك الحجرة بُنيت فوق البقعة المسكونة مباشرةً».

ثم خاطبت أمي: «هل صحيح، أيتها الأم الفاضلة، أنه بعد أن احترق القصر قام شخص ما بزراعة أقحوان في الحديقة، وشوهدت أضواء خفيفة غامضة تسطع بين الزهور؟»

أسقطت هنانو الخياطة في حجرها، وحدقت الطفلتان في أختي بعيون متلهفة ومفتوحة على اتساعها.

ضحكت قائلة: «لقد تقرر مصيرك حتى وقت العشاء يا أختي، شمّت البنتان قصة، عليك أن تخبريهما الآن لماذا لم تستخدمي الوسادة المزينة بأزهار الأقحوان في المطعم ذلك اليوم».

ردت أختي بابتسامة يشوبها خجل: «قد أبدو غبيةً في نظرك، إيتسو-بو، بمُثلك التقدمية، لكنني لم أستطع أبدًا تجاوز اقتناعي بأن الأقحوان نذير سوء حظ لعائلتنا».

أجبت بتعاطف: «بل أفهمك»، كنت أشعر بنفس الشعور، ولم أتعاف البتة حتى انتقلت إلى أمريكا. اسم ماري شائع هناك مثلما يشيع اسم كيكو هنا، وقد ارتبط في ذهني بالقداسة والكرامة وحسب، حيث إنه اسم لأقدس امرأة في العالم. حتى

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن بعض الناس يتضرعون إليها. وقد دهشت غاية الدهشة حين سمعت، بعد وقت قصير من انتقالي إلى أمريكا، صاحب متجر يصيح بخشونة: «ماري، تعالي هنا!» فتركض إليه طفلة رثة الثياب ذات وجه قذر. بل وكان لجيراننا جارية جاهلة تحمل اسم ماري. لقد صدمني الأمر في البداية، لكنني أدركت في النهاية، أنه عندما نشكل روابط في أذهاننا بين الأشياء، فإن تلك الروابط سوف تتلاشى مع توسع المواقف.

قالت أختي بتؤدة: «يتعلم الناس النسيان عندما يسافرون، ولكن بقدر ما أستطيع أن أتذكر، لم تُجلب زهرة أقحوان واحدة إلى منزلنا البتة، ولم ترسم أو تنقش زهرة الأقحوان إطلاقًا على أبوابنا أو نوافذنا، أو على أطباقنا، أو على ملابسنا، أو مراوحنا؛ ورغم انتشار التسمية بأسماء الزهور الجميلة في عائلتنا، فإن اسم كيكو -الأقحوان- لم يحمله أي شخص من عائلة إيناجاكي إطلاقًا. ولن توظف خادمة بهذا الاسم عدا إن وافقت على أن يُطلق عليها اسم آخر أثناء إقامتها في منزلنا».

تساءلت الطفلتان: «لماذا؟ أوه، هلا أخبرتنا! ».

وهكذا، سمعت نفس القصة مرة أخرى - قصة سمعتها حين كنت طفلة، ولكن مغزاها ظل يتطور مع تقدمي في العمر حتى ترسخت في ذاكرتي باعتبارها القصة البطولية لساموراي مسن وشجاع اجتمعت بقلبه قوتان، قوة الحب العارم المعطاء، تقابله قوة الولاء القاسية والراسخة للواجب.

عاش جدي وهو السيد الأعلى في عائلتنا خلال الفترة التي فرضت فيها الحكومة على كل رجل من طبقته أن يمتلك جاريتين، وذلك لضمان إنجاب وريث ذكر تجنباً للمأساة التي لا يمكن تصورها والمتمثلة في عدم وجود خليفة، الأمر الذي يعني الفناء السماوي لأولئك الذين بلا وريث. تختار الزوجة الجاريتين بنفسها، ويجب أن تكونا من عائلات من نفس مستواها الطبقي، ورغم أن منزلتهن أدنى من حيث النفوذ إلا أنهن يتمتعن بنفس الشرف والكرامة التي تتمتع بها الزوجة.

كيكونو هو اسم جارية جدي الثانية. وكان سيدها في عمر والدها، ما من شك أنه وقع في حبها، إذ أن سجلات عائلتنا تشير إلى أنه أغدق الهدايا والتكريمات على أقاربها. بطبيعة الحال، لا يذكر اليابانيون إطلاقاً أي شيء سيئ عن أسلافهم، وفي

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغالب لا تكون القصص العائلية جديرة بالثقة، لكن هذا الرجل أجمع الجميع على الثناء عليه، وأنا أميل إلى تصديقهم.

قسمت بيوت الطبقة النبيلة، في تلك الأيام، إلى قسم منزلي، تديره السيدة، لا تقطنه سوى الخادمات من النساء، وقسم آخر خاص بالسيد، ويعمل به الرجال بالكامل واختير للمهام التي تتطلب دقة وبراعة فنية. مثل تقديم الشاي وتنسيق الزهور، مراهقون رشيقون يرتدون ملابس زاهية بأكمام واسعة جدًا كلباس الإناث وصفِفَ شعرهم على شكل تاج جميل ذي جوانب رقيقة.

حظي شاب واحد على وجه الخصوص من بين أولئك الخدم بمكانة لدى جدي، كونه ابن أعلى تابع له، فلا بد أنه كان يتمتع بمكانة اجتماعية، وخلفية ثقافية عالية. وعلى الرغم من الانفصال التام بين قسمي السيد والسيدة، غير أن بعض المهمات الرسمية أوجبت حركة تنقل يومية من الذهاب والإياب بين القسمين، علاوة على تشارك الرجال والنساء في تجمعات العمل أو الترفيه، ما أدى إلى لقاء الشاب الوسيم بكيكونو اللطيفة على نحو متكرر خلال تلك المناسبات. بينما لم يتجاوز عمرها السبعة عشر عامًا، فاقها سيدها بضعف عمرها، ولم يشغل تفكيره سوى الحرب ومسؤولياتها الفظيعة؛ فوقعت في حب الصبي الجميل ذي الصوت الناعم الذي استحوذ على قلبها بحلو حديثة عن الشعر والزهور. وتكررت حكاية لونسيلوت وجوينيفير المشهورة.(46)

ليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن أيًا منهما اقترف خطيئة بينة؛ لكن الفتاة اليابانية تربت منذ نعومة أظفارها على كبح جماح نفسها، وحينما تتزوج - والجارية بمثابة زوجة - يتحتم عليها أن تعيش دون أي اعتبار لذاتها البتة.

سمع السيد الشائعات، لكنه رفضها ووصفها بالسخافة. بيد أنه دخل في أحد الأيام إلى الغرفة الكبيرة المجاورة للمحكمة ووجد الاثنين يتهامسان بصوت منخفض وحدهما - وهو انتهاك لا يغتفر للآداب دون شك. كانت تلك وصمة عار بالطبع على اسم العائلة، ووفقًا لميثاق الشرف في ذلك العصر، لا يمكن محوها إلا بالدم، أو بعار أسوأ بألف مرة من الموت وهو طرد المخطئين عبر بوابة النهر والحكم عليهما بالنبذ.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رحم السيد العجوز الشابين فأعفاهما من خيار النبذ ومنحهما فرصة الموت بكرامة بحد السيف. اعترف كلاهما بعدالة مصيرهما. وذهبت كيكونو لتتأهب لمصيرها المحتوم، قام الشاب بإنزال سيفيه بمراسم طقوسية دقيقة وسحب ذراعه اليمنى من ثوبه الخارجي، مما كشف عن ثوبه الداخلي الحريري الأبيض. بعد ذلك، قام بفك الوشاح بسرعة، وأمسك بسيفه القصير، وجلس بصمت على الحصيرة.

لا أملك إلا أن أشعر بالشفقة على السيد المغدور حين أتخيله جالسًا أمامهما بصمت وصلابة. في حين أن قلبه يفيض بالمرارة والحزن والسخط، ولكن رغم صراعه الداخلي، كان عليه أن ينفذ واجبه كما يقتضيه قانون عصره الذي لا مفر منه.

ذهبت المسكينة كيكونو لوداع طفلها الرضيع وهو نائم بين ذراعي ممرضته وملامسته لمسة حب أخيرة، ولم تودّع أي شخص آخر. غسلت أحمر الشفاه عن شفتيها، وفكّت شعرها، وربطته بعقدة الموت الورقية، وارتدت رداء الموت الأبيض. ثم عادت إلى الغرفة حيث كان حبيبها وسيدها ينتظران بصمت. استكملت طقوس الآداب اليابانية الثابتة دون تردد. ركعت الجارية وانحنت بعمق، أولاً لسيدها المغدور، ثم للفتى الجميل المتزيّي بثياب صبية. جلست وولت وجهها نحو الغرب، وأخذت وشاحها الكريبي الناعم الطويل وربطت ركبتيها المثنيتين بإحكام. للحظة واحدة، جمعت يديها معًا، داخل مسبحة بلورية؛ ثم سحبت أحد معصميها، ورفعت خنجرها مسددة نصله نحو حلقها. لا ريب أن تلك الجارية قد شغفت سيدها حبًا فرغم كونه رجلاً حازما ومنصفا، إلا أنه صنع صنيعًا مذهلًا. انحنى بسرعة نحوها، وأخذ من يدها خنجرها ووضع بدله سيفه القصير. كان سيفه ذاك، إرثًا عائليًا ثمينًا مقدسًا يسمى «ماساموني» أهدي لجده من إياسو العظيم. وهكذا، ماتا كلاهما: الشاب، بشجاعة، مثل الساموراي؛ لكن كيكونو المسكينة مدت إحدى يديها حينما هوت، فاصطدمت بجدار الجص مخلفة لطخة أبدية.

أرسل جثمان الفتى إلى أسرته مع رسالة مجاملة مفادها أن وفاته حدثت بغتة. فهمت عائلته وتقبلت عدالة مصيره مثلما تقبله الفتى، ودفن في منتصف الليل، ولم يحيِ ذكرى وفاته الصامتة أبدا لا المعبد ولا عائلته بعد ذلك. أما الجارية فدُفنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمراسم شرفية عظيمة، تليق بوالدة السيد الصغير، ووزعت تبرعات ضخمة للجمعيات الخيرية تكريماً لها. وبعدها حزّم السيد زراعة زهرة الأقحوان أو التسمي باسم كيكو في داره. وأرسل اليتيم الرضيع، الذي حرمته أمه العابثة من مكانته وميراثه، إلى البعيد -حتى لا تنتقل أي وصمة عار إلى الجيل التالي- وحمل اسم العائلة طفل آخر ولد لاحقًا.

أغلقت الغرفة المتلطخة بالدماء، ولم تفتح أبدًا، إلى أن احترق القصر بعد حوالي مائتي عام. وعندما أزمع أبي على بناء داره المحترقة، حثه الكثير من أقاربه على ترك المساحة التي كانت تشغلها تلك الغرفة مفتوحة، لكنه رفض، قائلاً إن الأرواح الطيبة لأصحابه الأحياء دفعته للإيمان بطيبة أرواح الموتى. كان والدي رجلاً متقدمًا على زمانه. لكن الخدم لم ينسوا البتة. قالوا إن على الجدار الجصي للغرفة الجديدة نفس اللطخة الداكنة الغامضة ليد مبسوطة كما كانت على جدار الغرفة القديمة؛ وقد رووا الكثير من الشائعات عن الأشباح، مما اضطر والدتي أخيرًا، لأسباب عملية محضة، إلى إغلاق تلك الغرفة مجددًا.

تربى ابن كيكونو الصغير ليغدو كاهنًا وقام فيما بعد ببناء معبد صغير على قمة جبل سيدار. بُنيَ بحيث يلقي بظلاله على قبر وحيد مجهول يحرسه تمثال لإلهة الرحمة.

ولأن ذكرى المحبة والرأفة لا تموت، فإنه منذ ما يقرب من ثلاثمئة عام، هجع سلفي العجوز بسلام بين أهله في سريره الفاخر المطلي باللونين القرمزي والأسود؛ واستمر أحفاد الرجل الذي صان شرفه لمدة ما يقرب من ثلاثمئة عام، يقيمون كل عام طقوسًا مقدسة في ذكرى «المجهول» احترامًا لأمنيته القلبية غير المعلنة.

---

(46). أسطورة رومانسية تراجيدية، وهي جزء من أسطورة الملك آرثر.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

سيدة اليابان التليدة

كنا نخيط أنا وأختي في غرفتي بعد ظهر أحد الأيام، عندما دخلت هنانو. وقد رُفعت الأبواب الورقية بسبب اعتدال الجو، وغدت واجهات الغرف أمام الحديقة مفتوحة بالكامل، وصار بوسعنا أن نلقي ببصرنا عبر الحديقة إلى حيث تجلس أمي بجوار مدفأة غرفة الطعام، ممسكة بغليونها الطويل المستدق في يدها، تحدق في الحديقة وهي سارحة بخيالها للبعيد.

قالت أختي: «أمي سعيدة هنا، تتجلى على وجهها سكينة وهدوء بوذا العظيم».

سألت هنانو بتمعن: «أتساءل عما إذا كانت الجدة الموقرة ظلت متحمسة بقوة وبشدة حقًا طوال حياتها».

نظرت أختي إلى هنانو بابتسامة غريبة قائلة بتؤدة: «لم أر الحماس على محياها أبداً، لقد مررنا بوقت عصيب ونحن نغادر بيتنا القديم، غير أن السكينة والثبات لم يبارحا أمي، وأعطت أوامرها كجنرال في ساحة المعركة».

صرخت هنانو وهي تجلس بشكل مستقيم: «أوه، أخبريني!، أخبريني بكل شيء عنها».

فخاطبت أختي: «نعم، لا بأس ها قد كبرت هنانو، وصار بوسعها أن تفهم، أخبريها بكل ما تتذكريه من حياة أمنا».

ثم وصفت كيف رفعت أمي، إلى محفة زفافها، ولم تبلغ من العمر سوى ثلاثة عشر عاما لتنتقل إلى بيتها الجديد عبر موكب طويل من التابعين، بقيادة حملة الرماح يتبعهم حراس والدها. شغل أبي حينها منصب المستشار الأول للدايميو، وأتت عروسه إلى قصر غاية في الاتساع، لدرجة أن قدمها لم تطأ بعض الغرف فيه البتة طوال إقامتها فيه. ولأن زوجها كان كثير السفر إلى العاصمة للقيام بمهام وظيفته كمستشار، فإنها لم تقض الكثير من الوقت معه، وبدلاً من ذلك، كانت تقضي وقتها في كتابة القصائد على بطاقات رفيعة من الذهب والفضة أو اللعب بالدمى مع الحشم. فعلى أية حال، لم تكن حينها سوى طفلة صغيرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبمضي الزمن أنجبت صبيًا وابنتين. ولم تكن البنات الصغيرات، مع وجود المربيات اللائي يحملن عبء رعايتهن عنها، سوى دمى جميلة في عينيها؛ أما الصبي، الوريث الذي سيحمل اسم العائلة، والمحاط بالعديد من الحشم والواجبات المختلفة لدرجة أنها لا تراه سوى في فترات محددة، فقد شعرت بمحبة كبيرة تجاهه، كما لو كان لؤلؤة نفيسة، لكن شعورها بالفخر كان الأعمق. وهكذا قضت الزوجة اليافعة سنوات ممتعة هادئة في ذلك القصر الكبير.

ثم تبدلت الأحوال، وتكثفت سحب الحرب فوق البلاد رويداً رويداً. وأخبرها زوجها شيئا فشيئاً الكثير من جسام الأمور، وفي يوم من الأيام غادر المنزل في مهمة ملأت قلبها ذعراً. ورغم أنها بالكاد تجاوزت سن المراهقة، إلا أنها كانت ملمة تماماً بواجبات زوجة الساموراي. بانت عليها فجأة علامات الرشد، حيث استدعت معلم ابنها وقاما بتنكيره في ملابس رثة لعلمها أن حياة ابنها الوريث ستكون عرضة للخطر إن تعرض والده للأذى، فأرسلته إلى معبد أجدادنا على الجبل ليكون بأمان، في رعاية مينوتو المخلص.

انتظرت، وهي تشاهد السحب تزداد قتامة شيئًا فشيئًا يوماً بعد يوم، وفي إحدى الليالي المظلمة الممطرة، أتى أحد المحاربين إلى منزلها حاملًا لها أخبارًا بأن والدي قد أسرَ وسيُأخذ إلى العاصمة. وعند منتصف الليل، حينما يدق جرس المعبد، سيمر عند سفح الجبل في طريقه، وقد مُنح إذنًا بملاقاتها هناك.

تساءلت ماذا لو كان هذا فخاً.. ماذا سيحدث لابنها؟ نظرت إلى الرسول بثبات وسألته: «هل أنت ساموراي؟»

فوضع الرجل يده على مقبض سيفه بجدية وأجابها: «بلى، أنا ساموراي»

فأضافت: «سواء أكنت صديقًا أو عدوًا، إذا كنت ساموراي، فأنا أثق بك».

ورغم أنها وثقت به، إلا أن الوضع كان خطيرًا، فعمدت إلى غسل شعرها وارتداء رداء الموت الذي سترته بلباسها المعتاد. وأخفت خنجرها داخل نطاقها ورَجَت خادمها المخلص يوشيتا أن يبقى مخلصًا لسيده الصغير مهما حصل، وأخبرت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرسول بأنها مستعدة.

شقا طريقهما في ظلمة الليل وتحت المطر. سارت أمي برداء الموت المستتر خلف المحارب بدرعه المبتل اللامع على ضوء الفانوس. سارا عبر شوارع مهجورة وممرات متعرجة عبر حقول الأرز المنعزلة حتى وصلا إلى الطريق الذي يلتف حول سفح الجبل، وانتظرا هناك.

بعد برهة، تراقصت أضواء في العتمة، وصار بوسعهما سماع الضربات الخافتة الرتيبة لأقدام الحمالين المهرولة، مقتربة أكثر فأكثر، ثم توقف الجمع ووضعت محفة مغطاة بشبكة من الحبال على الأرض ووقف على كل جانب منها محارب. تراجع الحمالون إلى الخلف، رفعت أمي رأسها فرأت وجه أبي الشاحب وهو يحدق بها من خلال نافذة صغيرة مربعة. وقطعت بينهما رماح المحاربين المتقاطعة. سادت لحظة من الصمت، ثم تكلم أبي:

«زوجتي، أستأمنك على سيفي».

تلك العبارة هي كل ما قاله، فقد عرف كلاهما أن الآذان المصغية تترصد كلمة «ابن». ردت عليه أمي بانحناءة وحسب، إنما فطن أبي إلى أنها فهمته.

أنزلت ستارة القصب أمام وجه السجين، ورفع المحاربون رماحهم، ورفع الحمالون أعمدة المِحفَّة إلى أكتافهم، واستأنف الموكب الصغير طريقه في الظلام. رفع المحارب الذي وثقت به رأسه المنحني واتجه نحو حقول الأرز، وتبعته أمي المسكينة، مدركة لما ترك على عاتقها من أمانة مقدسة؛ لأن ما عناه أبي عبر تلك الكلمات القليلة كان: «الموت أمامي. إنني أضع ثقتي فيك، كوني حريصة على ابني، ليحمل اسم إيناجاكي ويضمن الخلاص السماوي لمئات من الأسلاف».

أُثقِل كاهل أمي بالارتياب المقلق مرة أخرى، حين وصل رسول في إحدى ليالي الخريف وأبلغها أن فرقة كبيرة من الجنود تتقدم نحو ناجاوكا عبر السهل. كانت تتوقع حدوث ذلك، لذا أصدرت الأمر بهدوء وشجاعة بتجهيز المنزل بأكمله للضيوف الكرام. وضعت أندر الأشياء على التوكونوما، وعلقت أغلى الصور، وطلبت من الخدم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتابعين أن يخرجوا عبر البوابة الخلفية ويتفرقوا في اتجاهات مختلفة.

أختي لم تكن سوى طفلة في السابعة من عمرها، لكنها تتذكر تفاصيل تلك الليلة الفظيعة بحذافيرها. أيقظنها المربيات الخائفات هي وأختها الصغيرة، فغيرن لهما ملابسهما ونطاقيهما بعجلة. لأنه حتى في حالة العجلة والخوف، فإن النطاق رمز الفضيلة لدى جميع الفتيات اليابانيات ولا يمكن لخادمة عائلة الساموراي المؤتمنة إغفاله. ثم قطعن جزءًا من الطريق إلى أعلى الجبل، ومكثن هناك في حلكة الليل ينتظرن أمي، التي جاءت تمشي مشيًا وئيدا تصحبها الجدة الجليلة وخادمان.

لاحت ابتسامة باهتة على وجه أختي وهي تحكي كيف بدا حال جدتي الجليلة وأمي أثناء سيرهما على طول الطريق الضيق وهما متنكرتان في ملابس مزارعين. ظل معطف القش الذي ارتدته جدتي الجليلة ينفك فيظهر لباسها الأرجواني، الذي كان نوعًا خاصًا بالسيدات المسنات من طبقتها، والذي رفضت بإصرار خلعه، فلم تكن لتمشي وأصابع قدميها مكشوفة مثل الفلاحات.

رجعت أمي إلى القصر بصحبة يوشيتا، تاركة الجدة معهن على سفح الجبل، تمكنوا وهم ينتقلون من مكان إلى آخر في الجبل، أن يشاهدوا الاثنين يحملان مشاعل من لفائف الورق؛ حيث كوم يوشيتا القش، وأشعلته أمي بالمشعل الذي بيدها عازمة على إحراق دارها. جلست جدتي الجليلة ساكنة، تحدق في الفراغ أمامها، بينما ركع الخدم على الأرض، يميسون يمينًا وشمالًا، ويبكون ويندبون. ثم جاءت أمي، بشعر أشعث ووجه لطخه الدخان، تشق طريقها بصعوبة، وحين لاح ضوء الفجر الشاحب ألبست الفتاتين الصغيرتين ملابس الخدم من صرة على ظهر يوشيتا، وطلب من المربيات أن يأخذن الفتيات إلى مكانين مختلفين وآمنين. كان الخدم محلًا للثقة في تلك الأيام. أعطيت كل مربية خنجرًا وأمرت أن تستخدمه في حالة أن صار وقوعها في أيدي العدو أمرًا لا مفر منه. لا تزال عائلات المربيات المخلصات تحفظ باعتزاز تلك الخناجر الحاملة لشعارنا.

وذكرت أختي أنه مر وقت طويل قبل أن تلتقي بأمها من جديد. أخذتها مربيتها إلى بيت أحد المزارعين، حيث شاركتهم حياتهم ولبست ملابسهم، بينما عملت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مربيتها في حقل الأرز يدأ بيد مع زوجة المزارع. وذهنت كل ليلة، بعد استحمامها، بعصير داكن مستخرج من ثمار البرسيمون البرية -لأن بشرة سكان القلعة أفتح لونًا من بشرة الفلاحين- وأوصيت بأن تتكلم لهجة الأطفال الذين تلعب معهم. تلقت المعاملة ذاتها كحال أي فرد منهم، غير أنها كانت دائمًا أول من يُخدم. وأوضحت أختي: «أعرف الآن أن المزارع قد راودته الشكوك حول هويتي، لكننا لم نتعرض للخيانة لأننا كنا في إحدى المناطق التي منح والدي زعيمَها حق الحصول على سيفين. ونعمت أختي الصغيرة بالأمان في مكان آخر مماثل».

في هذه الأثناء، كانت الجدة والأم الموقرتين، في رعاية يوشيتا، جميعهم بملابس الفلاحين وقبعاتهم الواسعة المتهدلة، يتنقلون من مكان إلى آخر، ويقيمون مرة في الجبال، ومرة مع عائلة أحد المزارعين، ويلوذون مرة إلى ملجأ في المعبد لبضعة أسابيع. استمر ذلك الوضع الصعب لأكثر من عامين؛ لم يتوقفوا عن الاختباء ولم تتوقف مطاردتهم الدائمة؛ فعلى الرغم من أن أبي كان في قبضتهم، إلا أن نصر أعدائه لن يكتمل إلا بعد أن يقضوا على عائلته بالكامل ويمحوا اسمه إلى الأبد.

تابعت أختي: «قدمت أمي أخيرًا إلى المزرعة التي أقمت فيها. ولم أميزها حين رأيتها إذ غدت، نحيفة للغاية، وبالغة السمرة، وبحالة مزرية، فصرخت. وأحضر مينوتو أخي تلك الليلة. وأخبرنا أن الصبي أدخل السجن مع أبيه لعدة أشهر بعد أن سلّمه الكاهن لينقذ حياته. وكان كلاهما على وشك الإعدام حينما أصدر بيان يعلن نهاية الحرب والعفو عن جميع السجناء السياسيين فنفدا من الموت. بدا لي أن أخي ربما نسيني ولم يتكلم معي، لكنني سمعته يخبر أمي أنه وفي يوم من الأيام، شوهد جنود يصعدون الجبل، فعمد الكاهن حالاً إلى وضعه في صندوق للكتب، وستره بلفائف من الكتابات المقدسة، وترك الغطاء جانبًا وجلس بجانبه كأنه منهمك بترتيب الأوراق. وأخبرنا أخي، أنه سمع صوت خطوات عنيفة وضجة لسقوط أثاث، وعندما ساد الهدوء وأُخرجَ من مكانه، رأى الصناديق المغلقة التي كانت بجوار الصندوق الذي خبئ فيه وقد خرقت بالرماح.

وفي اليوم التالي، وجد يوشيتا مكانًا لنعيش فيه بعد أن أعادت أمي لم شمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عائلتها وعاد أبي، وباشرنا حياتنا من جديد».

قالت أختي: «لذا، كما ترين يا هنانو، لم تكن حياة جدتك دومًا مليئة بالسلام»

قالت هنانو بنبرة تملؤها الدهشة: «لقد كانت حياة رائعة، رائعة ورهيبة. لكن الجدة الجليلة أحسنت التدبير! أوه، يا لإحسانها التدبير»!

حدقت في الصبية الشابة النحيلة، في يديها المشدودتين بقوة ورأسها المرفوع. كم تشبه أمي. جيل جديد تناءى عن الكبرياء الغابرة والمران الصارم؛ جيل جديد يستبق الحرية القادمة؛ ومع ذلك، فواحسرتاه، ها أنا أعيش في الحاضر الكئيب – تعتصرني الحيرة، وسوء الفهم، والوحدة!

لم تبارحنا أختي طوال فصل الخريف وحتى الشتاء. سأبقى ممتنة أبداً كل الامتنان لبقائها معنا، إذ أن تلك الأسابيع التي قضيناها بسعادة كانت هي الأسابيع الأخيرة من حياة أمي. لا يفصل بين أمي وأختي من العمر سوى أربعة عشر عامًا ولأن أختي تقليدية تمامًا مثل أمي، فإن المحادثات المطولة بينهما خلال الأيام الماضية، كانت أقرب إلى أحاديث الصديقات منه لحديث أم وابنتها. وعندما جاءت اللحظة الحزينة، منحني وجود أختي عزاءً حقيقًا لأنها كانت على دراية بجميع العادات القديمة ولديها قدرة الإرشاد بحنان لا يمكن لأي شخص آخر أن يهبه. أثناء رحلتنا الحزينة إلى المعبد، وبينما كنا نتبع الجنازة وهي تتمايل على أكتاف العمال ذوي الرداء الأبيض، عادت أفكاري إلى يوم آخر قبل فترة طويلة، عندما كنت طفلةً في الحادية عشرة من عمري، أسير في موكب من الأصدقاء في حالة حداد، تتشبث يداي الصغيرتان بقوة باللوحة التي تحمل اسم والدي. مشينا خلف الكهنة المرتلين على الممرات الضيقة لحقول الأرز، بينما انهمرت علينا من الأعلى، مئات القطع الصغيرة من الورق المقدس ذي الألوان الخمسة، تسيل من السلال التي يحملها الخدم على أعمدة طويلة، فامتلأ الهواء بسحب من الألوان الناعمة، تطفو وتختلط وتنساق إلى الأسفل حيث تستقر بلطف على قبعات وأردية المشيعين ذات البياض الجنائزي.

تغير كل شيء الآن. وخضعت حتى طرق إكرامنا لموتانا لتغيرات هذا العالم، وقد ودعت أمي بطقوس بسيطة قدر الإمكان لتعكس رتبتها السابقة. وقد أوصت، بأن

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

تقام إلى جانب طقوس وداعها، طقوس لذكرى «المجهولة».

والدتي النبيلة والمخلصة! الوفية لزوجها ولعائلة زوجها، حتى وهي على أعتاب الموت، تذكرت كيكونو المسكينة، التي لم يُصلّ من أجلها البتة غير هذه المرة الوحيدة. وبما أن أخي، وهو رب أسرتنا، غدا مسيحياً، أدركت أنه لن تقام لها طقوس ذكرى مرة أخرى.

انشغل بالي وأنا أنصت للنغمات الهادئة الباعثة على السكينة، والمصحوبة بالدمدمة الإيقاعية للطبل الخشبي، بحياة والدتي اللطيفة التي اتسمت بإخلاص لا يتزعزع تجاه أسمى معتقداتها، تساءلت ما هي القوة التي صيرتها قوية وصادقة. ثم أدركت شيئا فشيئا، أن الموسيقى الهادئة أخذت تتماهى في ترنيمة حزينة غريبة حاملة أفكاري نحو الروح البائسة التي ضلت طريقها إلى الجنة بسبب خطيئتها العظيمة. وهكذا، مرة أخرى، جلس أحفاد السلالة التي دنست التائهة اسمها، وانحنوا بتواضع، بينما كان الكهنة يتلون الصلاة متوسلين الهداية للتائهة في طريقها الموحش.

رفع الكهنة صنوجهم فوق رؤوسهم، وعندما اقتربنا من الوقفة الموسيقية حيث ينشد رئيس الكهنة مقطع وصول الموتى إلى أبواب السماء لالتماس الرحمة، ضربوا صنوجهم بلطف، فخلقت إيقاعًا طويلًا اهتزازيًا مصاحبًا لدوي الطبل الخشبي الخافت والرقيق. كونت الأكمام الواسعة دوامة من اللون الأرجواني والقرمزي والذهبي أمام عيني المبللتين. وحين أنصتُّ إلى صوت التضرعات الباكية والتوسلات المختلطة بلفائف دخان البخور التي ما فتئت تتسامى لأكثر من ثلاثمئة عام، تساءلت عما إذا كان إله الانتقام الذي لا ينسى سيستجيب لهذا الرجاء الأخير لطلب المغفرة لمن أذنب منذ زمن غابر، حتى ولو من باب الشفقة على أمي ووفائها الخالي من الأنانية.

انحنيت آخر مرة لجثمان أمي العزيزة عند باب المعبد، ووقفت والألم يعتصر قلبي أراقب الكاجو المتمايل بسقفه المنحني وأزهار اللوتس المذهبة وهو يختفي عند منعطف الطريق المؤدي إلى منطقة حرق الجثث، ثم عدنا إلى دارنا الموحشة،

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتركت الشموع مشتعلة لمدة تسعة وأربعين يومًا، وتصاعدت تموجات البخور العطرية عبر منحوتات الركن المقدس الصغير ذي الخشب الأبيض. ركعت في الليلة الأخيرة في ركن والدتي القديم وتضرعت بصلاة مسيحية إلى الرب الذي يتفهم. ثم أغلقت الأبواب المذهبة بتمهل على صلاتي، معتقدة اعتقادًا راسخًا أن رحلة أمي قد انتهت بسلام؛ وأنها، أيما فعلت وأينما كانت، فإنها أدت دورها بإخلاص في إرادة أقدار الرب العظمى.

انزعج القسيس الذي يرعاني غاية الانزعاج لأني ألزمت نفسي بمراعاة تلك الطقوس البوذية الأخيرة والتي يراها غير ضرورية، طالما أن والدتي لم تعد ترى ولا تشعر بأي أذىً في حالة أن أهملت تلك الطقوس. أخبرته أنه لو كنت أنا من مات، ولو بعد يوم واحد من اعتناقي للمسيحية، لأخلصت والدتي لما يرضي روحي، ولسعت إلى دفني وفق الطقوس المسيحية متحرية أدق التفاصيل؛ وأنا ابنة أمي، ومتأثرة بها، نعم، وكلانا مخلصات ورحيمات ومتفهمات؛ وذلك أثر من صفات الأب الأعلى أبينا عليّ وعليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البقرة البيضاء

عندما بلغت هنانو الخامسة عشرة من عمرها، أثار مجلس العائلة الموضوع الذي كنت أخشاه كثيرًا. فوفقًا للعادات اليابانية، وحين يكون للعائلة بنات وحسب، عليها أن تتبنى ابنًا ليحمل اسم العائلة ويزوج بالابنة الكبرى، وبذلك يبقى اسم العائلة حيًا، أما مسألة اختيار ابن لي، فقد تصرفت حيالها بلباقة قدر الإمكان، غير أنه بعد رفضي لعرضين أو ثلاثة، أدركت أنهم يتوقعون مني حينها اتخاذ قرار عاجل.

إذا رامت امرأة يابانية صون كرامتها ومكانتها، فلا ينبغي لها أبدًا أن تكثر الكلام حول أي موضوع. وأنجع أشكال التعبير فعالية هي الأفعال وليست الأقوال؛ ولكن حان الوقت الذي يستوجب مني الكلام. ذهبت إلى المجلس متسلحة برسالة تحمل مقترحات حكيمة في يدي من والدتي الأمريكية المخلصة، والتمست الإذن من المجلس لإعادة بناتي إلى داري السابقة ليستفدن من بضع سنوات أخرى من الدراسة. أثار طلبي جدلاً حاميًا، بيد أن لدي الآن أصدقاء في المجلس، من عائلة ماتسو ومن عائلتي على حد سواء، وقد أدى التزامي القوي السابق بقراراتهم إلى مكافأتي مكافأة مذهلة، فقد تمت الموافقة على التماسي مرة أخرى. فغمر قلبي الامتنان وطربت روحي فرحًا، وبدأت استعداداتي للعودة إلى أمريكا.

شغل تشيو سؤال واحد أثناء استعدادنا للرحيل وهو ما إذا كنا سنكون سعداء أم حزانى. فقد كانت مسألة ترك أصدقائها الصغار ومدرستها التي تحبها، والعودة إلى المكان الغامض الذي لا يتضح لها منه سوى «الجدة الأمريكية»، أمرًا مقلقًا، إلا أن فرحة هنانو كانت كبيرة. رغم هدوئها، فقد انشغلت في كل لحظة، تتحرك بخطوات خفيفة وسريعة وتغني بهدوء طوال الوقت؛ وكلما نظرت إليها رأيت ابتسامة مشرقة على محياها. وخطر ببالي، وأنا أراقب وجهها البهيج طوال أسابيع التجهيزات، إنه، حتى لو حدث أمر مروع ولم تتمكن البتة من الوصول إلى البلد الذي استوطن حبه قلبها، فلابد أنني سأكون دومًا ممتنةً، على أي حال، لأجل الفرح الفائض بالطمأنينة في موسم الأمل ذاك. ولا يمكن لأي شيء أن يمحي تلك الذكرى السعيدة.

مرت أسابيع حافلة، وأخيرًا جاء الصباح الذي أعلنت فيه البنتان، اللتان كانتا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبسطان أصابعهما لحساب الأيام بسعادة، أنه لم يتبق من الأيام سوى عدد أصابع يدين مبسوطتين، عشرة أيام! أوشكنا أن نكمل تجهيزاتنا، ولكن مهما بذلنا من جهد للتخطيط، تبقى دومًا بعض الأشياء غير كاملة فنضطر لتأجيلها إلى الأيام القليلة الأخيرة المكتظة.

لطالما نويت أخذ بناتي إلى ناجاوكا إذ لم يسبق لهن الذهاب وكم من المرات خططت لذلك، لكن أشغلتنا الحياة، وفي كل مرة يظهر ما يعيق ذهابنا. بيد أني لم تطاوعني نفسي أن نغادر اليابان من دون زيارة بناتي للمكان الذي ترقد فيه جدتهن بجوار زوجها بين قبور أجدادنا(47)؛ لذلك، انطلقنا ذات صباح باكر من أيام الربيع.

كم تختلف رحلتنا هذه عن رحلتي بصحبة أخي قبل سنوات، نحو طوكيو للدراسة! فبدلاً من الرحلة التي استغرقت عدة أيام، قضيناها، مرة على سرج خشبي عالٍ، ومرة مندسين براحة داخل كاجو متأرجح، ومرة أخرى تتقلقل وتتمايل بنا الجينريكشا على طول الطريق الوعر، لم تستغرق رحلتنا هذه سوى أربع عشرة ساعة من الجلوس المريح على متن عربة صغيرة سريعة في قطار للسكك الحديدية، يشق طريقه صعودًا إلى الجبال، عبر ستة وعشرين نفقًا تعرض جانبًا من أرقى هندسة في العالم. تتجلى بين كل نفق مظلم وآخر إشراقات ترحيبية من سفوح التلال المشرقة التي تنتشر عليها حقول الأرز، وطريق ضيق متعرج أتذكره بوضوح. بحلول وقت الشفق وجدنا أنفسنا على رصيف المحطة في بلدة مزدحمة ذات تلال تغطيها الأبراج الهيكلية للعديد من آبار النفط. لقد أحطتُ بهذه التغيرات، لكن عقلي لم يستوعب مدى التغيرات التي طالت ناجاوكا فغيرتها عن ناجاوكا التي عرفتها في الماضي.

أسعدني أن ترى طفلتاي المدينة لأول مرة خلال موسم أزهار الكرز، وإلا لأصابتهن الخيبة، لأن المباني بدت حتى بالنسبة لي أصغر حجمًا والشوارع أضيق مما صورتها لهما في قصصي. ذلك لولا التوهج والنضارة التي انعكست على جدرانها الجصية، وازدهت بها ساحة المعبد، وتجلت على الأغصان الملونة للأشجار المصطفة على الشوارع. حمل نسيم الهواء الخفيف رائحة البتلات الوردية الشبيهة بالأصداف التي هطلت بلا توقف، أو تطايرت على الأسطح المنحدرة لسقائف الثلج التي تدلت فوقنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الأرصفة في صباحنا الأول أثناء سير حمالي الجينريكشا الوئيد على طول الطريق الغريب وغير المألوف إلى تشوكوجي.

قلت لنفسي متحسرة: «يا لحبنا لهذه الأشجار الجميلة غير المثمرة، وهي رمز لفارسنا المحتضر!»؛ وبعد ذلك نظرت نحو التل حيثما كانت تنتصب القلعة، وتجلت لي التماعة من الرضا والمواساة. إذ لا تزال روح الحراسة العتيقة تستوطن الأطلال، حيث يرتفع برج نار ضخم بمنصة عالية وصافرة إنذار على صخور الأساس.

لم يعد البيت القديم قائمًا. تمنيت أن يعود أخي بمرور الزمن ويقضي شيخوخته في منزل طفولته؛ إذ أن زوجته الصغيرة اللطيفة التي تزوجها في أواخر منتصف عمره لم تحيا طويلًا بعد أن أنجبت وريثًا لعائلة إيناجاكي، ثم ودعت الحياة بلطف كلطف حياتها القصيرة الوادعة. لكن كل اهتمامات أخي كانت منصبة على المدينة البعيدة وسط أزيز المصانع والحياة الحديثة التقدمية، ولم يكن لشيء أن يشغل عقله بخلاف تعليم ابنه.

لذا تولت آلهة المنفعة والتجارة زمام الأمور، ونقلت جميع ممتلكاتنا التي فقدت قيمتها إلى مستودع بيت أختي. لقد انتقل جيا وإيشي بعيدًا، وينتصب الآن، بدلاً من المنزل الكبير المتزعزع بسقفه المتدلي وذكرياته الرقيقة، مبنى أجنبي قبيح هو (المدرسة العادية للبنات). حتى شجرة الكستناء القديمة التي رقد تحتها قبر شيرو، وميدان الرماية، حيث كنت أشاهد أبي والسيد تودا في الغالب، وكل منهما قد نزع كمه الأيمن كاشفًا عن كتفه العاري، في لعبة منافسة صعبة، ولكن هزلية، تحول إلى فناء مدرسة واسع مرصوف بالحصى، حيث الطالبات العصريات يسرن ويتدربن بتنانيرهن ذات الثنيات وأحذيتهن الأجنبية. فطر كل ذلك فؤادي وبدا لي أمرًا بالغ الغرابة! ولكني أيقنت في الوقت نفسه، أن هذه التحولات تنبئ بمستقبل مزدهر وواعد، ولم أكن لأثبط العالم عنه؛ لكن كل مؤنسات الماضي الهادئة وحياة الماضي الخلابة قد اندمجت في حاضر بدا رخيصًا ودنيئًا. وصار من الصعب عليّ خلال أيامي القليلة في البلدة القديمة أن أحافظ على ذكريات العادات والمثل القديمة الجميلة من أن تطغى تمامًا على المسار التقدمي الجديد الذي كنت أسعى إلى اتباعه.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

حالما أوفينا بواجب المحبة والاحترام تجاه أحبائنا، اصطحبتنا أختي، التي قدمت إلى ناجاوكا لاستقبالنا، إلى منزلها فوق الجبل على بعد بضع ساعات بالجينريكشا. يقع منزلها في قرية صغيرة عجيبة، حتى أنها تراءت من الوادي بالأسفل كما لو أن مدينة مصغرة ذات جدران من الجبس وأسقف من القش قد ثبتت على الناحية الخضراء من الجبل. فالحافة التي تمتد عليها القرية بطول شارع واحد ضيق للغاية. غادرنا الوادي، وكل منا يرفع محفته حمالان من الأمام وحمال في الخلف. صعدنا صعودًا شديد الانحدار على طريق متعرج تمتد منه، على كلا الجانبين، مسارات طويلة ومتساوية من الأشجار الكثيفة. توقف الرجال بين فينة وأخرى، يتأهبون، ويضعون الأعمدة على فخذهم ويمسحون وجوههم المتعرقة. قال أحدهم وهو يبتسم ويشير إلى الوادي: «يا له من تسلق شاق، إنما رؤية المدرجات الخضراء قبالة الصخور البنية الكبيرة، وزرقة السماء المشمسة تنعكس بصورة متقطعة في الجدول المتموج أسفلها لأمر يستحق العناء». قال آخر: «في الواقع لا يرى سكان المدينة سوى شوارع ممهدة وأسقف مترية تعلو الجدران أو الأسوار الخشبية. كم أشفق عليهم».

ثم انطلقوا - يلهثون إنما يغمرهم الرضى.

سألت هنانو حين وقفنا لنستريح: «ما هذه الشجيرات القصيرة الملتوية ذات الجذوع الرمادية والممتلئة ببراعم صغيرة غضيضة؟»

أجابتها أختي: «إنها أشجار التوت. هذه منطقة ثقافة الحرير، والجبل مغطى بمجموعات الشرانق. يوجد في كل بيت هنا تقريبًا إطارات خشبية مملوءة بصواني دود القز، وفي الأيام الهادئة بوسعك سماع حفيف انهماكها بالأكل وأنت تسيرين في الطريق».

بدا ذلك مشوقًا حقًا للأطفال، وأثناء سيرنا، ظلت الفتاتان تهتفان بالأسئلة والتعجب كل منهما للأخرى حول دودة القز ونظامها الغذائي القائم على أوراق التوت، حتى انتهى صعودنا الطويل بمسار قصير شديد الانحدار ومنعطف مفاجئ إلى طريق واسع، فظهرت المنازل المنخفضة ذات الأفاريز الواسعة. وفي الطرف

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الآخر يقف منزل القرية الكبير؛ منزل أختي. ارتفع سطحه القشي ذو اللون الأصفر المائل إلى البني على جدار من الحجارة المستديرة يعلوه سياج من الخشب، كالذي يحيط بمنزلي القديم في ناجاوكا، حيث أثار ذلك المشهد أثرا من وجع الحنين إلى الوطن في قلبي.

خرج الخدم بسجايا أهل الريف الودية، حتى البوابة الخشبية الكبيرة، وبينما كانت الجينريكشا تتمايل بين صفين من الأشخاص المنحنين، سمعت همهمات من التحية المعهودة القديمة، «يا كايري أسوباسي»، أي «أهلا بعودتكم»!

تراءى لنا المنزل هادئا ومريحا للغاية بعد رحلتنا الطويلة المتعبة، كما أن المغتسل الساخن المهيأ دائمًا في اليابان القديمة لاستقبال الزائر المرتقب أنعشنا وأراحنا. عدنا أنا والبنتان للتو إلى غرفة المعيشة، وجلسنا براحة على الوسائد الناعمة، ناظرين عبر الشرفة مباشرة إلى السماء الزرقاء، والوادي والعالم من خلفه بعيدين تحتنا، ثم قدمت خادمتان أحضرتا لنا الطعام على طاولات صغيرة أنيقة لتناول طعام الغداء.

حالما وصلت أختي سارعت بالاعتذار: «سيتعين عليك أن تستغني عن اللحوم. فلا اللحم ولا الخبز يتوفر لنا هنا، ليس سوى الدجاج والخضروات من مزرعتي، والأسماك من الجداول الجبلية».

أجبتها: «لا يهم، البنات يفضلن الأسماك والأرز؛ وأنت تعلمين أنني طالما أحببت كل شيء أخضر. هل نسيتِ (البقرة البيضاء)"؟

ضحكت أختي، وسألت هنانو، التي كانت دومًا في حالة تأهب لسماع قصة ما: "ما قصة البقرة البيضاء؟»

وهكذا، أثناء تناولنا للطعام، روت لهن أختي قصة وقعت أحداثها في سنوات طفولتي الباكرة، لدرجة أني لا أتذكر منها سوى ما أخبرني به الآخرون.

استهلت قائلة: «لم تكن والدتك في طفولتها على ما يرام، غير أنها، لم تكن عليلة. وفي ذلك الوقت، اعتاد العديد من أهل ناجاوكا، على مشورة كاهنة ضريح شنتو صغير خارج المدينة مباشرةً حين تستبد بهم الحيرة والعجز بشأن مسألة بالغة

الأهمية. حثت جدتي الجليلة أبي أن يرسل في طلب تلك الكاهنة. ومنعت إتسو-بو من تناول حساء لحم الحوت، أو البصل، أو أي طعام ذي رائحة لمدة يومين قبل وصولها، وقد وجهت بعناية لتكون بالغة اللطف، سواء في سلوكها أو حديثها.

غمرتها إيشي بالماء البارد في الصباح الباكر لليوم المرتقب. ثم ألبستها ثوبها وقادتها إلى غرفة جدتها الجليلة. وقد حضر جميع أفراد الأسرة، ومجموعة من القريبات. بدت إيتسو-بو رائعة الجمال وهي تدخل إلى المنزل ممسكة بيد أمها. انحنت أمام الجميع، وأجلستها أمها على الحصيرة بجوار جدتها الجليلة، متقدمة علينا قليلًا. غطيت التوكونوما بحصيرة من القش وزينت بكافة رموز الشنتو المقدسة. جلست الكاهنة في مقعد الشرف بكل تأكيد. كانت ترتدي ثوبًا ناصع البياض، وتدلى شعرها الأسود على ظهرها، معقودا خلف كتفيها بشريط من قش الأرز، تتدلى منه شرائط متعرجة من ورق الشنتو الأبيض. وحالما جلست أمي وإتسو-بو، سجدت الكاهنة المقدسة مرتين أو ثلاث مرات؛ ثم رفعت من التوكونوما عصا من الخشب الأبيض ثبت على رأسها حزمة من الأشرطة الطويلة من الورق المقدس، لوحت بها فوق رأس إيتسو-بو، وتمتمت ببعض التراتيل الدينية. جلسنا جميعًا هادئين للغاية ورؤوسنا محنية.

بعد برهة من الصمت أعلنت الكاهنة أنها عرفت للتو من الآلهة أن إيتسو-بو كانت ذات يوم بقرة بيضاء صغيرة تستخدم لنقل الأخشاب لبناء ضريح شنتو فوق الجبل. قالت الرسالة إنه نظرًا لأن الحيوان الصغير كان يصعد الطريق بصبر واجتهاد يومًا بعد يوم ويبذل طاقته عن طيب خاطر لأداء الواجب المقدس، فقد قامت الآلهة بتسريع عملية التناسخ وأذنت لروح البقرة البيضاء بالدخول على الفور في تجسدها الحالي كإنسان».

سألت هنانو بعينين مندهشتين مفتوحتين على اتساعهما: «هل تعنين أن أمي كانت تلك البقرة البيضاء؟»؛ بينما توقفت تشيو عن الأكل ونظرت إليَ بقلق.

أضافت أختي مبتسمة: «لم يصدق والدي الكاهنة، بيد أنه، وإرضاءً للجدة الجليلة، قدم هبة سخية للضريح. لكنه ظل دائمًا يقول إنه لم يقدم الهدية كامتنان نحو الآلهة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بل دلالة على الرضا إذ تبين له سبب ولع إيتسو-بو المفرط بكل الخضروات الخضراء وإعراضها عن الأسماك في الغالب. أما الآن، فسواء صحت تلك الحكاية أم لا، إذ لا تختلف عن أي حكاية خرافية أخرى؛ المهم أنه من حسن حظكن يا بنات أن والدتكن الكريمة مخلصة وصبورة، فقد صعدت طريقًا صخريًا مليئًا بالعقبات وها هي اليوم على أهبة الاستعداد لأخذكن إلى أمريكا». وأومأت برأسها بمرح للطفلتين وهي تناولني بكرم لقيمات أخرى من براعم الخيزران والخضراوات.

جاءت إحدى جارات أختي لرؤيتنا بعد بضعة أيام، كان ابنها تاجر نفط ناجح في طوكيو. وذكرتنا رؤيتها، كلانا أنا وهنانو، بحادثة بالغة الطرافة تتعلق بزيارة من زوجة ابنها بعد وقت قصير من استقرارنا في طوكيو. وهي سيدة من الطبقة الأرستقراطية التقدمية والمفتتنية حديثًا، وهي تمثل كلمة «هايكارا» كليًا؛ الكلمة التي صيغت حديثا ومعناها: روح الأناقة والحداثة. وقد تأنقت تلك السيدة بملابس جميلة، بالزي الياباني بالتأكيد، فحتى النساء الأكثر تقدمًا لم يصلن إلى المرحلة التي يرتدين فيها الزي الأوروبي في المناسبات الرسمية.

بعد انحناءة رسمية طويلة والسؤال عن الحال وصحة الأسرة والأقارب كالمعتاد، وبعد تعليقاتها اللبقة والإشادة بتنسيق الزهور الموضوعة على التكونوما، انحنت نحو الأمام وفتحت مربعًا من قماش الكريب الجميل الملون والمطرز بصورة رائعة. وهذه عادة يابانية قديمة راسخة، أن يأخذ الزائر هدية عند زيارة صديق، وقد رفعت ضيفتي هديتها وقدمتها لي، بتواضع، إنما باعتزاز، صندوقًا ورقيًا كبيرًا مستوردًا كتب عليه بأحرف إنجليزية فاخرة:

أطايب الأطعمة المستوردة

طعام أجنبي شهي برائحة الزهور!

يستخدمه السيدات والسادة في المجتمع المتحضر في أوروبا وأمريكا.

كانت الهدية صندوقًا ضخمًا من العلكة العادية. إن مبالغة ضيفتي باتباع أدق آداب السلوك وتكلفها المبالغ فيه، تناقض تناقضا طريفا للغاية مع الهدية المقدمة. بيد أن

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

تلك هدية مناسبة تمامًا من وجهة نظرها. فلم تكن مسألة سهلة اختيار هدية مناسبة لسيدة عاشت سنوات من عمرها في أمريكا، ويُعتقد أن لها ذائقة أجنبية؛ لذا، ذهبت ضيفتي إلى متجر يعرض سلعا أجنبية، وبعناية تامة، اختارت لي هذه الهدية التي رأت أنها تناسبني.

حين قدمت الهدية كانت هنانو وتشيو حاضرات. نظرت تشيو باهتمام بالغ إلى الحروف الأجنبية. حتمًا لم يكن بوسعها قراءتها، بينما ألقت هنانو نظرة لا مبالاة عليها، في حين انحنينا جميعًا بلطف تقديرًا لكرم السيدة، وأعقبتها على الفور بنظرة سريعة أخرى؛ وبعد ذلك، لوت وجهها قليلًا، وانحنت بعمق قائلة: «عذرًا»، وانسلت بسرعة من الغرفة.

ركضت نحوي حالما غادرت ضيفتنا.

صرخت بغبطة: «أوه يا ماما، لا أظن أن ناكاياما ساما وفقت باختيارها تلك الهدية لك! لو تعلم كيف وبَّختِني ذات يوم في أمريكا لما عدت من المدرسة وأنا أمضغ قطعة من العلكة؟ وكيف ألزمتني بغسل فمي وأخبرتني أنني لو كنت في اليابان لقالت لي إيشي إنني أشبه الصور البوذية لروح جائعة في جحيم الجوع»!

أهمَّت هذه القصة أختي كثيرًا.

قالت: «رغم أنها تلوح كعادة غريبة، إلا أنها لا تضر مثل تلك التي أدت إلى تسويد الأسنان». سألتها: «كيف بدأت تلك العادة يا أختاه؟ فقد سألني الكثيرون في أمريكا عنها، ولم أستطع إلا أن أروي لهم تلك القصة القديمة السخيفة عن الزوجة البسيطة التي لطخت أسنانها بالخطأ، فبدت زاهية كثيرًا بذلك الاسوداد على أسنانها، حتى أنها نالت ولاء زوجها وحسد جميع الزوجات الأخريات».

قالت أختي: «ثمة قصص كثيرة سخيفة مثل هذه، تُحكَى عن عاداتنا القديمة. عندما زرت منزل أهلي لأول مرة بأسنان مسودة، سمعت أبي والسيد تودا يتبادلان الحديث حول أن أسلافنا كانوا في الماضي، يمضغون شيئًا ما بكيفية ما. لكن القصة التي روتها لي جدتي الجليلة تقول: منذ زمن بعيد، حينما كان لكل الناس

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أسنان بيضاء، عاشت زوجة شابة اتهمها زوجها الغيور بأنها تبتسم لتتباهى بأسنانها البيضاء. وذات يوم، أثناء تقطيع الباذنجان لتناول العشاء، أخذت بعض القشور الرقيقة ووضعتها على أسنانها. وحالما عاد الزوج ورأى جمال اللون الأرجواني بتباينه المذهل مع بشرتها الزيتونية وشفتيها القرمزية استشاط غضباً وسأل عن الدافع وراء تبرجها؛ فأخبرته أنها أرادت تعمية جمال أسنانها وحسب، فأدرك زوجها قدر تواضعها، ولم يعد يزعجها بغيرته. وهكذا، أمست أكثر جاذبية من السابق، ونتيجة لذلك، أصبحت نموذجًا يُحتذى به، وأصبح جمال الأسنان السوداء رمزًا للزوجة المخلصة والمطيعة مع مرور الوقت. وقد رويت هذه القصة للجدة الجليلة حينما تزوجت».

ولكن ربما ما تناهى لسمع أختي من الحديث بين أبي والسيد تودا هو التفسير الأكثر منطقية لعادتنا المتمثلة في تسويد الأسنان. إنها حقيقة تاريخية أن الغزاة الأوائل لليابان، الذين جاءوا بلا شك من الشواطئ الدافئة لآسيا الوسطى، زرعوا بساتين التنبول في الجزر الدافئة في جنوب اليابان حيث هبطوا لأول مرة؛ ومع ذلك، وبسبب الاختلافات في التربة والمناخ، استحال نمو النبات.

أصبح مضغ التنباك نتيجة لذلك، في غضون سنوات قليلة، يقتصر على أولئك الذين يمثلون الثروة والمنزلة، حتى أن العربة الإمبراطورية القديمة التي استخدمها الإمبراطور الذي حكم منذ أكثر من ألف عام، والموجودة الآن في متحف طوكيو للفنون، مسقوفة بقش قشر جوز التنبول. يعكس هذا ندرة أشجار التنبول في ذلك الوقت، إذ كانت العربة الإمبراطورية أغلى مركبة على وجه الأرض.

وحينما أصبح تغير لون الأسنان بسبب استخدام التنباك منتشرًا بين الطبقات الأكثر ثراء، أصبحت موضة رائجة واكتشفت بدائل ومنتجات بديلة. وبعد فترة طويلة من انقراض جوز التنبول في اليابان خلال العصور الوسطى، استخدم كل من الرجال والنساء ذوو المكانة العالية مسحوقًا مشتقًا من الجوز البري المنتشر في المرتفعات، لتسويد أسنانهم. وحتى عام 1868، واصل رجال الحاشية الإمبراطورية هذا التقليد. حتى إمبراطور الإصلاح، ميجي تينو، دكن لون أسنانه في تلك الفترة.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما أسنان الساموراي فلم يتغير لونها أبدًا. فلطالما سخر الساموراي من الصرعات التي تحفل بالراحة والأناقة وتجعلها في مرتبة أعلى من القوة والمنعة. لم تصمد عادة التباهي تلك بعد الإصلاح في مواجهة نور الحضارة الغربية المتقد، إلا أنها ظلت عند النساء، لكونها توحي بجمال ورفاهية الطبقات الموسرة، واتخذته جميع الطبقات رمزا للزواج. ومنذ ذلك الحين، عمدت الفتيات إلى تسويد أسنانهن في يوم زفافهن وداومن على تغميقها لبقية حياتهن.

لم تكن تلك العادة دميمة، فحين تسود الأسنان كل صباح، تبدو كأنها كخشب أبنوس مصقول، وبريق اللون الأسود اللامع فوق الشفاه المرجانية يبرز لون البشرة الزيتي الصافي، فيبدو جميلاً في عيون اليابانيين كما يرى الأوروبي نقطة لصوق ملكية سوداء على جلد فتاة عاجي أثناء عصر الاستعمار الأمريكي. هذه العادة في طريقها إلى الانقراض الآن، لكنها لا تزال موجودة في كل مكان في المناطق الريفية. حتى في المدن الكبيرة، لا تزال جميع السيدات المسنات تقريبًا ذوات الرتب العالية جدًا والمراكز المتواضعة جدًا متمسكات بهذه العادة. أما الطبقة المتوسطة في اليابان فهي التي تقود طريق التقدم دوماً.

---

(47). توضع جرة الرماد الناتج عن حرق الجثة عادة في قبر حجري يشبه النصب التذكاري.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنوز عديمة النفع

قضينا أسبوعًا سعيدًا مع أختي في قرية دودة القز الصغيرة، وحين أوشكت زيارتنا على الانتهاء، اصطحبتنا ذات يوم إلى مخزنها الكبير، حيث خزنت كل الأشياء التي أحضرت من ناجاوكا. أصبحت معظم أملاكنا القديمة الآن، مجرد أعباء عديمة الفائدة، ولكن ثمة أشياء منها أردت أن أريها لبناتي؛ إذ كانت جميلة وذات جدوى يوماً ما، و لا تزال عابقة بذكريات غالية على قلبي.

مررنا عبر باب ثقيل، يبلغ سمكه قدمًا من الجص المقاوم للحريق، ودلفنا إلى غرفة كبيرة غصت نواحيها الأربعة بالرفوف، ازدحمت أغلبها حتى الحافة. وضعت مكتبة كاملة من الكتب ذات التغليف الورقي داخل صفوف لا نهاية لها من الصناديق الطويلة والرفيعة. وثمة صفوف أخرى من صناديق أكبر تحتوي على الطاولات الصغيرة المخصصة لتناول الطعام، وأخرى مليئة بالأطباق والصواني وكل الملحقات التي قد تحتاجها أسرة موسرة. كانت الصناديق الطويلة والرفيعة التي احتوت على صور ملفوفة والعديد من أدوات الزينة (مثل المزهريات البرونزية والمباخر والمنحوتات الخشبية والعاجية) ملفوفة بدقة في مربعات من القطن أو الحرير، رتبت في أماكن حيث يسهل الوصول إليها، معدة للتغيرات المتكررة الضرورية في المنزل الياباني.

احتلت الخزائن جزءًا من الأرضية، وهي ذات أدراج مرتبة في صفوف، تتحاذى ظهرًا لظهر، بينما وقفت الشمعدانات الطويلة والإطارات الخشبية وغيرها من الأدوات المنزلية الكبيرة في الزوايا.

صرخت هنانو وهي تمعن النظر حولها مندهشة: «انظري!، لم يسبق لي في حياتي كلها، أن رأيت أشياء بهذه الكثرة مرة واحدة»!

أما تشيو فقد قارنته بالمتجر، مشيرة إلى أن كل شيء مُخزن بصورة أنيقة وإن كان مخبوصاً.

ضحكت أختي وقالت: «لا تنتقدي تدبير منزلي. يُقال أن المستودعات الممتلئة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالأشياء هي أخير متحف للأدوات المنزلية في جميع أنحاء اليابان؛ وذلك صحيح قطعاً، لأننا نقوم بتخزين ما لا نستخدمه حالياً حتى يحين وقت الحاجة. لم أر أبدًا أي مستودع منظم».

بيد أن مستودع أختي كان في حالة فوضى بحق، فقد ركمت أشياء كثيرة من مخازننا في ناجاوكا والتي لم يعدّ لها مكان بعد على أرفف نصف ممتلئة في مساحة واسعة خلف الدرجات الخشبية المؤدية إلى الأعلى. رأيت المحفّة الكبيرة قابعة بين كومة من الصناديق التي تحتوي على لافتات حريبة وبعض الفوانيس الطويلة المغطاة بورق مزيت، وهي محفة غير عملية استخدمها والدي في زياراته الرسمية إلى العاصمة في السنوات التي سبقت تغيير اسمها من إيدو إلى طوكيو وقد بهت طلاؤها، وتشوهت زخارفها المعدنية، واهترأت وسائدها المزركشة. لكن هنانو رأت أنها غاية في الأناقة. تسللت إلى داخلها، واستقرت براحة على وسائدها الفخمة، ثم أسندت مرفقها على مسند الذراع المطلي بالورنيش، وألقت نظرة خاطفة على صندوق المرحاض في الجيب الحريري الأمامي. وبعد أن نظرت إلى الانعكاس الضبابي لوجهها في المرآة المعدنية المعلقة أعلنت أن عربة السفر العائدة إلى جدها ملائمة ومريحة للسفر بها إلى أمريكا.

دفعتُ الجزء العلوي المبطن أثناء خروجها من العربة، لكن المفاصل كانت صدئة. وقد كانت مصممة على الرفع والتأرجح للخلف. اعتاد أبي في رحلاته الطارئة أن يرتدي ملابسه على عجل بينما يهرول الحمالون حثيثًا، فيما يركض جيا بجانب العربة لمساعدته بين الحين والآخر.

هتفتت تشيو من خلف الدرج: «هنا محفة أخرى وهي أجمل من تلك يا هنانو، إنما هذه بلا أبواب».

فضحكت أختي قائلة: «ما! ما!»، وسارت نحوها ثم علقت: «هذه غير مخصصة للركوب، أيتها الصغيرة، إنها للسباحة!» ورفعت تشيو إلى حوض الاستحمام الضخم المطلي باللون الأحمر، والذي كان قائمًا في زاوية مسكننا منذ أن وعيت. كنا نستخدمه لحجز الشرانق، إلى أن تستعد الخادمات لغزل خيوط الحرير منها

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بعد طبخها ومن يقطنها من المخلوقات الصغيرة المسكينة. ثمة عيب في الحوض عند الحافة بسبب قدم طلائه، إنما لم يعتره تشقق، و لا يزال يحمل نعومة المخمل العميقة، بينما تجلى شريط الخيزران المعقوص تحت السطح المصقول كتجلي الطحالب في غدير صافٍ. لا ريب أنه بالغ القدم، لأنه أحضر إلى عائلتنا كجزء من مهر زفاف جدتي ابنة يودو دايميو، إينابا نو كامي، منذ ثلاثة أجيال.

نادت هنانو: «تشيو، اخرجي! اخرجي وتعالَي إلى هنا». وأضافت وهي تنظر إلى داخل الشيء الذي وجدته: «قبعة غير أنها ذات طابع مضحك من الداخل».

كانت تقف في زاوية معتمة حيث وضعت بعض من الأغراض المتنوعة على رف مزدحم، وقد أزالت لتوها غطاءً طويلًا عن دلو ضحل من الخشب الأبيض، في قاعه نتوء قصير من الخشب الصلب يرتفع بشكل حاد وقوي، لم يكن سوى دلو رأس كان لأبي احتفظ به دومًا في خزانة الرفوف المغلقة فوق توكونوما صالون البيت.

قلت بسرعة: «هيا بنا لنصعد إلى الطابق العلوي الآن أختاه، ألا تُرين البنات قبعة زفافك المحاكة من خيط الحرير؟ لم يسبق لهن أن شاهدن حفل زفاف تقليدي، ليرين فيه كيف تصل قبعة العروس إلى الذقن».

أسرعت بالطفلتين عبر الدرج الضيق إلى الغرفة أعلاه. لم أرغب في أن أشرح لهما كيفية استخدام دلو الرأس. ولم يكن تعليمهن الحديث ذو الطابع العملي ليمكّنهن من فهم مفهوم مثل الشرف الرفيع، الذي دفع العديد من الساموراي القدماء، أن يختاروا، عند إدانتهم باقتراف فعل غير قانوني، أن ينهوا حياتهم بيدهم بشرف، بدلاً من تلطيخ اسم عائلتهم بعار الإعدام العلني، فيقدم الدليل لإثبات إمضاء القانون إلى المحكمة باستخدام دلو الرأس، الذي وجد في كل منزل من منازل الساموراي. وبعد أن تثبت السلطات هوية الرأس، يعاد إلى عائلته وسط مراسم التبجيل، ويدفن الساموراي الهالك بشرف، وقد كفّر عن جريمته تمامًا.

طبعًا، لم يتحقق الهدف الشنيع لدلونا. استخدم بدلا من ذلك لتثبيت لفافة من القنب بين فينة وفينة حينما تقوم الجدة الموقرة أو إيشي بلفه استعدادًا لتدويره. لقد كان ملائما لتلك المهمة مثله مثل صندوق الكتان. بل إنهما متشابهان إلى حد

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كبير، لدرجة أنه لم يرخص لأي عروس بامتلاك صندوق كتان، رغم أن جميع أدوات الغزل الأخرى اعتبرت ضرورية للمهر في تلك الأيام.

أضيئت غرفة أختي في الطابق العلوي، من خلال نوافذ رفيعة ذات قضبان حديدية مغروسة بعمق في الجدار الجصي السميك، وفتحت المصاريع، التي كانت أبوابًا ثقيلة جدًا من الجص، فهب نسيم عليل منها جدد هواء الغرفة وبردها. وثبتت على الجدران خزانات ذات أدراج وصناديق خشبية كبيرة بأشرطة معدنية، عليها شعار إيناجاكي. يمكنني بسهولة التكهن بمحتويات صناديق أختي لأن منزلها الفسيح كان مؤثثًا بأكمله بكل ما قد يحتاجه المرء لبيت ريفي. احتوت الغرفة على ألحفة حريرية مبطنة، ووسائد دائرية مصممة للرجال ووسائد مربعة صغيرة للنساء، وناموسيات كبيرة صنعت من حبال قصيرة تدلت من أركان السقف. أحاطت بالمكان بأكمله، خيوط رفيعة من العشب المنسوج لفصل الصيف، والخيزران المظفر للشرفة، وحبل منسوج للمطبخ، ووسائد من كل نوع - ناعمة، سميكة من الحرير الثقيل لفصل الشتاء، بعضها مستدير وبعضها مربع، بعضها عادي، وبعضها مخضب بأنماط متناسقة - فالوسائد هي كراسينا، وكان واجبًا توفرها بكثرة في كل منزل لتكون في متناول اليد عند الحاجة إليها دائمًا.

قالت أختي وهي تؤشر بيدها نحو خزانة ذات أدراج منخفضة: «هنا أحتفظ بنفائس أثوابي، التي توارثتها العائلة منذ أكثر من مئتي عام، أما التي أستخدمها عادة فأبقيها في مكان قريب، في الطابق السفلي»، ثم أخرجت ثوبًا مشغولًا بعناية ودقة ذا بطانة قرمزية وحاشية كبيرة وواسعة، وهو لبس مخصص للحفلات والمناسبات، كان يلبس في تلك العصور القديمة، للمناسبات الرسمية وحسب. بدا بحالة جيدة وكأنه جديد، وذلك لأن النساء اليابانيات هن مدبرات منزل حاذقات، فربما نُفضَ هذا الثوب وفحص زهاء كل (يوم تهوية) منذ أن استخدمته امرأة من أسلافي لأول مرة منذ زمن غابر.

قالت هنانو: «يشبه تلك الأثواب البديعة التي شاهدناها في إحدى المسرحيات على مسرح طوكيو، أليس كذلك؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأمر كما قالت فعلاً، لأنه على المسرح وحسب يمكن رؤية هذه الأزياء الرائعة في حياتنا الحديثة. احتوى الدرج التالي على سبعة أثواب من ثياب زفاف أختي، الكتان الأبيض الناعم، رمز لموتها حين غادرت منزل أبويها، والحرير القرمزي، شعار ميلادها من جديد في عائلة زوجها، وخمس أردية أخرى مطرزة بإتقان وهي تحمل شعار زوجها ورموز الزواج المصنوعة من الصنوبر والخيزران والبرقوق. قالت أختي وهي تبسط شيئًا لاح كأنه فطر كبير من الحرير: «هذه هي قلنسوة الزفاف التي طلبت رؤيتها». صنعت من خيوط حريرية بديعة وفاخرة وصممت لتناسب الرأس والكتفين بطريقة مريحة. تراءت مثل طرحة سميكة وزاهية.

صاحت تشيو بفرح: «أوه، يا لجمالها؟ هلا ارتديتها يا هنانو، دعينا نراها عليك!»

اعتراني شيء من الجزع وأطلقتُ شهقة: وحينما هزت هنانو رأسها رافضة بابتسامة لطيفة، شعرت بالارتياح. لم أتيقن من سبب امتناع الطفلة. ربما لأن بياض الحرير الناصع ارتبط بملابس الحداد البيضاء التي ارتديناها في جنازة والدتي. رغم خلو الأمر من أي خرافات حول ارتداء ثوب العرس بعد حفل الزفاف، إلا أنه لم يحدث ولُبس البتة، بل ترك في حالة انتظار. فقد أُلبِسَتْ كل من جدتي الجليلة وأمي ثوب زفافهن تحت رداء الموت لرحلتهن الأخيرة.

احتوت الخزانة التالية على لوازم الجنازة، ذلك لأن الزواج والموت يتلازمان باعتبارهما أهم مناسبتين في حياة اليابانيين. أحضر هذا الصندوق أيضًا مع الصناديق الأخرى من ناجاوكا، مُلئ إلى منتصفه تقريبًا بمجموعة غير منظمة من الأزياء الخاصة بالحمالين الذين يحملون الفوانيس الطويلة، وقفص الحمام المصنوع من الخيزران، والكاجو الثقيل الذي يحمل الجثمان. صنعت جميعها من الكتان، فلا يستخدم الحرير في لوازم الجنازة البتة. ثمة تنانير ذات ثنيات وملابس بأكتاف صلبة للخدم لا تحمل شعارا عائليا، وكيمونو للخدم ذو أشرطة بيضاء، وصناديق من أربطة الركبة، وصنادل حجاج، وعدد لا يحصى من الأشياء الصغيرة التي لا غنى عنها لمختلف الحاضرين في الموكب المنظم. بوسعي تذكر محتويات الصندوق إذ أنه يحتوي على كل ما يلزم لجنازة الساموراي، عدا قبعات القش الكبيرة التي تحجب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوجوه الحزينة عن إلهة الشمس، لأن تلك القبعات يجب أن تكون حديثة وجديدة لكل مناسبة يأخذ كل منزل لمسؤول كبير أهبة استعداده بمثل هذه اللوازم، لأن الوفاة كثيرًا ما تحدث بغتة، وظلت المعايير اليابانية للمناسبات الاحتفالية صارمة وثابتة.

قالت أختي: «هذا كل شيء هنا»، بينما كانت توصد غطاء الصندوق وتدخل القضيب المعدني من خلال المشبك الثلاثي، «إن فائدة هذه الأشياء وروعتها غدت جزءا من الماضي. إنني أمزق بين حين وآخر ثوباً منها لأحصل على حبل من الكتان لحصيرة بالية، وعندما يتمزق خيط حذاء أحد العمال، أعطيه صندلًا من هذا الصندوق؛ لكن الأمور تسير رويدا، رويدا».

أضافت وهي تنقر برفق على درج خزانة جديدة مصنوعة من الخشب الأبيض: «بيد أن هذا معدٌّ للمستقبل. سيستخدم يوما ما».

سألتها: «ما هذا؟»

ردت بجدية: «رداءي الذي سأدفن فيه».

«من فضلك يا أختي أريه للبنات، صحيح أنه سبق ورأيا رداء والدتي بالطبع، غير أنه لم تتح لي الفرصة لأشرح لهن المغزى منه».

فتحت الدرج وأخرجت كفنها، جلسنا جميعنا ساكنات، بدا في طيته مثل الذي وضعناه على أمي تمامًا. صنع من الكتان الأبيض الناعم وبدلًا من النطاق فيه حزام ضيق مثل الثوب الأول للطفل، لدينا معتقد بأننا ندلف للعالم الآخر كأطفال رضع. غطت الرداء كله تقريبًا نصوص من الكتب البوذية المقدسة، كتبها كهنة بارزون في أزمان مختلفة. أظهر الشريط الفارغ في المقدمة أنه لم ينجز بعد. وبجانب الرداء ثمة حقيبة بيضاء صغيرة مخصصة لوضعها حول الرقبة حين تحين رحلة أختي المرتقبة، ستضم خصلات شعرها الذي حُلق في مراسم التعميد وعمرها ثمانية أيام، وحبل السرة المجفف، وما قص من شعرها حين ترملت، وعملة معدنية من فئة ستة رين ليدفع للعبار(48)، ومسبحة الموت المصنوعة من خرزات خشبية بيضاء، ولوحًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدسًا يسمى «العبور السماوي».

وبينما تعيد أختي طي الرداء، نَظَرْتُ إلى وجوه الأطفال الساهمة وانفجرت في ضحكة مرحة: «لماذا كل هذا الحزن يا ذوات الوجوه الوقورة؟»

وأضافت: «ألن يكون عارًا عليّ أن أتلقى برقية تدعوني للعودة إلى داري وأنا لم أجهز ثوبا مناسبا للرحلة؟»

فعقبتْ قائلة: «بلى يا بناتي، شيء طبيعي ومعتاد أن يتهيأ كل ياباني لرحلته الأخيرة شأنه شأن أهل أمريكا فلا يخلو بيت هناك من صندوق».

ثم نادتني أختي: «تعالي من هذه الناحية»، وقادتني إلى الجانب الآخر من الغرفة. «هذا شيء يخصك يا إيتسو بو من الأفضل أن تتولّي أمره»، ثم قامت بسحب درج صغير، بداخله قطعة رفيعة يبلغ طولها قدمًا تقريبًا، ملفوفة بالكريب الأرجواني تحمل شعار إيناجاكي. خفق قلبي. إنه السايهاي الذي استخدمه توكوجاوا إياسو وأعطاه لأحد أجدادي في ساحة معركة سيكيجاهارا وهو واحد من ثلاثة أشياء يعد من أثمن ما تملكه عائلتنا من إرث.

رفعت القطعة الثمينة إلى جبهتي بتوقير. بعد ذلك، أمرت الطفلتين أن يجلسا ويحنين رؤوسهن، قمت بفك مربع الكريب على مهل، وكشفت عن عصا قصيرة وسميكة من الخشب المطلي، بها حبل حريري من أحد طرفيها مثل حلقة معصم، ومن الجانب الآخر إبزيم سلسلة برونزي يمسك بمجموعة من الأوراق الناعمة والمتينة المشرحة إلى شرائط.

قالت هنانو: «شرائط الورق صفراء ومهترئة جدًا. هل كانت في الأصل أوراقًا بيضاء؟»

أجبتها: «نعم، لقد اصفرت بفعل الزمن. وتمزقت لأن الكثير منها قد انتزعت لتؤكل».

صاحت كلا الطفلتين مذعورتين: «لتؤكل كالطعام»!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أستطع منع نفسي من الابتسام، وشرحت لهن أن لدى كثير من الناس اعتقاد بأن الشرائط الورقية لهذه القطعة التي مستها يد إياسو تمتلك قوة سحرية للشفاء. وقد أخبرتني والدتي أن المرضى كانوا يقطعون مسافات طويلة من أجل استجداء قطعة صغيرة من هذه الأوراق ولفها على شكل كرة وابتلاعها كعلاج. ورغم أن أبي تعود على الضحك من الأمر، إلا أنه كان يطلب من أمي أن تناوله الورقة، قائلًا إنها أقل ضررًا من معظم الأدوية، وأن الاعتقاد وحده يسهم بالشفاء.

كنا على وشك نزول الدرج حين توقفت أمام صندوق كبير من الخشب الأبيض بغطاء متداخل وأقدام منحنية مثل خزانة كتب المعبد، رفع فوق الأرض مباشرة على منصة. سبق أن رأيت هذا الصندوق في طفولتي، إنما في أيام التهوية وحسب. أحيط دومًا بحبل الشنتو المقدس. وبعد برهة من التردد ناديت على أختي لتعود وقلت: «قد يكون طلبي بالغ الجرأة، هل تمانعين إن طلبت منك أن تفتحي صندوق الخشب الأبيض؟ تغيرت مشاعرنا منذ الأيام الخوالي، وأود أن تراه الفتيات».

قالت أختي على عجل: «إيتسو-بو، أو ترغبين بمعاينة الأشياء المقدسة...»، ثم توقفت فجأة وهزت كتفيها وأضافت بمرارة: «في الواقع، رأته عيون النساء بالفعل. لقد بذل النظام الجديد وسعه لينزع منا جميعًا روح التبجيل».

ثم عمدنا، أنا وإياها كل واحدة من جهة إلى رفع الغطاء كاملا، كما اعتاد جيا ويوشيتا أن يفعلا في الزمن الخالي وهما يرتديان ثيابا طقوسية لهذا الأمر. لقد فوجئت حينما انحنينا وألقينا نظرة على داخل الصندوق، فقد اختفت منه بعض الأشياء المقدسة. أخذ أخي سجلات نسب عائلة إيناجاكي، أما معطف إياسو وسيفه فأصبح في عهدة فرع آخر من العائلة؛ بيد أننا وجدنا أمامنا، ثوباً مثل الكفن، ساكن في طيته، وقد حال لونه الأبيض مع الزمن إلى الصفرة. وفوقه ثمة قبعة مخروطية الشكل ومروحة قديمة مصنوعة من خشب رقيق. يُعتقد أن هذا الرداء المقدس، هو الذي كان يرتديه الدايميو أو مندوبه حينما يتولى منصب رئيس الكهنة في معبد الأجداد، ويتفرد بقوة سماوية. حكت لي جدتي ذات مرة، عن حدوث معجزة، تحت ظل كمه العريض، حين كان يرتديه جدي الأكبر.

حدقنا فيه برهة وحسب، ثم أغلقنا الصندوق بصمت. لم نتحدث لا أنا ولا أختي عنه ثانية، إنما عرفت أنها شعرت، مثلما شعرتُ، بأننا تطاولنا إلى حد ما حين فتحنا ذلك الصندوق، الذي طالما كان في الأيام الخوالي، مصانًا بصورة دائمة في الغرفة المقدسة، ولم تدنس امرأة برجلها حتى عتبة باب تلك الغرفة. ورغم أنني تجاوزت إيماني المبكر بكل تلك الأشياء، إلا أن تأثير الذكريات لم يبارحني. وبينما انساقت الذكريات الجميلة والحزينة في ذهني، دوى صوت إغلاق إحدى النوافذ الثقيلة المتأرجحة فجأة! من المعتاد أن يغلقها أحد الخدم من الخارج بعصا طويلة، ويبدوا أنه أغلقها هذه المرة جاهلًا بوجودنا هنا".

قالت أختي ضاحكة: «ما! ما! تأخر الوقت، أسرعن، أتوسل إليكن بشدة»؛ وهبطنا جميعًا الدرج الضيق وخرجنا من الباب، وسمعنا صوت إغلاق النوافذ خلفنا الواحدة تلو الأخرى، وأُغلقَ المستودع، وغاص بكل إرثه، في الظلام.

---

(48). يتوجب على روح المتوفى عبور النهر (هو نهر أسطوري في التقليد البوذي الياباني) قبل الوصول إلى الحياة الآخرة. و يجب دفع الرسوم لتتمكن الروح من عبور النهر.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السفن السوداء

جاء عمي الذي يسكن طوكيو في الليلة التي سبقت إبحارنا، حاملاً معه مجموعة من (أشرطة الصداقة) للفتاتين - تلك الأشرطة الهشة والجميلة والاهتزازية التي تربط أيدي الأصدقاء بين سطح السفينة والرصيف في لحظة الانطلاق - والافتراق.

صاحت تشيو واللفائف زاهية الألوان تتساقط من العبوة: «سآخذ واحدة وردية لتوشيكو وواحدة زرقاء لكوني سان، وأخرى بيضاء لمعلمتي والأرجوانية لـ —لك يا عم توسا! اثنتان من ذوات الرسومات الأجمل لك، بأي لون تختاره»!

قالت هنانو: «أنا سآخذ التشكيلة الكاملة ذات اللونين الأحمر والأبيض لكل اليابان! رمز المحبة، كثير من المحبة، والتوديع؛ لأنني لن أعود أبدًا. أحب الجميع هنا، لكنني سأبقى إلى الأبد مع جدتي في المنزل، المنزل الجميل». ترنمت باللحن بتؤدة وهي تنسل مبتعدة، وقد تهلل وجهها فرحًا. آه يا هنانو، لم تحلم بالعودة وما درت حينها أنها ستعود في السنوات القادمة -مرات عديدة- ودائمًا بقلبها المليء بالإخلاص المزدوج: نصف لأرض ميلادها ونصف لأرض الحب، حيث الزوج والأطفال، والمنزل.

ذهبت هنانو وتشيو إلى فراشهما، وبقيت أضطلع بآخر مهام حزم الأمتعة عندما رفعت سودزو شالاً مطويًا لتضعه داخل جيب الحقيبة قبل إغلاقها. قالت: «هذا واسع إلى حد ما. الوسادة ستكون ملائمة تمامًا؛ ولكنها سخافة منا أن نحمل إلى بلد عظيم مثل أمريكا وسادة جلوس عادية». لم تكن تعلم أن في قعر حقيبتي المخصصة لأثمن الأمتعة، يقبع شيء لم أتخيل أبدًا أنني سأعثر عليه في أي مكان، عدا عن مكانه المعتاد بجوار مدفأة النار في غرفة جدتي الجليلة، حتى رأيته في مخزن أختي، كانت وسادة مربعة منبسطة من الديباج الأزرق، عتيقة وباهتة بعض الشيء.

كنت بمفردي حين لففتها لآخذها إلى رحلتها الطويلة، وبينما مررت يدي فوق الزهور الحريرية، عادت بي الذاكرة إلى الزمن الذي كنت فيه تلك الفتاة الصغيرة بشعرها الأسود مرتدية قبقابها الخشبي وشاقةً طريقها بسرعة عبر البوابة الكبيرة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنحني بأدب للعائلة، وتنشر أمام جدتها، التي كانت تجلس على ذات هذه الوسادة، كتابًا كبيرًا مسطحًا وتقول وهي تشير إلى خريطة العالم الملونة: «جدتي الجليلة، أنا متكدرة للغاية. عرفت للتو أن بلادنا الحبيبة ليست سوى بضع جزر صغيرة وحسب في هذا العالم الكبير».

عدلت الجدة نظارتها ذات القرن الكبير ودرست الخريطة بعناية لبرهة. ثم أغلقت الكتاب بوقار وثقة وقالت: «أمر طبيعي تمامًا، يا إيتسو-بو الصغيرة، أن يجعلوا اليابان تبدو صغيرة على هذه الخريطة. إذ رسمها أهل السفن السوداء. أما في الخرائط اليابانية للعالم فإن اليابان تبرز ضخمة».

وحين سألتها الفتاة الصغيرة: «من هم أصحاب السفن السوداء؟»

ردت جدتها الجليلة: «إنهم البرابرة الحمر الذين قدموا بلا دعوة إلى أرضنا المقدسة. لقد جاؤوا في سفن سوداء كبيرة، تبحر بلا أشرعة».

أعرف الأغنية فإيشي تغنيها لي؛ وصوتها الرقيق الخافت يردد:

«قدموا من مهد الظلمة، عمالقة أنوفهم معقوفة كعفاريت الجبل

عمالقة بشعور خشنة، حمراء تنسدل

اغتصبوا وعداً من سيدنا المقدس

ثم تراقصوا فرحاً وهم يبحرون للبعيد

إلى مهد الظلمة القصية».

قالت الصغيرة: «إني أتساءل لماذا سميت باسم (السفن السوداء). هل تعرفين يا جدتي الجليلة؟».

فما كان من الجدة سوى أن قالت: «لأنها تراءت على المياه من بعيد كسحب من الدخان الأسود تتقلب وتقترب أكثر فأكثر، حاملة بنادق سوداء طويلة تدوي. لم يعر أولئك البرابرة الحمر أي اهتمام بالجمال. وهزأوا بالقوارب اليابانية التي صنعت أشرعتها من الديباج الفاخر ونحتت مجاديفها من الخشب وطعمت بالمرجان وعرق

اللؤلؤ. لم يعبئوا بغير حديث التجارة ولم يرغبوا باكتناه قلوب ذرية الآلهة».

توقفت الجدة وهزت رأسها ببطء.

سأل صوت الصغيرة المتلهفة: «وبعد ذلك؟ وبعد ذلك يا جدتي الجليلة؟»

اختتمت كلامها بتنهيدة عميقة: «لقد أبحرت السفن السوداء بالبرابرة الأجلاف للبعيد»، لكنهم أبحروا قافلين عدة مرات. هم لا يتوقفون عن الإبحار. وها قد غدا أهل هذه الأرض المقدسة يتحدثون مثلهم كالتجار، ولم يعد يغمرهم الرضا والسلام.

سألت الفتاة الصغيرة بنظرات قلقة: «ألن يشعروا بالرضا والسلام مرة أخرى؟ أخبرنا معلمنا الفاضل أن السفن المبحرة تقرب البلدان من بعضها البعض».

جلست الجدة باستقامة شديدة وقالت: «اسمعي! يا حفيدتي الصغيرة، قد تبحر السفن وتبحر، إلا أن الأرضين لن تتقاربا أبدًا ما لم يفهم البرابرة الحمر وأبناء الآلهة قلوب بعضهم البعض».

مرت السنوات، وسافرت إيتسو بو، الفتاة الصغيرة التي استمعت إلى قصة السفن السوداء والبرابرة الحمر، بنفسها على متن سفينة سوداء تبحر بلا شراع، إلى موطن جديد في أرض البرابرة الحمر القصية. وتعلمت هناك أن القلوب في طرفي العالم متشابهة؛ ولكنه سر يخفى على أهل المشرق، كما يخفى على أهل الغرب. وذلك يشكل فصلاً آخر من حكاية جدتي، فصلًا آخر، لكنه ليس الأخير. البرابرة الحمر وأبناء الآلهة لم يكتنهوا بعد قلوب بعضهم البعض؛ بالنسبة لهم لا يزال السر مجهولًا، لكن السفن تبحر - وتبحر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner